المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

الترجمة فى العالم العربى
الواقع والتحدى

فى ضوء مقارنة إحصائية واضحة الدلالة

تأليف
شوقى جلال

1423
سلسلة دراسات الترجمة



هذا الكتاب محاولة نقدية لسبر غور حياتنا الثقافية والفكرية من خلال مؤشر وواقع حالها. بعيدًا عن صخب الشعارات ودغدغة الوجدان... ومحاولة لاستنفار قوى الفعل والتحدى فى ضوء الواقع ... فالترجمة مؤشر مهم على مدى الفاعلية الاجتماعية الصحيحة والصحية تأسيسًا على الإنتاج الإبداعى للمعرفة واستيعاب معارف الآخرين.

يقدم الكتاب عددًا من الإحصاءات ذات الدلالة تقارن بين بلدان العالم الثالث لبيان ضآلة المنتج عربيًا وهامشية الوضع الفكرى العربى؛ فواقع الإحصاءات يقول إننا منصرفون عن القراءة وعن المعرفة الحضارية المعاصرة تحصيلاً وإنتاجًا وإننا لا نزال نعيش عصر الشفاهية.

ويعرض الكتاب لعدد من قضايا الترجمة ذات الصلة، ومن ذلك اللغة العربية وتعريب العلم وأزمة تعريب المصطلح والجات والكتاب والمترجم والعولمة، وواقع حال المترجم العربى من حيث الإعداد والدور الاجتماعى والحقوق والواجبات... إلخ، ويختم المؤلف الكتاب بالدعوة إلى إقامة مؤسسة عربية للترجمة تنهض بمشروع سبق أن دعت إليه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لكنه تعثر.

الترجمة فى العالم العربى
(الواقع والتحدى)

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة دراسات الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : 1423

- الترجمة فى العالم العربى (الواقع والتحدى) .

- شوقى جلال

- الطبعة الأولى 2010

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

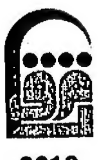
E-mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الترجمة فى العالم العربى

الواقع والتحدى

فى ضوء مقارنة إحصائية واضحة الدلالة

تأليف : شوقى جلال



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جلال ، شوقى
الترجمة فى العالم العربى : الواقع والتحدى (فى ضوء مقارنة إحصائية واضحة الدلالة) / تأليف : شوقى جلال .
القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٢٧٢ ص ؛ ٢٠ سم
١ – الترجمة العربية
(أ) العنوان ٤١٨,٠٢

رقم الإيداع ٢٠٠٤٥/٢٠٠٩
الترقيم الدولى I.S.BN. 978 - 977 - 479 - 612 - 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إهداء

إلى من يؤرقهم فعل الحاضر

وحلم المستقبل ...

حاضر ومستقبل الوطن والإنسان .

شوقي جلال

المحتويات

رقم الصفحة

مقدمة الطبعة الأولى

الترجمة عنصر أساسى من بين عناصر الفعالية الاجتماعية النشطة. فعالية قائمة على المعرفة العلمية.. إنتاجًا لها، وبحثًا عنها، وتسامحًا معها، وإيمانًا بها أساسًا للبناء والتجديد. فحياة العصر - بل الحياة الاجتماعية فى كل العصور - هى قبول للتحدى الوجودى تأسيسًا على المعرفة الاجتماعية وإبداع الجديد.. ليس فى التاريخ مجتمع ضمن بقاءه ووجوده اقتداء بآخر، أيًا كان هذا الآخر فى الزمان أو فى المكان، يسلم إليه الزمام، ويرتضى حياة الاطراد العشوائى، كأنما أقال العقل الباحث.. فمثل هؤلاء خارج التاريخ.. وإنما ضمان الحياة هو اطراد البناء الحضارى، وهو بناء متجدد أساسه المعرفة، إبداعًا ذاتيًا، واستيعابًا لمعارف الآخرين، فى إطار من التنافس ونزوع إلى التفوق.

وهذا الكتاب محاولة نقدية لسبر غور حياتنا الثقافية والفكرية من خلال مؤشر الترجمة، وواقع حالها، بعيدًا عن صخب الشعارات، ورطان النعرات، ودغدغة الوجدان... وإنما استنفار لقوى الفعل والتحدى فى ضوء الواقع، وإن بدا أليمًا. والتركة وإن كانت مثقلة.. إلا على أولى العزم. لهذا أود أن نقرأه وعيوننا على المستقبل وليس على الماضى. قد نرضى أو نهنأ بالقليل فى الحاضر، قياسًا إلى ماض حديث أو وسيط ساده الخواء الفكرى، ونظن - والظن هنا إثم - أننا أنجزنا، وحالنا أفضل، فنخطئ التمييز بين تحول حضرى بلغناه بفضل الغير، وتحول

حضارى ننشده ولم نبلغه؛ لأننا أخطأنا الوعى بأسسه، ولا يتحقق إلا بفضل جهد الذات. لذلك أحاول هنا أن نرى صورتنا من خلال الآخر، ومقارنة به، لا تمجيداً له، وإنما حفزاً للذات، وحثًا على قبول التحدى، ودعوة إلى فعل اجتماعى على هدى واقع واضح البيان.

الكتاب يقول - من واقع الإحصاءات - : إننا منصرفون عن القراءة، وعن المعرفة الحضارية المعاصرة تحصيلاً وإنتاجًا، وإننا لانزال نعيش عصر الشفاهة. وهو ركون إلى فرد نظن به الحكمة المتفردة، وامتلاك ناصية المعرفة، فيه الكفاية، وله الأمر. وتعطيل لفكر الإنسان العام. وبين هذا ومتقضيات التطور الحضارى العصرى أزمان. والكتاب يؤكد أننا لسنا دون الآخرين شريطة أن نعقد العزم اجتماعيًا، ونهيئ أسباب النهوض. لا نتخذ الثقافة زخرفًا وزينة، ولا الاستهلاك معياراً، ولكن نتخذ العلم منهجًا وثقافة ومناخًا وإنتاجًا وتنظيمًا للحياة؛ فهذه هى بطاقة الانتساب إلى العصر، وتجاوز قرون التخلف. فالإنسان/ المجتمع يعيش حياته بين أحد حالين: الوضع أو الحركة؛ الوضع سكون ورضاء بالموروث، وقناعة بحكمة القدماء. والحركة فعل نشط ركيزته إبداعات وإنجازات العقل فى مستوى العصر. وغذاء الحركة المعرفة، فهى ضالة الإنسان/ المجتمع إبداعًا، وانتزاعًا، أو استيعابًا من كل مصادرها شرقًا وغربًا، داخل بنية حاضنة خصيبة. والحركة بهذا المعنى مؤشر الحياة على طريق الارتقاء، وبدونها استسلام للوضع، والثبات فى الطبيعة، تحلل للعناصر وفساد للبنية.

والترجمة، وإن كانت عنصراً واحداً، إلا أنها عنصر كاشف لمجمل عناصر الصورة الكلية، وحياتنا الاجتماعية الواقعية؛ إذ لا يوجد عنصر

هو جزيرة مستقلة يمكن أن ينشط دون العناصر الأخرى، وإنما عناصر البنية الاجتماعية جميعها تتحرك وتنشط فى تكامل وامتداد. ويتجلى هذا فى الإنسان/ المجتمع أداة وهدفًا. والقصد من الحديث هنا عن الترجمة إنما شهادة على المجتمع فى شموله. وصورة حالة الترجمة هى تعبير عن حال أشمل وأعم. والنهوض بالترجمة لا يكون إلا حين ينعقد العزم على النهوض بالمجتمع فى ضوء صورة للمستقبل واضحة المعالم، تؤكد عامل الانتماء، فتكون الترجمة استجابة لمطلب اجتماعى مُلِحّ، وتكون دالة ووظيفة.

لم أشأ الحديث عن نهضة الترجمة فى العصر الكلاسيكى الإسلامى؛ فهذا كله معروف ومحفوظ، رددناه مرارًا نلتمس فيه التعويض. ولكن قصرت الحديث عن واقعنا الراهن المجهول، لإسقاط الغمامة عن العيون. المنطلق فهم الواقع دون زخارف، والغاية دعوة إلى تضافر الجهد لتدارك ما فاتنا وهو كثير. فالوجود عزم ومعاناة، وأبواب التاريخ مفتوحة فقط لصناع الحياة.

مقدمة الطبعة الثانية

الترجمة بين ثقافة الوضع وثقافة الموقف

تقول حكمة صينية : "من لا يقارن لا يعرف". وإذا كانت المقارنة ضرورية لتعرف الذات موقعها من الآخر، ووقع خطوها فى تفاعلها وتنافسها مع هذا الآخر، ومن أجل بناء نفسها؛ فإنها الآن أكثر ضرورة فى ظل شرط وجودى عالمى جديد، تداخلت فيه العلاقات بين الأمم والجماعات والأفراد؛ بحيث يقال: إن الوجود الاجتماعى على الصعيد العالمى وداخل المؤسسات وفيما بينها أضحى وجوداً شبكيًا، بحيث لا يمكن لمجتمع أن يبنى ذاته تأسيسًا على رصيده الذاتى، أو بمعزل عن الآخر، أو عالة عليه، مستهلكًا للفكر والتكنولوجيا.

لهذا اعتمدت فى كتابى على المقارنة لاستبيان حقيقة وضعنا. واخترت الترجمة مؤشراً على موقفنا من المعرفة؛ لكى نقارن بين حالنا وحال غيرنا ممن يخطون على عتبة عصر جديد يسمى عصر المعلوماتية، أو الثورة المعرفية. عصر يمثل طوراً جديداً فى سلم التطور الارتقائى للبشرية يكاد يماثل مرحلة اختراع الكتابة، وستكون له تجلياته الفيزيقية والعصبية والنفسية والاجتماعية. طور ربما يكون حداً فاصلاً بين نوعين من البشر؛ بحيث يخلف وراءه من هم أدنى مستوى، وأعجز عن الملاحقة والتكيف.

والمجتمعات – أو لنقل : الثقافات الاجتماعية – فى رأيى صنفان، والتصنيف ليس قدرًا أبديًا، وإنما السيادة والغلبة لهذا أو ذاك رهن شروط وجودية للنهوض أو الانحسار – أقول : صنفان هما : ثقافة الوضع، وثقافة الموقف.

ثقافة الوضع قانعة بحالها، راضية برصيدها التاريخى الموروث. والمعرفة عندها – أو قل : العلم الأسمى – لا يتجاوز حدود تأمل هذا الرصيد، وأقوال الأولين، والأمل عود على بدء؛ ومن ثم عزوف عن الإبداع والتجديد. والزمان امتداد متجانس، فارغ من الأحداث، إلا الحدث الأول والأهم فهو بداية التاريخ وغايته.

وثقافة الموقف إرادة واختيار، والإرادة فعل، والاختيار عزم على التغيير والتجديد، وفهم مجريات الأحداث والظواهر، وتراكم متجدد متطور لرصيد المعلومات والمعارف؛ ومن ثم تطور وارتقاء مطرد للهوية الثقافية التى هى عين الفعل الاجتماعى النشط فى الزمان، وليس السكون والبحث عن هوية مجهولة فى غيابات التاريخ.

ثقافة الوضع تقف على قارعة طريق الحياة، تتأملها تجليات لإرادة من خارجها. وثقافة الموقف تخوض غمار لجج نهر الحياة الصاخب الدافق، تتجدد وتتغير، وتبنى وتتحدى وتستجيب؛ تأسيسًا على الفهم والوعى والعقل الحر الناقد الفعال، إنها إبداع الحياة وصناعة التاريخ.

نتحدث عن أزمة اللغة أو قصورها عند الترجمة أو التعبير. والأزمة هى أزمة الإنسان/ المجتمع الفاعل على مستوى حضارة العصر. أزمة الفعل الاجتماعى النشط. فعل إبداع الوجود. واللغة هى الفعل، والفعل على مدى التاريخ التطورى هو استجابة التحدى، أى هو الحضارة. ففى البدء كان الفعل. لم تبدأ اللغة مع الإنسان فى تطوره الارتقائى بصيحة بل بدأت بفعل اجتماعى منذ الإنسان منتصب القامة Homo erectus ، فالإنسان الماهر Homo habilis، والإنسان العاقل Homo sapiens، ومع تعقد الفعل وتعدد وتباين الاستجابات والتحديات تعقدت البنية العصبية، وتعقدت اللغة وبنية المجتمع، وتعددت الكلمات والمفاهيم.

نتحدث عن تراثنا التاريخى فى الترجمة باعتزاز، وننسى أن نقارن، وننسى الفعل الاجتماعى، وننسى الإنسان. الفعل هو الوجود الاجتماعى المشروع، أو هو أساس شرعية الوجود؛ والإنسان هو الغاية والهدف والشهادة على هذا الوجود.

تراثنا التاريخى فى الترجمة يؤكد أن ما كان فى لحظة من الزمان كان عظيماً بكل مقاييس زمانه، ولكنه مضى مثل سحابة صيف. ولم نسأل : لماذا؟ وتراثنا التاريخى فى الترجمة يشير إلى أن جملة ما ترجم على مدى أربعة عشر قرناً لا يتجاوز عشرة آلاف كتاب. ولا نسأل : لماذا؟ ولا كيف يستقيم هذا مع العظمة التى نزهو بها على امتداد قرون الخواء الفكرى أو الأنوميا الاجتماعية؟ تراثنا التاريخى فى الترجمة يؤكد أنه بعد أن انقشعت سحابة الصيف كفت المجتمعات العربية عن الأخذ

وعن العطاء فى إطار المعرفة والفكر والإبداع. وعاشت مع تراث فكرى مكرور غلفته أساطير، ووجود اجتماعى ثقافى متجانس. وكفت عن الفعل الاجتماعى الإنتاجى الإبداعى، وانعكس هذا فى العلوم والفكر واللغة.

ظلت المجتمعات العربية حبيسة ثقافتها التقليدية إلى أن حل القرن التاسع عشر، وظهرت مصر على ساحة الفعل الاجتماعى أو النهضة والتحديث. واقترن هذا بنشاط فكرى وعلمى وتعليمى، وأضحت الترجمة أساسًا متكاملاً مع هذا النشاط الاجتماعى الهادف. وظهرت أيضًا "متصرفية لبنان" التى كانت رائدة فى مقاومة التتريك، وتأكيد دور اللغة العربية والترجمة إليها. وتراوح نشاط الترجمة بين صعود وهبوط فى اتساق مع حركة الفعل الاجتماعى التجديدى النهضوى.

وبعد أن انتصف القرن العشرون، ومع تصفية الاستعمار، واكتشاف النفط، ظهرت المجتمعات العربية دولاً ذات كيانات مستقلة، وبزغت حركات ترجمة وليدة وناهضة فى عدد منها، بينما لايزال البعض الآخر بغير اسم على خريطة النشر. وجدير بنا الإشادة بدور لبنان والكويت.

والكتاب دراسة نقدية مقارنة، لسبر غور حياتنا الثقافة والفكرية، من خلال مؤشر الترجمة وواقع حالها، مع مقارنة بالآخرين فى مسيرتهم الحضارية. ودعوت إلى أن نقرأه وعيوننا على المستقبل وتحدياته، وليس على الماضى فقط، حتى لا نخطئ التمييز بين تحول حضرى بلغناه بفضل إنتاج الغير، وتحول حضارى أخطأنا الوعى بأسسه.

وحاولت أن نرى صورتنا من خلال الآخر ومقارنة به، لا تمجيداً له، وإنما استنفاراً لقوى التحدى الكامنة عند أولى العزم.

والكتاب يقول : إن موقفنا من الترجمة هو تعبير عن موقفنا من المعرفة إنتاجًا إبداعيًا، وتحصيلاً لها من كل مصادرها المتعددة المتباينة، والتزامًا بمنهجية الإنتاج والتحصيل فى ضوء عقل ناقد، ويقول الكتاب من واقع الإحصاءات: إننا منصرفون عن القراءة، وعن المعرفة الحضارية العلمية المعاصرة، وإننا لانزال نعيش عصر الشفاهة. ركونًا إلى وجود فرد له الهيمنة حاضراً، أو من ماضيه البعيد، نظن به الحكمة المتفردة، وامتلاك ناصية المعرفة، فيه الكفاية، وله الأمر، وتعطيل لفكر الإنسان العام.

والكتاب يقول : إن شروطًا وجودية تحكم حياتنا الثقافية صرفتنا عن الإنتاج المعلوماتى، والإبداع الفكرى، والتنسيق المعرفى، ووأدت فينا الفضول والنهم لتحصيل معارف الآخرين، واكتساب أسباب وأسس الحضارة وتوطينها. وبتنا نعيش عيالاً على الآخر فى إنتاجه الثقافى والمعرفى، مستهلكين تابعين؛ ولذلك لسنا طرفًا فى حوار أو صراع الحضارات.

وتعطلت أو انحسرت الترجمة كنشاط اجتماعى، وهى إحدى أدوات تمكين المجتمع من التفاعل مع الجديد فى العلوم والفنون والإنسانيات قرينة الإبداع المحلى، ولكننا نصرخ من موقع الضعف

والخواء. الغزو الثقافى يتهدد الهوية، بينما الهوية ليست: من أكون؟ بل : ماذا أفعل؟ ليست الهوية ذكرى ماض تاريخى بل انخراط إيجابى فى الفعل الحضارى. والترجمة قوة تحرير، وأداة تمكين، وشرط للاستقلال، وليست أبدًا عونًا لغزو فكرى حين يتلقاها عقل فاعل ناقد.

تفيد الإحصاءات الواردة فى الكتاب أن البلدان العربية تحتل موقعًا شديد التدنى، ليس فقط بالنسبة لدول المركز المنتجة مرحليًا للمعارف، بل وبالنسبة لبلدان الأطراف المجاهدة لاحتلال موقع متقدم على صعيد التحدى الحضارى. العالم العربى كله وتعداده يناهز ٢٧٠ مليونًا يترجم مالا يزيد عن ٤٥٠ عنوانًا، وانخفض إلى أقل من ذلك بعد أن كف العراق عن الفعل إثر الاحتلال الأمريكى. والملاحظ أنه من بين هذا العدد لا تحتل العلوم، ولا تحتل الكتب التى تصوغ عقلاً علميًا وعلمانيًا، إلا نسبة ضئيلة جدًا، تصل عند الدول العربية المنتجة للترجمة إلى ٥ر٢ بالمائة. هذا بينما إسبانيا وتعدادها ٣٨ مليون نسمة تترجم أكثر من عشرة آلاف عنوان سنويًا، وتترجم السويد وتعدادها ٩ ملايين نسمة ٢٥٠٠ عنوان سنويًا، منها ألف عنوان تقريبًا أعمالاً أدبية، وألف عنوان دراسات غير أدبية، أى علمية، و٥٠٠ عنوان من كتب الأطفال (تتس روك : المستعرب والمترجم والأستاذ بجامعة أوسلو السويد). وجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية تترجم تراث البلدان الأخرى لتكون هى بنك أو مصدر المعلومات للعالم، وفق الصياغة الأيديولوجية التى تراها هى، ومن ذلك كتب عن الطب فى مصر الفرعونية، وعن التراث الإسلامى.

وفى دراسة للدكتور محمود إسماعيل صالح الصينى، الأستاذ بجامعة الملك سعود، نرى مثالاً آخر. تشير الدراسة إلى أن سلاح الجو الأمريكى فى عام ١٩٧٨ ترجم حوالى ٧٥ ألف صفحة، أى ما يعادل ٢٥٠ كتابًا فى دراسات تخصصه، مع العلم بأن الإنجليزية لغة حضارة العصر الأولى. وتشير الدراسة أيضًا إلى أن هيئة حكومية واحدة هى هيئة الخدمات المشتركة للمنشورات البحثية، والتابعة للمكتب الفيدرالى للمعلومات العلمية والثقافية فى وزارة التجارة الأمريكية، ترجمت خلال النصف الأول من العقد السابع حوالى ٢٧٤ ألف صفحة أى حوالى ٩١٠ كتب. واللافت للنظر أنه فى الوقت الذى أجاز فيه نظام التعليم فى مصر، فى إحدى المراحل – نجاح التلاميذ مع رسوبهم فى مادتين، وقع اختيار التلاميذ على الإنجليزية والرياضيات، وهما المادتين اللازمتين للاطلاع والتفاعل مع إنجازات العصر – أقول : فى هذا الوقت أصدر مجلس الشيوخ الأمريكى تشريعًا عام ١٩٥٨ يحمل اسم Title Iv De-fence Act، يقضى بتشجيع تعليم اللغات الأجنبية فى المدارس الأمريكية، باعتبار هذا قضية أمن قومى، ونجد فى الولايات المتحدة أيضًا أن وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" مولت إعداد دليل يضم عناوين الهيئات التى توفر المواد العلمية والتقانية المترجمة إلى الإنجليزية داخل الولايات المتحدة. وصدر هذا الدليل عام ١٩٨٧، ويتألف من ٣٢ صفحة، تشمل فقط عناوين تلك الهيئات التى يعتبرونها مصدرًا لترجمة إنجازاتها العلمية العالمية فور صدورها. ومرة أخرى أقول : على الرغم من أن الإنجليزية هى اللغة الأولى فى المنشورات العلمية.

وأشار الكتاب إلى جهود اليابان التى وصلت بها إلى ما هى عليه الآن.

عمدت اليابان، منذ مطلع القرن، إلى الاتفاق مع أهم دور النشر العالمية لترجمة أعمالها، وصدورها باللغة اليابانية فى ذات الوقت الذى تصدر فيه بلغتها الأصلية. وكانت اليابان تترجم فى مطلع القرن أكثر من ١٧٠٠ عنوان فى السنة، ويتجاوز العدد الآن ٣٥ ألف عنوان. إنه نهم التحصيل لإنجازات العصر. ولم تفقد اليابان هويتها بل تعززت.

ويشير الكتاب إلى أن إنتاج إسرائيل فى الترجمة يعادل إجمالى إنتاج البلدان العربية، هذا على الرغم من أن المجتمع الإسرائيلى متعدد الألسنة، إضافة إلى العبرية. وأسست إسرائيل عام ١٩٥٩ برنامجًا للترجمة العلمية تنفذه مؤسسة هى أكبر مؤسسة حكومية متخصصة ضمت عام ١٩٦٧ عدد ٢٥٠ مترجمًا متفرغًا، و ١٤٤٠ مترجمًا متعاونًا من الخارج (د. صفاء محمود عبد العال، التعليم العلمى والتكنولوجى فى إسرائيل، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ٢٠٠٢).

وحتى نقرن هذا بإصدارات الكتب تأليفًا وترجمة، ونصيب الفرد منها؛ نجد الآتى :

إصدارات الكتب لكل مليون فى أوروبا عام ١٩٩١ هى ٨٠٢ عنوان.

إصدارات الكتب لكل مليون فى العالم العربى عام ١٩٩١ هى ٢٩ عنوانًا . المشكلة هى كتاب وقارئ.

ويدعو الكتاب إلى تعريب نشاط الترجمة على الرغم من ضآلته.

وأعنى بذلك أن يكون المنطلق عربيًا نهضويًا فى إطار استراتيجية قومية للتطوير الحضارى ، شاملة كل مناحى الحياة؛ إذ الملاحظ أن قدراً كبيراً من نشاط الترجمة إنما تديره وتنظمه وتموله مؤسسات دبلوماسية أجنبية، وما عداه نشاط عفوى لا يخضع لخطة.

مرة أخرى الفجوة بيننا وبين العالم المتقدم فجوة معرفية حضارية، أعنى فعالية اجتماعية على صعيد حضارة العصر، فى إبداع وإنتاج المعارف وتوظيفها. وأضحت الهوة أكثر اتساعًا مع الثورة العلمية التكنولوجية التى تقتضى إعادة تشكيل الأساس المادى للمجتمعات، وبناء الإنسان. العصر الجديد يتميز بتسارع تكثيف وتراكم إنتاج المعلومات؛ تأسيسًا على تكنولوجيا توليد المعرفة، ومعالجة المعلومات، والاتصال الرمزى. وهنا المعلومات قوة منتجة للمعلومات والمعارف، مع مزيد من التعقد فى معالجة المعلومات.

إن قوة عظمى سقطت؛ لأنها عجزت عن دخول عصر المعلوماتية، ليس فقط من حيث الإنتاج والتوظيف، بل من حيث القيم، وإعادة تشكيل البنية الدينامية، والعلاقات الاجتماعية، والعلاقة مع السلطة، ودور الإنسان العام. ومن أهم هذه القيم ثقافة الحرية والابتكار، وثقافة إدارة جديدة لعلاقات المجتمع. ولعل مسألة إعادة هيكلة النظام الرأسمالى هى وجه لمخاض أزمة ميلاد جديد فى الغرب.

لهذا كان الفصل الختامى من الكتاب دعوة إلى إنشاء مؤسسة عربية للترجمة تتضافر فيها الجهود. وأن تكون هذه المؤسسة دعامة من دعامات بنية متكاملة لاستراتيجية تحول حضارى شامل لكل مجالات الحياة : العلم المؤسسى، والتعليم، والإعلام، والسياسة، والتنشئة الاجتماعية... إلخ، وهذه دعوة قديمة دعت إليها جامعة الدول العربية، ولم تر النور ؛ لغياب فعل التحول الحضارى الشامل. وأرى أن تنطلق الدعوة من جديد، وتظل مفتوحة لكل من آمن بالخط العام للتطوير الحضارى.

مقدمة الطبعة الثالثة(*)

قد يبدو غريبًا أن أستهل مقدمة الطبعة الثالثة بالإشارة إلى خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما أمام الأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم في واشنطن. ولكن الخطاب وثيق الصلة من حيث دلالته بموضوعنا عن الترجمة ونقل المعرفة؛ خاصة أنني هنا أعتمد التعريف الذى قدمته للترجمة بأنها إحدى آليات تمكين المجتمع فى السباق الحضارى بين الأمم. وتتأكد أهمية وحيوية هذا التعريف فى سياق ظروف العولمة التى تعنى تكثف الزمان والمكان وتكثف الاتصالات؛ ومن تكثف ثم التفاعل العلمى والتكنولوجى والثقافى بين الشعوب.

إن المجتمعات المتصفة بالحيوية فى عصر العولمة مجتمعات مشاركة إيجابيًا فى حوار علمى/ تكنولوجى/ فكرى/ ثقافى على الصعيد العالمى؛ ومشاركة أو متنافسة على أرضية الإبداع أو السبق الإبداعى فى عناصر هذا الحوار، والسبق فى امتلاك ناصية أغنى رصيد للمعرفة. معنى هذا أن رصيد المجتمع من إنجازات فى صورة إبداع علمى وتكنولوجى يمثل الدعامة الأولى والأساسية التى تؤهله للمشاركة الإيجابية فى هذا الحوار. وطبيعى أن هذا الرصيد جامع بين مصدرين : إبداع محلى، واستيعاب لإنجازات الآخرين.

(*) أضاف الكاتب مقالات : العرب والترجمة، أزمة .. أم موقف ثقافى؟، الترجمة بين عالم جديد ومستقبل مجهول، الترجمة فى العالم العربى ومجتمع المعرفة - على الطبعتين الأوليين.

إن جناحى النهضة أو البناء الحضارى هما معًا وفى آن واحد الإبداع المحلى قرين استيعاب إنجازات الآخرين، ويصبح هذا النهج أكثر ضرورة وإلحاحًا فى عصر الترابط الشبكى بين المجتمعات فى عصر العولمة.

يؤكد أوباما فى خطابه أن الأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم بإنجازاتها وتاريخها وتطلعاتها شهادة على روح الفضول المعرفى لدى الأمريكيين، الروح الذى لا يهدأ ولا يستقر له قرار، ويتطلع دومًا إلى آفاق لا حدود لها لإنجاز ودعم ليس المشروع العلمى وحده بل دعم التجربة الحية المطردة التى نسميها أمريكا.

وانعقد هذا الأمل مع إصدار إبراهام لنكولن قانون إنشاء الأكاديمية الوطنية للعلوم على الرغم من نشوب الحرب الأهلية، ولكنه كان يؤمن أن مستقبل أمريكا ونهضتها رهن العلم.

ويضيف قائلاً : رفض إبراهام لنكولن الرأى القائل : إن الهدف الوحيد لأمتنا هو مجرد البقاء. ولكنه أضاف بإنشائه الأكاديمية الوقود اللازم لإثارة الاهتمام وتأجيج عبقرية الاكتشاف.

واستطرد قائلاً : ولكن كل مجالات النشاط فى الولايات المتحدة تعانى الآن تحديات، وتعيش أزمة : أزمة تدنى الاستثمار فى مجال البحث العلمى على الرغم من ضرورته الحيوية لرخائنا وأمننا وصحتنا وبيئتنا ولنوعية الحياة الجيدة. لقد انخفض حجم التمويل الفيدرالى

للبحث العلمى إلى حوالى النصف؛ وتخلفت مدارسنا عن مستويات مدارس بلدان أخرى متقدمة بل وعن مستويات بعض الأقطار النامية. وأصبح طلاب مدارسنا دون المستوى فى الرياضيات والعلوم بالقياس إلى نظرائهم فى سنغافورة واليابان وإنجلترا وهولندا وهونج كونج وكوريا وغيرها. هذا على الرغم من أن الولايات المتحدة التزمت منذ أكثر من نصف قرن بأن تقود العالم بقدراتها الريادية فى مجال الإبداع العلمى والتكنولوجى وكذا الاستثمار فى التعليم وفى البحوث والهندسة والسباق فى الفضاء.

وأضاف : وندرك جميعًا أن بحوث العلوم الأساسية هى رأسمال علمى. ونعرف أيضًا أن إمكانات الأمة للاكتشافات العلمية تحددها القدرات المالية والبحثية العلمية التى يوفرها المجتمع للباحثين. واتخذت قرارى الذى يقضى بأن الأيام التى فرضت على العلم فى الولايات المتحدة أن يحتل مكانًا خلفيًا تابعًا للأيديولوجيا قد انتهت؛ ذلك لأن تقدم أمتنا وتقدم قيمنا يمتد بجذوره إلى حرية البحث. لهذا فإن تقويض سلامة ووحدة وحرية العلم تقويض للديمقراطية. وحرى أن تتأسس السياسات الفيدرالية على أفضل قاعدة من المعلومات العلمية الأبعد ما تكون عن الانحيازات الأيديولوجية؛ إذ يجب أن نؤكد أن الحقائق الموضوعية هى ركيزة قراراتنا وليس الأيديولوجيا.

واستطرد قائلاً : نحن بحاجة كذلك إلى العمل مع أصدقائنا فى العالم؛ ذلك أن العلم والتكنولوجيا والإبداع نشاطات تتسارع حركتها

أكثر فأكثر بفضل تقاسم الجهد والاستبصارات والكلفة المالية والمخاطر. وندرك أيضًا أن تقدم ورخاء الأمة وأجيال المستقبل رهن ما نقدمه لهم من غذاء تعليمى؛ لهذا أعلن التزامنا بالنهوض بالتعليم فى مجالى الرياضيات والعلوم؛ إذ إن هذه هى سبيلنا لكى يحتل طلابنا مكانة أرفع مستوى، إن الأمة التى تتفوق فى التعليم اليوم هى التى ستبز غيرها وتفوز عليها فى المستقبل. إننى أحثكم على التزام روح التحدى لكى تستثمروا حبكم للعلم والمعرفة العلمية لتأجيج حاسة الدهشة والإثارة والتساؤل والمغامرة المعرفية لدى جيل جديد.

حرى أن نقرأ هذا بعقل نقدى واعٍ، نقدى للذات وللآخر، يعتمد الموضوعية العلمية، ويعتمد منهج المقارنة بين حالنا وحال أمة قادت العالم على مدى قرن، هو القرن العشرون حتى أطلق عليه الباحثون صفة «القرن الأمريكى». وتواجه الولايات المتحدة، القطب العالمى الأول ثم الأوحد قرابة قرن من الزمان، تحديًا حقيقيًا من الصين والهند. وإنها إذ تنظر إلى نفسها نظرة نقدية فى مرآة واقعها ومرآة البلدان المنافسة تكشف بصدق الباحث عن الحقيقة فى ضوء رؤية نقدية علمية، عن أوجه القصور الحقيقية ومظان الإصلاح الفورى بعزيمة صادقة؛ لضمان اطراد الريادة أو على الأقل عدم التراجع لتحتل مرتبة ثانوية. بيد أنها يؤرقها الخوف من المستقبل القريب؛ خاصة بعد الأزمة الاقتصادية الراهنة على الرغم من أنها لا تزال البلد الأقوى اقتصادياً وعلمياً.

والسؤال لنا - عن أنفسنا فى ضوء ما سبق - : ماذا أعددنا نحن للنهوض بمجتمعاتنا وإنقاذها من مهاوى التخلف الذى استسلمنا له عمليًا وإن كنا ندينه كلامًا ورطانًا. وهذا هو ما يحدث ويتكرر دون ملل عند الحديث عن الترجمة ونقل المعرفة.

واقع الترجمة موضوع كاشف لحال المجتمع فى ضوء أبعاد متعددة : البعد المعرفى والثقافى والعلمى والتعليمى والإبداعى، وهى جميعًا متشابكة فى جديلة أو منظومة واحدة ذات عمق تاريخى اجتماعى وأيضًا ذات مدلول اقتصادى سياسى. أو لنقل بمعنى آخر : إن نشاط الترجمة دالٌّ على نشاط المجتمع جملة فى حركة هذا المجتمع سلبًا أو إيجابًا، تقدمًا أو نكوصًا على صعيد السباق الحضارى. ونلحظ أنه على الرغم من تواتر الحديث فى كل أنحاء العالم العربى عن الترجمة ونقل المعرفة خلال السنوات الأخيرة إلا أننا لم نخط خطوة عملية حقيقية على طريق الكشف؛ ومن ثم معالجة الأسباب الحقيقية الكامنة وراء تدنى مستوى الترجمة.

وجدير بنا أن أشير هنا إلى أنه مع صدور الطبعة الأولى من كتابى هذا صادف الكتاب ما يشبه الإغفال التام. ولكن بعد حديث الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش عن أزمة المعرفة وتدنى مستوى العلم والبحث المعرفى فى العالم العربى وهو ما يتجلى فى تحصيل المعارف العلمية تأسيسًا على ما قدمته من إحصائيات ضمن تقرير التنمية الإنسانية الصادر عن الأمم المتحدة عام 2003 وهى الإحصاءات والرؤى

ذاتها المثبتة فى هذا الكتاب. هنا انبرى كثيرون لنقد الإحصاءات، وحقيقة الأمر أن هول الصدمة كان كاسحًا وكأننا أفقنا من غفوة وكشفنا عن عورة أو سوأة مجتمعات اعتادت فى كبرياء مزعوم أن تسمى نفسها دائمًا "أمة اقرأ". هذا بينما واقع الحال يكشف أن لاعلاقة لها البتة بتوسيع آفاق قراءة المعارف العلمية العالمية، ناهيك عن توسيع آفاق الإبداع المحلى.

وقنع الناقدون الموسومون بصفة "أعلام الفكر العربى" بتكذيب الإحصاءات. ولم يشأ أحدهم أن يكلف نفسه الالتزام بمنهج عقلانى نقدى أو بالمقارنة التى قدمتها بين دفتى الكتاب؛ إذ كان كل مايعنيهم، والأمر الأهم فى نظرهم: مداراة العورة، وليس البحث عن الأسباب والعلاج. وأود أن أذكر هنا أننى مع الإحصاءات التى قدمتها عن أعداد الكتب والترجمات قدمت إحصاءات موازية عن استهلاك ورق الطباعة ومقارنتها أيضًا بالمجتمعات الأخرى، وترجح المقارنة صدق النتائج إلى حد يقرب من التأكد. وأذكر علاوة على هذا، ما يدركونه ولكنهم أغفلوه عمدًا - أن إحصاءات منظمة اليونسكو التى اعتمدت عليها استقتها المنظمة من البلدان العربية ذاتها ولم تبتدعها أو تصطنعها لخدمة أغراض أيديولوجية تآمرية. ولكننا لأننا مجتمعات تعشق الطرب، ويروقها فقط ما يطربها ويدغدغ وجدانها، وتقبل فقط ما يتطابق مع فكرها هى دون أن تتكلف مشاق البحث عن الحقيقة؛ لهذا ضاقت بالإحصاءات الواردة فى الكتاب شأنها دائمًا حين تضيق بكل ما هو مختلف. ونظرًا

لأن ثقافتنا ثقافة كلمة لا ثقافة فعل؛ فقد انتهى الأمر بعد تدبيج المقالات المعارضة.

وإذا كنا نؤمن بأن التفكير عبر الحقيقة العلمية هو سبيلنا للنهوض؛ فإننى أؤكد أيضًا أن نهج الالتزام بالحقيقة العلمية هو ديدن المؤمنين بالتغيير؛ تغيير الواقع والفكر معًا. وطبيعى أن العمل على التغيير يستلزم مع توفر الإرادة الذاتية الجمعية، معرفة الواقع فى ضوء منهج البحث العلمى المعتمد مرحليًا. ولكن أسرى الأيديولوجيات يهيمون عادة مع تخييلات مقطوعة الصلة بالواقع. وعندهم الماضى والحاضر والمستقبل. امتداد متجانس على صعيد سواء حيث لا تغيير.

وعلى الرغم من مضى سنوات فإننا لا نلمس جهدًا مجتمعيًا حقيقيًا لتنشيط حركة الترجمة فى اتجاهها وسياقها المجتمعى الصحيح. وهكذا جاءت شهادة صدق على لسان التقرير العربى الأول للتنمية الثقافية عن الحصاد الثقافى العربى لعام 2007 لتؤكد صواب ما سبق أن أوضحته الإحصاءات التى أثبتناها فى الطبعة الأولى ولم يأت العالم العربى بشىء جديد إن لم نقل : ساء الحال أكثر كما تفيد كل الشواهد. عرض التقرير العربى الأول الوضع وأكد أن المناخ السياسى المتسم بالاستبداد والقهر وغياب الحريات أدى إلى انتعاش الظلامية والفكر الأصولى السلفى والتطرف. وأشار إلى ما يفيد بأن هذا المناخ هو المسئول عن انصراف الإنسان العربى عن ثقافة تحصيل العلم وعن الاهتمام بالقراءة العلمية، وعن البحث، وهو ما يتجلى فى ميدان النشر تأليفًا وترجمة. ويؤكد

التقرير تدنى النشر العربى تأليفًا وترجمة، وقصوره الشديد، وندرة الكتاب الذى يتناول علومًا أساسيةً وغلبة الكتب الدينية والأدبية.

وقد يدفع البعض دفاعًا عن الوضع المتردى القائم، بأن ثمة جهات عربية خليجية كشفت عن اهتمام طارئ بنشاط الترجمة. وتجسد هذا فى صورة مخصصات مالية ضخمة أو فى إقامة مراكز ترجمة فى أنحاء مختلفة من العالم العربى. بيد أن هذا كله لا ينفى عشوائية وفردية النشاط، ولا ينفى تعطله من هدف قومى مرسوم وفق استراتيجية تطوير حضارى مما يفرغ الجهد من صفة المنظومية الهادفة فضلاً عن افتقار المجتمعات العربية للمناخ الداعم لحرية التخطيط والاختيار. ولعل الأخطر والأهم أيضًا افتقار المجتمعات العربية لمراكز الإبداع العلمى الحر على مستوى حضارة العصر وهى الشرط البنائى الذى يجعل من الترجمة استجابة مؤسسية هادفة يستوعبها المجتمع لتسرى دمًا فى نسيجه الفكرى والثقافى وتدعم حركته الارتقائية إن وجدت.

وتدنى الترجمة ليس مجرد ضآلة عدد الإصدارات المترجمة؛ ذلك أن أزمة الترجمة هى فى التحليل الأخير لها أزمة قارئ / كتاب / مترجم/ مجتمع له تاريخه الثقافى وواقعه الراهن علميًا وتعليميًا وثقافيًا. وغير خافٍ أن المجتمعات العربية تعانى - كمثال - من تفشى حالة الأمية الأبجدية وإن اختلفت درجاتها مع اختلاف المجتمعات. ولكن الأمية ذات الصلة بالترجمة ليست فقط الأمية الأبجدية؛ بل هناك أيضًا معها الأمية الحاسوبية والأمية الثقافية والأمية العلمية بما يتسق مع إنسان حضارة العصر. وتؤثر هذه جميعها فى طبيعة البنية الذهنية للمرء ومدى فضوله

المعرفى واتجاه هذا الفضول ومحتواه هل للتحصيل العلمى، أم لتحصيل وتكرار معارف الأقدمين التى لا تقدم جديداً ولا تفيد إلا للدراسات التاريخية.

الارتقاء بمستوى الترجمة إلى مستوى المنافسة العالمية يستلزم بالضرورة الارتقاء بالمجتمع وبالإنسان معًا على مستويات عدة أولاً: ارتقاء بالمستوى الثقافى الاجتماعى والعلمى والتاريخى؛ أعنى إعادة تنظيم البنية الذهنية للإنسان بحيث يكون فضوله المعرفى موجهًا نحو تحصيل معارف لازمة لبناء المجتمع جميعًا على مستوى حضارة العصر وفق صورة يصوغها المجتمع بعبقرية وإنجازات أبنائه عن الذات وعن الحاضر والمستقبل. وحرى أن يتحدد هذا فى ضوء دراسة اجتماعية ميدانية لبيان الموضوعات التى تحظى باهتمام المرء ونوع القراءات وكم هذه القراءات ومحتواها وعلاقتها بالحركة المجتمعية المنشودة، وأثرها فى حفز المرء لأى نوع من المعارف. ويقترن هذا ببذل الجهد المنظم الهادف لمحو كل من الأمية الأبجدية والثقافية والحاسوبية والعلمية. ويتعين أن لا ننسى ونفيد من تجارب ناجحة فى كوبا واليابان والصين وغيرهم.

وأذكر هنا - إيجازًا - تجربة كوبا؛ لطرافتها ودلالتها، وهى مجتمع فقير محاصر ولكنها استطاعت محو الأمية الأبجدية فى سنتين، وأصدرت منذ ست سنوات قانونًا ينظم بناء الإنسان الكوبى تعليميًا وعلميًا. حدد النظام ما يسمى حاسب أو كومبيوتر ما قبل سن الدراسة ؛ إذ يتعين على الطفل قبل الالتحاق بالمدرسة الابتدائية أن يتعامل مع الحاسوب. وتضمن النظام أيضًا تدريس علوم البيولوجيا والرياضيات

وكذا اللغة الإنجليزية فى المدرسة الابتدائية؛ إدراكًا من المسئولين والمجتمع أن هذه هى مؤهلات المرء للانتماء إلى حضارة العصر. وليس غريبًا أن تضم كوبا الفقيرة عددًا من مراكز البحث العلمى العالمية التى يؤمها علماء من الولايات المتحدة على الرغم من الحصار.

وطبيعى أن الارتقاء بالإنسان رهن الارتقاء بالسياق؛ أعنى الارتقاء بالمجتمع. نحن لانزال نعيش تحت عباءة ثقافة مجتمعات الرعى والزراعة، ولانزال بعيدين عن حضارة عصر الصناعة، ناهيك عن عصر المعلوماتية. وطبيعى أن الارتقاء بالإنسان وبالمجتمع هنا عملية واحدة متكاملة ومطردة التطور. ونعنى بذلك أساسًا الانتقال إلى حضارة العصر أى تحديث المجتمع؛ ذلك أن عملية التحديث، أو الانتقال إلى حضارة الصناعة والمعلوماتية، عملية شاملة متكاملة وليست تجزيئية أو انتقائية عمياء؛ ومن ثم التحديث ثورة تغيير لذهنية الإنسان وللاقتصاد وللسياسة والمؤسسات الاجتماعية ولدور الإنسان العام... إلى آخر نشاطات المجتمع كمنظومة واحدة متكاملة. وهنا ستكون للقراءة أو لتحصيل المعارف وللمغامرة المعرفية حافزها الباطنى ودور اجتماعى، وسيكون لها عائدها على الفرد والمجتمع، وسيكون المجتمع إطارًا حافزًا لهذه الجهود. وطبيعى أنه فى مثل هذا السياق تأتى الترجمة أو الفهم فى حرية لتحصيل معارف الغير، استجابة لحاجة مجتمعية مما يهيئ اندماجها وتجسدها مجتمعيًا وتدخل فى نسيج المجتمع قرينة إبداعاته المحلية وتكون أداة دعم وتمكين وتطوير. وبدون ذلك يظل الحديث عن الترجمة

رطانًا، وتظل جهود الترجمة على تدنيها ومحدوديتها، بل وعشوائيتها، أشبه بماء مسكوب في صحراء قفر لاتثمر.

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية ترى أنها أضحت في مسيس الحاجة إلى تنشيط الإبداع والبحوث العلمية ضمانًا لاطراد الريادة والزعامة، وأنها بحاجة إلى مشاركة على صعيد عالمي في الإنجاز وفي الحوار والتفاعل - أقول : إذا كان ذلك كذلك بالنسبة للولايات المتحدة القطب والرائد؛ فإن البلدان العربية بحاجة أشد إلحاحًا وضرورة لكي تثرى رصيدها المعرفي بالإبداع المحلي والاستيعاب العقلاني النقدي الهادف للأجنبي وما أكثره وما أشد تباينه وما أكثر مزلقاته.

وطبيعي أن الترجمة هي سبيلنا لذلك، وأن الإنسان العربي المبدع في مناخ من الحرية، حرية الإبداع وتلقي المعلومات والمشاركة السياسية والعلمية في البناء، هو دعامة هذا التحديث؛ إذ كيف يكون للعرب نصيب في الحوار والمشاركة دون امتلاك نصيب من الإبداع ودون استيعاب إنجازات الآخر. هذا وإلا سنقع في ما حذر منه أوباما الولايات المتحدة. أعني نقنع بمجرد البقاء دون الوجود الإرادي الفعال. وهنا يغدو لزامًا أن نمايز بين البقاء الذي هو مجرد اطراد عشوائي، وبين الوجود الذي هو إرادة فعل هادف، ومشروع خلق، وإنتاج للثروة... الثروة التي هي الآن المعرفة وفائض المعرفة.

نحن لا نستطيع أن نفصل تدني حال الترجمة عن تدني الوضع العلمي والتعليمي بكل مستوياته وتخصصاته في العالم العربي خاصة

تعليم اللغات فى صورة متطورة وأعنى اللغة العربية قرين اللغات الأجنبية. ونحن لا نستطيع أن نفصل تدنى واقع الترجمة عن تدنى الواقع الاقتصادى والاجتماعى والحضارى بعامة. ونحن لا نستطيع أن نفصل تدنى الترجمة عن واقع قمع الحريات، حرية الفكر والتعبير وتلقى المعلومات، وحرية النقد والإبداع. ونحن لا نستطيع أن نفصل تدنى واقع الترجمة عن تدنى حقوق الإنسان ومنها حق ومسئولية الإنسان العام فى المشاركة الإيجابية فى إدارة ومهمة شئون البلاد، وحق الإنسان العام فى أن يختار لنفسه وبنفسه فى حرية حياته وعمله ومستقبله.

ونحن لا نستطيع أن نفصل تدنى الترجمة عن طبيعة وقيم وأساليب التنشئة الاجتماعية. التنشئة القائمة على الخوف من المجهول وليس اكتشافه، والتنشئة القائمة على القناعة بالرصيد المعرفى الموروث دون إثرائه بالبحث والتجديد والمغامرة، التنشئة الاجتماعية القائمة على ثقافة الاختزال عند السؤال عن الأسباب وردها إلى سبب واحد خارج طبيعة الظاهرة دون ثقافة تعدد الأسباب الكامنة فى الظاهرة والطبيعة والتاريخ. التنشئة الاجتماعية التى تحصر الواجب المعرفى فى قراءة كتب ما بعد الحياة دون الاهتمام بقراءة ومعرفة كتاب الحياة، ومن ثم التنشئة التى تكرس تغييب إرادة الفعل وتفضى إلى تغييب المسئولية وواجب الإنسان/ المجتمع .. مسئولية وواجب قبول التحدى والثقة فى الاعتماد على النفس للإنجاز .. تنشئة تؤكد وترسخ ثقافة قصور العقل وقصور إرادة الفعل وقصور العلم وبالتالى إعفاء الإنسان من مشقة البحث وإعمال الفعل والفكر، وإعفائه من بذل الجهد للقراءة والتحصيل.

ومن هنا لا نفصل تدنى واقع الترجمة عن غياب الرؤية العامة المجتمعية نحو مستقبل حضارى جديد، وشيوع السلفية التى هى فى جوهرها هجرة إلى الماضى وإلى الغيب ملاذًا آمنًا هربًا من واقع قاسٍ غير آمن وغير واعد وعاطل من الأمل المشترك جميعًا. صفوة القول : النهوض بالترجمة لا يكون إلا عبر النهوض بالمجتمع والارتقاء بالإنسان وتعظيم رأس المال البشرى؛ أعنى التحديث الشامل للمجتمع على مستوى حضارة العصر وعلى نحو يؤكد إرادة الإنسان العام المشارك إيجابيًا، ويؤكد عمليًا ودستوريًا حقه وواجبه فى الاعتزاز والانتماء.

ونعود لنقول ما قاله أوياما، وما قاله مفكرون عرب كثيرون على مدى التاريخ فى الماضى القريب وفى الحاضر، وإن أهملهم التاريخ سواء لحساب دعاة التقليد .. تقليد السلف أو لحساب قوى السلطة المحافظة- نقول : نرفض أن يكون هدف أمتنا الوحيد هو مجرد البقاء كاطراد عشوائى؛ وإنما ليكن هدفنا تحقيق، أو انتزاع حق الوجود لأنفسنا. الوجود من حيث هو مشروع إرادة وحرية الفعل والاختيار وبناء المستقبل .. مستقبل الأمة، فى مواجهة تحديات هى إفراز طبيعى لصراع الوجود الذى هو قانون الحياة وفى إطار قيم إنسانية جديدة نكون أهلاً للقيام عليها وحراستها بفضل قوة العلم والعقل المبدع. ولتكن أولوية الصدارة والانحياز للعلم دون الأيديولوجيا ليتأسس عن صدق المجتمع الديمقراطى المشارك بحرية على الصعيد العالمى. مجتمع حرية البناء، وبناء الحرية. وهنا تحديداً تكون الترجمة حقًا آلية دعم وتمكين لا غنى عنها وتبلغ غاية الازدهار.

القاهرة 2009

العرب والترجمة

أزمة ... أم موقف ثقافى ؟

حق وحرية الانفتاح فى تسامح على فكر الآخر والتفاعل مع أطر المعانى والدلالات فيما بين الثقافات؛ أى الترجمة... قضية خلافية؛ وإشكالية صعبة فى ظل ثقافة الكلمة التى تعبر عن ذلك بمقولة تتكرر على مستوى التقديس فى عبارة "ثوابت الثقافة العربية"؛ إذ حسب هذه النظرة : الكلمة هى الوجود الذهنى المثالى الحقيقى وليس الوجود، بمعنى فضاء الفعل والتغيير المولِّد للفكر فى تفاعل جدلى مطرد ومتطور. والكلمة/ الوجود امتداد وتجلٍّ لمشيئة قدسية خالدة. ومن ثم أضحى الخلود قسمة مميزة. ومن هنا يأتى الحديث عن الثوابت ورفض التفاعل الذى يؤدى إلى صدع إطار المعنى والرؤية مع كل جديد.

ونجد فى التاريخ العربى والإسلامى، أو لنقل : تاريخ الشرق الأوسط بعامة - خطين متوازيين متضادين فيما يتعلق بهذه المسألة التى تمثل فضاء الترجمة من حيث الموقف منها وحدودها واستثمارها مجتمعيًا ومن ثم مُنْتَجها الثقافى. هناك تاريخيًا من يرفضون بحجة الحفاظ على "ثوابت الثقافة العربية"، على الرغم من عدم توافق الآراء بشأن تاريخية نشوء وتطور ومدلول هذه الثقافة وثوابتها؛ وكذلك بحجة الحفاظ على الهوية الاجتماعية على الرغم أيضًا من أن هذا موضوع

مستحدث جديد وليس لدينا رؤية علمية لمدلول الهوية عربية كانت أم إسلامية من حيث النشوء التكوينى والتطور التاريخى الاجتماعى sociogenesis، وهل هى هوية متخيلة أم هوية حية دينامية رهن الزمان والمكان.

وإذا عدنا إلى التاريخ العربى والإسلامى التماسًا لفهم الترجمة ودورها فى المجتمع - نرى بوضوح مظاهر هذا الصراع ونتائجه، ثم هزيمة طرف لحساب طرف آخر ظل له الفوز والولاية على الفكر العام حتى الآن، وله تجلياته المادية المؤثرة ومسئوليته عما آل إليه حالنا.

البداية هنا - بحكم الخطاب العربى المنحاز عقديًا، مع فترة اتساع الرقعة الجغرافية الحضارية الموصوفة بالحضارة العربية حينًا، والإسلامية حينًا آخر؛ إذ إنه مع خروج موجة جديدة من موجات الهجرة لسكان شبه الجزيرة العربية على امتداد الحقبة التاريخية الأركيولوجية الحديثة من نطاق أو حصار صحراء شبه الجزيرة انطلق المهاجرون العرب هذه المرة يحملون عقيدة بمسمى جديد هو الإسلام.

وتحققت لهم الهيمنة فى مناطق ذات تواريخ حضارية عريقة أوشكت شعلة الحضارة - أى الإبداع والتجديد - على الانطفاء فيها، أو لنقل: ذوت جذوة الفعل الإبداعى الحضارى لأسباب عديدة: ثقافية وتاريخية واقتصادية وسياسية وعسكرية... إلخ. أنهكتها الصراعات فيما بينها، وفى داخلها، ولكنها تملك تراثًا غنيًا من الإنجازات وقضايا الفكر والعقيدة ذات الخصوصيات المميزة. وعرف التاريخ مدارس أو منارات للفكر فى هذه البلدان، مثلما شهد صراعات وغزوات متبادلة.

ونذكر هنا، على سبيل المثال لا الحصر، أكاديمية جنديسابور فى خوزستان فى فارس وجهود علمائها فى مجالات الفكر والفلك والترجمة وغيرها . ونذكر مدرسة الإسكندرية لتنوع الاتجاهات العقدية والفكرية فيها سواء فى العصر الهيلينى أو ما قبله؛ حيث كانت مدرسة أو معبد "برعنخ" راقودة المصرى الفرعونى الذى أنشئت مدرسة الإسكندرية البطلمية على غراره، ناهيك عن معابد مصر الفرعونية. ونذكر بلاد الإغريق ومدارس الفكر الفلسفى والرياضيات والإلهيات فيها. وكانت للإغريق تعاملاتهم وغزواتهم مع المنطقة حتى حدود الهند. ونذكر كذلك شرق المتوسط وآسيا الوسطى التى توهجت فيها مدارس فكرية وصراعات عقدية حول المسيحية فى تنوع خصب حيث مدارس النساطرة. ونذكر تاريخ بابل وآشور والسريان ومراكز الفكر فى أنطاكيا وحران والرُّها ونصيبين وأوغاريت. وكانت جميعها قلاعًا فكرية وعقائدية أثرت بإشعاعاتها فى الإقليم على اتساعه، مثلما كانت لها جميعها تفاعلاتها خارج حدود هذه الأقاليم. وكان لبعضها حضور ثقافى، بل ومادى، مثل الفرس والرومان داخل شبه الجزيرة.

ضم العرب قطاعات واسعة من هذه البلدان المنهكة حضاريًا، وشديدة التنوع فكريًا وعقديًا تحت راية سلطة سياسية واحدة تحمل اسم عقيدة الإسلام. وخلق الواقع الجديد فرصة جديدة لتفاعل جديد على نطاق إقليمى واسع بين هذه الإنجازات الحضارية السابقة... تفاعل فى سياق جديد مغاير... سياق يمتد مكانيًا من حدود الصين عبر الهند

وفارس إلى شرق المتوسط ومصر والإغريق. وكان الوضع الجديد أشبه بحقنة أدرينالين منشطة لجسد واهٍ ضعيف، فبثّت الروح والحمية فيه من جديد، وأفاق الجسد إلى حين.

وتجلت ثمار التفاعل فى ظل السياق الجديد وقضاياه الجديدة... وكانت مرحلة لاستيعاب فكر وافد، وإيقاظ فكر موروث، وتفاعل من منطلق خصوصيات سابقة متنوعة مع رؤى وفكر إسلامى جديد، وليس بالغريب، وإنما يمثل نقلة على امتداد متصل الأديان فى تطورها الإقليمى.

وحقق المأمون حلمه الذى استهل به فترة لم تدم طويلاً هى فترة أو عصر تأكيد سلطان العقل على الفكر والفعل الدنيويين. وهذا هو الإنجاز الذى أثمر إبداعات فى الفكر الفلسفى وفى العلوم والرياضيات وفى الفلك؛ واستحق المأمون من أجله أن يطلق علماء الفلك المعاصرين لنا اسمه على إحدى فوهات القمر. وحلّمُ المأمون وصياغته، الذى جاء تجليًا لنشأته وبيئته – له دلالة ذات مغزى، سواء أكان تعبيرًا عن وعى باطن أم رواية عن وعى ظاهر. ويروى أنه رأى فى منامه أرسطو، المعلم الأول، وسأله: "أيها الحكيم.. ما الحسن؟" أجابه الحكيم : "ما حَسُنَ فى العقل".

وهذه هى العبارة ذاتها التى ظلت مقولة فلسفية موضوع جدال وسجال بين المعتزلة وخصومهم، والتى قالها الفيلسوف العربى الكنْدى إلى أن بلغت ذروتها فى فكر فيلسوف العقل ابن رشد الذى حرر الحَسَن

والعقل والحق من أى انحيازات عقدية أو مرجعيات دينية. وكان نموذج المأمون إقامة مركز يُعنى بتعلم المذهب العقلى على غرار الأكاديمية الفارسية فى جنديسابور التى عنيت بترجمة المعارف الإغريقية والرومانية والبيزنطية وعلوم الشرق الأقصى إلى اللغة الفارسية. وانفتحت الأكاديمية على مذاهب المفكرين والفلاسفة فى تنوعهم بمن فى ذلك من كانوا يسمون الهراطقة.

وأنشأ المأمون نموذجًا محاكيًا فى بغداد هو بيت الحكمة. ولا غرابة فى ذلك؛ إذ إن المأمون أمه فارسية، وعاش حينًا واليًا على بلدة مرو الخاضعة للسلطان الفارسي. وأصبح بيت الحكمة فى بغداد مؤسسة علمانية لمجتمع قائم على العقل والإبداع. وأقام المأمون مرصدين ومكتبة. واشتمل بيت الحكمة على برامج بحثية فى علوم اللغة والطبيعة وما وراءها والرياضيات والطب والفلك. وعنى بيت الحكمة عناية فائقة بالترجمة عن العديد من اللغات وفى جميع المعارف فى نهم لا يعرف حدوداً أو قيوداً وعرف التاريخ أسماء أعلام مشهود لهم دون اعتبار لفوارق عقدية، ويمثل إنتاجهم الخصب المتنوع جهداً مؤسسيًا لفريق عمل بكل معنى الكلمة.

ولكن الفكر الأصولى - السلفى المتشدد ناصب المأمون وبيت الحكمة العداء، وخاض معارك باسم الدين والتفسير الحرفى ضد مشروعات المأمون العلمانية التى كان مقدراً لها - لو استمرت - أن تنقل الشرق الأوسط إلى آفاق حضارية رحبة. وكان رائد هذه الحركة

السلفية المناهضة للعقل فى أيام المأمون هو الإمام أحمد بن حنبل فى مجال العقيدة، والثانى الإمام أبو حامد الغزالى الذى كان بفكره معولاً لهدم العقل الفلسفى، وانعقدت للفكر السلفى السيادة منذ ذلك التاريخ. ونلاحظ أن هذه المعارك لا تلبث أن تظهر نشطة دومًا، معارضة لكل دعوة للعقل والعقلانية والنهضة العلمية والتطور.

وعلى الرغم من هذا الصراع باسم المقدس، فقد أعطى التفاعل ثماراً فكرية متنوعة وإبداعات علمية توجزها عبارة الحضارة الإسلامية أو العربية. ومن عجب أننا نجد من يشيد بهذا العصر، على قصره، فى زهو باعتباره عصر ازدهار، ونجد من هم على طرف نقيض، ويرون أن هذه الفترة هى سر وبداية النكبة. وهاتان رؤيتان متوازيتان على امتداد التاريخ حتى اليوم. والأمر الجدير بالبحث والتفسير هو لماذا تنعقد الغلبة فى النهاية دائمًا لأصحاب التوجه السلفى؟

والذى يعنينا هنا أن وقائع هذه المرحلة تؤكد لنا أن الترجمة كانت إحدى آليات هذه النهضة فى تزاوج مع واقع ينبض بحياة فكر وفعل اجتماعيين جديدين، واقع تربطه علاقة رحم بالسابق على تنوعه، وعلاقة نسب بقضايا الحاضر الجديد آنذاك.

واستسلم العقل العربى بعدها لحالة انكفاء ووهن حضارى... أعنى انطفأت جذوة الإبداع فى ظل سيادة نظم حكم عاطلة من ثقافة الفعل الاجتماعى والعقل الإبداعى والانتماء والتطوير الحضارى، وسادت مقولة : "كل مستحدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار".

وامتد عصر الوهن الحضارى إلى أن تيسرت ظروف تفاعل جديدة مع ما اصطلح على تسميته الحضارة الحديثة - أى الغرب. وبعيداً عن اختلافات التفسير أقول : بدأت الترجمة فى العصر الحديث من موقعين، ولكل أسبابه الخاصة للنشأة والتطور... فى مصر... وفى متصرفية لبنان أو جبل لبنان أثناء الحكم العثمانى.

ارتبطت الترجمة فى لبنان بموقف مناهض لسياسة التتريك؛ ومن ثم محاولة الحفاظ على اللغة العربية ضماناً لفصل المنطقة ثقافياً عن تركيا، وهو الموقف الذى دعمه الغرب. وقدمت لبنان أعلاماً فى الفكر العربى والترجمة نذكر منهم: أمين المعلوف صاحب معجم الحيوان، والمعجم الفلكى، ومعجم النبات. وكذلك فارس نمر ويعقوب صروف اللذان أصدرا مجلة المقتطف وتضمنت الكثير من الدراسات المترجمة فى سياق سياسة التنوير.

ولكن حركة الترجمة كنشاط اجتماعى تنويرى واستقلالى داعم للنهضة والتحديث بدأت فى مصر فى عهد محمد على. ويعتبر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى إمام التنوير والعلمانية؛ إذ جعل الترجمة، وبدعم من السلطة، مؤسسة اجتماعية هدفها إنجاز مشروع قومى اجتماعى شامل لجميع أنشطة الحياة وتحقيق نهضة فى العلوم والصناعات.

بدأ تاريخ الترجمة فى العصر الحديث للعالم العربى انطلاقاً من هذين المركزين. وتعثر نشاط الترجمة أو انحسر بعدما أصابت جهود النهضة انتكاسة بسبب الدور الاستعمارى الغربى والنظم الحاكمة

الاستبدادية المحلية التى حالت دائمًا دون أن تكون قضية الوطن أمانة بين يدى شعب واعٍ ومشارك فى إدارة شئون مجتمعه بحرية. وبدأت صحوة جديدة للترجمة مع مطلع القرن العشرين قرينة صحوة اجتماعية وسياسية للمطالبة بالاستقلال. وبرز أعلام للفكر العربى، كما نشأت مؤسسات للترجمة والتنوير فى إطار رؤية قومية لتحصيل علوم الحداثة التى هى أساس نهضة وازدهار الغرب.

ومع بداية ما يمكن أن نسميه عصر استقلال الكيانات العربية ونشوء دول جديدة فى منتصف القرن العشرين ظهرت مراكز ومؤسسات للترجمة فى غير المركزين السابقين: فى الكويت وسوريا والعراق والسعودية وأخيرًا فى دبى وأبو ظبى وقطر.

وأبدت الجامعة العربية اهتمامًا بدور الترجمة. ودعت، بناء على مبادرة من عميد الأدب الراحل طه حسين، إلى إنشاء مؤسسة عربية للترجمة لإعداد المترجمين. ولكن لم يتحقق من هذا كله سوى إقامة المعهد العالى العربى للترجمة الذى أقيم منذ بضع سنوات فقط فى الجزائر، ولايزال فى دور التجربة، وشرع فى تخريج مترجمين يؤرقهم سؤال: ماذا عسانا أن نترجم، ولماذا نترجم، ولمن نترجم؟ أعنى أن جهدهم التعليمى غير مقترن بمشروع قومى محلى أو عربى، وأمامهم العالم العربى عاطل من هدف نهضوى.

معنى هذا أن هناك إدراكًا عربيًا رسميًا لدور الترجمة وتدنى وضعها، ولكن فى حدود الإدراك النظرى للموقف دون أن يصدقه سلوك

عملى ووعى قومى. ولهذا نرى نشاط الترجمة بؤرًا متناثرة على صعيد الأرض العربية، ولا يخرج عن كونه جهودًا شكلية لمراكز أو منظمات أو مؤسسات هى فى حقيقتها مجرد دور نشر.

ويمكن أن نلخص حقيقة الوضع العربى الراهن للترجمة فيما يلى :

١ - أكثر البلدان العربية حديثة العهد بنشاط إصدار الكتب تأليفًا وترجمة، بل إن هناك بلدانًا ليس لها اسم على خريطة صناعة الكتب.

٢ - الترجمة من حيث الكم متدنية أشد التدنى؛ قياسًا إلى البلدان الأخرى، وقياسًا إلى مقتضيات حضارة العصر والنهوض بالإنسان وبالوطن.

٣ - الترجمة على الرغم من تدنيها ومحدوديتها هى نشاط فردى حتى وإن صدرت باسم مؤسسة ما هنا أو هناك؛ إذ هى جهد متباين التوجهات مما يعكس غياب رؤية وخطة عربية عامة أو محلية تعى مقومات العصر وتحدياته وتمثل استجابة لها.

٤ - نسبة الكتاب المترجم أقل من ١٠٪ من إجمالى الإصدارات على المستوى العربى، وهى أربعة فى الألف بالنسبة للإصدارات المترجمة عالميًا سنويًا، بينما نسبة عدد العرب إلى العالم واحد على أربعة وعشرين. وسبق أن أشرنا فى كتابنا "الترجمة فى العالم العربى: الواقع والتحدى" ما سبق أن نشرته منظمة التربية والثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية فى كتابها الصادر عام ١٩٩٦ من أن إجمالى عدد الكتب

المترجمة إلى العربية منذ عهد خالد بن يزيد حتى عام إصدار الكتاب - لا يتجاوز عشرة آلاف عنوان، وهو ذات عدد إصدارات إسبانيا فى عام واحد من الكتب المترجمة.

٥ - الغالبية العظمى من الكتب المترجمة لا تربطنا بما يسمى العلوم الأساسية Basic Sciences التى هى دعامة البناء الحضارى وحصاد جهود البحث والتطوير والمنافسة. ولكن غالبية ما يوصف بالكتب العلمية هى علوم تطبيقية، مثل إصلاح الحاسوب مثلاً. ولا يكشف الكتاب المترجم عن توجه مجتمعى ماكرو... أى توجه كلى وشامل لحركة مجتمعية ناهضة فى اتجاه العصر. والقليل النادر الذى يهدف إلى صوغ ذهنية علمية إبداعية نقدية.

٦ - ثمة حاجز فاصل كثيف بين بلدان ومثقفى العالم العربى وبين إصدارات العالم المتقدم؛ لأسباب ثقافية، فضلاً عن أن استيراد الكتاب جهد فردى. هذا علاوة على أن المجتمعات العربية موزعة كل تحت سيادة لغة أجنبية هى لغة المستعمر السابق؛ مما يجعل كلاً منها خاضعة لرؤية ثقافية منحازة. وتعانى مشكلة توحيد المصطلحات العلمية عربيًا على الرغم من وجود "مكتب تنسيق التعريب" فى الرباط التابع لجامعة الدول العربية.

٧ - قدر كبير من الترجمات صادر عن دور نشر لحساب هيئات ومراكز دبلوماسية أجنبية؛ ولذلك فإنها تعكس رؤاها ومصلحتها. ومن

هنا جاءت دعوتنا إلى "تعريب الترجمة"، بمعنى أن تصدر انطلاقًا من رؤية عربية نهضوية خالصة.

٨ - الافتقار إلى إحصاءات ببليوجرافية شاملة ومحققة عن الحاضر والتاريخ؛ مما يعنى افتقار المجتمع إلى ذاكرة تسجل نشاطه الثقافى بما فى ذلك الترجمة... هذا على عكس ذاكرة الثقافة الدينية الأصولية.

٩ - غياب دليـل المترجمين العـرب وتخصصاتهم وإنجازاتهم على الرغم من أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أصدرت دليلاً إلا أنه قاصر ومعيب.

١٠ - غياب جيل جديد من المترجمين الخبراء المجيدين... ويعكس هذا فقر الثقافة وقصور التعليم تعبيرًا عن غياب الجهد النهضوى.

١١ - غياب الدراسة التحليلية للمترجمات - دراسة بناء على منهج المباحث العلمية المتداخلة: تاريخ وعلم نفس واجتماع وأنثروبولوجيا... إلخ؛ لتحليل الموضوع وتحليل الأسباب... أسباب التدنى من حيث الكم والكيف دون الاقتصار على إحصاءات كمية وأرقام مجردة. هذا إذا أردنا أن نعرف أنفسنا ونفكر عبر الحقيقة وإن كانت مؤلمة؛ تأكيداً لعزمنا على التغيير. وغنى عن البيان أن دراسة تحليل الموضوع سوف تكشف عن أى فروع المعرفة تحظى باهتمامنا وأيها نعزف عنها، ومن ثم وجه القصور المعرفى الحقيقى فى حياتنا الثقافية ومدى ارتباط ذلك تاريخيًا بثقافة مجتمعية غالبة، وكذلك اقتران ذلك بتخلفنا المعرفى العلمى.

١٢ - غياب الدراسة التحليلية المقارنة لمراحل وعصور نشاط الترجمة فى حياتنا، والمقارنة مع المجتمعات الأخرى؛ حتى لا نزهو بفتات وقشور الإنجازات الفكرية العلمية. ويكفى أن نعرف أن العالم ينفق أكثر من خمسمائة بليون دولار سنوياً على البحوث والتطوير، وجدير بالذكر أن الدول المتقدمة تنفق سنوياً مابين ٢ و ٣ بالمائة من إجمالى الدخل القومى على البحث العلمى فى المجالات غير العسكرية، بينما تنفق البلدان العربية ما بين ٢ر٠ و ٥ر٠ بالمائة من دخلها. ويتجلى فقر البحث العلمى فى اغتراب غالبية العلماء العرب خارج أوطانهم.

وحرى بنا هنا أن نلقى نظرة إلى خلاصة ما انتهى إليه التقرير العربى الأول للتنمية الثقافية والذى يعرض الحصاد الثقافى العربى لعام ٢٠٠٧؛ إذ يؤكد أن المناخ السياسى المتسم بالاستبداد والقهر وغياب الحريات أدى إلى انتعاش الظلامية والأصولية والتطرف. ونعرف أنه مناخ ممتد على مدى قرون. وطبيعى أنه مسئول عن انصراف الإنسان العربى عن ثقافة تحصيل العلم، وعن الاهتمام بالقراءة العلمية والبحث والعجز عن التغيير، وهو ما يتجلى فى مجال النشر تأليفًا وترجمة.

ويشير التقرير العربى الأول إلى تدنى النشر العربى تأليفًا وترجمة، وقصوره الشديد، وندرة الكتاب الذى يتناول علومًا أساسية، وغلبة الكتب الدينية والأدبية.

وسبق لنا، منذ أكثر من عشر سنوات، أن عرضنا فى الطبعة الأولى من كتابنا "الترجمة فى العالم العربى... الواقع والتحدى" إصدار المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - رؤيتنا التى تؤكد ذلك على أساس من دراسة تحليلية

وإحصائية. ولكن للأسف انبرى عدد من المثقفين الذين فزعوا من هول الصدمة وحرصوا على الدفاع الأعمى عن النظم الحاكمة وعن واقع مهين مترد، وشرعوا في التشكيك في الرؤية وفي الإحصائيات عن غير علم. ونحن لن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام ما لم نلتزم منهج "التفكير عبر الحقيقة".

بعد هذا أقول إجمالاً : الترجمة في التاريخ العربي موقف ثقافي اجتماعي سلبي من المعرفة إنتاجًا وإبداعًا وتحصيلاً واستثمارًا. إن مناط الأمل ومحور الجذب في ثقافتنا الاجتماعية التي أفقرها ورسخ واقعها البائس الاستبداد والجمود والتخلف هو تحصيل علم لَدُنِّي دون الدنيوي، ونرى في هذا صراطنا المستقيم وخيرنا الأعظم.

ولهذا فإن النهوض بالترجمة لايكون إلا بشرطين :

١ - عقد العزم المجتمعي على إنجاز نهضة شاملة لكل مجالات النشاط والحياة في المجتمع من سياسة وإدارة وتعليم وتأويل واجتهاد ديني عقلاني حر، وبحث علمي دون قيود من خارج المنهج العلمي في البحث والتفكير في تناسب مع تحديات ومقتضيات حضارة العصر.

٢ - أولوية إعادة تنظيم البنية الذهنية للإنسان العربي في إطار رؤية علمية نقدية لواقعنا راهنًا وتاريخًا، وترسيخ ثقافة الفعل الاجتماعي والتغيير والتنوع في حرية، والانفتاح على الفكر العالمي في تعدده... والهدف بناء عقل جديد لإنسان جديد ومجتمع جديد. وهذا هو الواجب الأول لأي مؤسسة أو وزارة معنية بالثقافة الحقة لا الثقافة الاحتفالية...

ولكنه واجب غائب عن الوعى غياب الحاجة الملحة إلى النهضة.

***

بقيت نقطتان وثيقتا الصلة بموضوع الترجمة وموقف العرب من الترجمة، وهاتان النقطتان موضوع دراسات جادة متطورة على الصعيد العالمى بدأت فى العقدين الأخيرين.

أولاً :

دراسة المُنْتَج أو العائد الثقافى للترجمة إلى ومن العربية مع دراسة مقارنة فى الزمان بين مراحل وعصور نشاط الترجمة، وكذا مقارنة مع المجتمعات الأخرى.

تفتقر البلدان العربية لمثل هذه الدراسة على الرغم من أنها تحظى باهتمام واسع مع بداية مرحلة نهاية الاستعمار الغربى الأوروبى والمراجعة لكل تراث التنوير. وكم هو واجب أن نعود إلى أنفسنا بفكر نقدى أو ما يسمى self-reflexiveness على الامتداد التاريخى وندرس أسباب تدنى الترجمة وطبيعة الحصاد على الرغم من تدنيه، والأثر الناتج عنه، أو عن توظيف واستثمار هذا الحصاد. وندرس كيف صاغت الترجمات صورة الآخر الذى نترجم عنه فى الأذهان وانعكاس ذلك على سلوكنا؟ وكيف صاغت صورتنا أمام أنفسنا، وكيف جرى التفاعل ليكون الحصاد تعميقًا لشعور بالدونية إزاء الآخر، أو ترسيخًا لشعور نرجسى

بالتفوق الزائف حين نزهو بالسلف دون أنفسنا وجهودنا، أو عزمًا على التحدى على أساس من الندِّية فى إطار مقارن مع المجتمعات الأخرى.

هذا مع إيمان بأن الترجمة هى مترجم وثقافة وكتاب وقارئ ومجتمع داعم، وديناميكية حركية نحو هدف مشترك، ونقد عقلانى، وتسامح وموضوعية فى التلقى وفى النقد، ومغامرة فى سبيل نهم معرفى واستكشاف للمجهول. ولكن من أسف أن هذه العناصر ودراستها دراسة تحليلية نقدية غائبة جميعها.

وجدير بالذكر هنا جهود الباحثين فى المستعمرات السابقة فى أمريكا اللاتينية وفى الهند وعدد من بلدان جنوب وشرق آسيا. مثال ذلك : أن فريقًا من الباحثين الهنود استحدث خلال الثمانينيات فضاءً معرفيًا جديدًا فى مجال الدراسات التاريخية الهندية. ويحمل الفريق اسم "فريق دراسات المهمشين أو التابعين" Sub-altern Studies Group والاسم مأخوذ عن المفكر الإيطالى أنطونيو جرامشى. والهدف نقد العلاقات غير المتوازنة بين الذات والآخر خاصة خلال فترة الاستعمار، وكيف صاغ الغرب أيديولوجيا صورة الآخر (الغرب) من خلال ثقافته المنقولة إلى مثقفى الهند. واصطنع الغرب صورة شائهة عن المجتمع الهندى يثبتها الباحثون الغربيون خارج إطار الزمان والمكان، وكأنها هى الهند دائمًا فى كل زمان ومكان. وتجلى هذا فى مجالات بحث عديدة. وذهبوا فى مجال التاريخ إلى أن تاريخ الهند، ليس كما صور الغرب، هو تاريخ شركة الهند الشرقية، وإنما هو فعالية وصراع عامة الهنود على مدى التاريخ لبناء الذات والحفاظ على هويتهم.

وجاء ميلاد هذا المنهج تحديداً بعد الحرب العالمية الثانية ومراجعة الشباب الأوروبى لتاريخه وانحيازاته التى أدت إلى اكتواء مجتمعاتهم بويلات حربين متعاقبتين مدمرتين. واقترنت هذه المراجعة باستقلال المستعمرات السابقة. وتوافقت آراء المثقفين هنا وهناك على ضرورة تصحيح الرؤية ورفض هيمنة ثقافة الغالب، وتأكيد نسبية الثقافة والاعتراف بخصوصية ثقافة الأنا والآخر فى تكافؤ ندّى.

وتقتضى الأمانة أن نذكر أن مصر الحضارة والتاريخ كانت تنبعث دائما حية من جديد على أيدى مثقفيها وعلمائها خلال مراحل النضال التماساً للنهضة، ولكن لا تلبث أن تخبو مع انحسار زخم حركة النهضة وطغيان حاكم أجنبى أو مستبد محلى أو هيمنة أيديولوجيا سلفية.

وحرى بى أن أذكر هنا مثالاً يوضح مدى الأثر الراسخ لآلية نقل المعارف من الغرب واصطناع صورة الآخر فى انحياز أيديولوجى، أو لنقل : صورة الأنا والآخر (الغرب والشرق) كوجهين نقيضين. ذلك أنه عند مناقشة ترجمة كتابى "أثينا إفريقية سوداء" تأليف مارتن برنال، و"التراث المسروق" تأليف جورج جيمس فى ندوة فى المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، وضح أن عدداً من الأكاديميين كانوا أعجز من أن يستسيغوا أو يتحرروا من الأطر المعرفية الغربية المنقولة عن الغرب واغتذوا عليها خلال فترة دراستهم الأكاديمية فى ظل الاستعمار. والغريب أن هذه هى الأطر ذاتها التى تخلى عنها وأدانها كثير من الباحثين الغربيين فى الدراسات والمراجعات النقدية التى راجت مع وبعد ثورة الشباب فى السبعينيات.

ثانيًا :

النقطة الثانية هي الترجمة في عصر العولمة أو عصر ثورة المعرفة أو ثورة الاتصالات أو لنسمها ما شئنا. وكذا الترجمة في إطار صراع الوجود تأسيسًا على المعرفة فيما بين المجتمعات ضمانًا للسبق الحضارى والمنعة الحضارية وليس مجرد البقاء. وغنى عن البيان أن الترجمة من أهم آليات التواصل المعرفى على الصعيد الكوكبى. وأصبح واضحًا أن هذا العصر بكل مسمياته يحمل طاقة وقدرة على التأثير والتغيير جذريًا في ثقافات الشعوب جميعها من خلال كثافة التواصل الذى أصبح يسيرًا وبلا حدود حتى وإن سار فى اتجاه واحد على الرغم من قيود الاستبداد. وطبيعى أنه تواصل ليس قاصرًا على اللغة الشفاهية واللغة المكتوبة، بل تواصل سمع بصرى وعبر وسائط الإعلام المتعددة "المالتى ميديا"، وعبر المعارض والمتاحف والسياحة والهجرة. والترجمة هنا لها دور واضح فى التلقى. وتطمح بلدان إلى أن تحقق لنفسها الهيمنة على الآخر عن بعد من خلال صياغة عقول وأطر معرفة الآخر وضمان السيادة لثقافتها واحتكار المعلومات وشغل موقع المرجع والمصدر للمعلومات والمعارف، أى أن تكون هى بنك معلومات العالم. وهذا ما تحرص عليه الولايات المتحدة من خلال الشبكات الفضائية. وسؤالنا: ترى ما هو الموقف العربى من الترجمة فى هذه المجالات إرسالاً واستقبالاً. أى فى إعادة تشكيل الثقافات وإعادة تشكل الهوية؟

الترجمة الآن هى الوسيط العالمى بامتياز فى نطاق ما يسمى فضاء التفاوض فيما بين الثقافات على الصعيد الكوكبى Global Inter-cultural Negotiation وتزايد الاهتمام بحدة لدى الغرب بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر/ أيلول لفهم ثقافة/ فكر المنطقة العربية.

وتجرى دراسات الغرب فى إطار معرفى غربى. والترجمة النقدية هنا ضرورة حيوية. ولكن السؤال: ما الذى يصنع صورة الأنا لدى الآخر؟ ترك العرب للغرب مهمة صناعة الصورة وتواروا خلف عبارة تدغدغ الوجدان النرجسى السقيم قالها شيخ ذائع الصيت: "لقد سخر الله لنا الغرب...". وهذا خطأ فادح. وانسحب الأصوليون ولاذوا بالماضى وانكفأوا على تراث قديم خارج العصر فكانت نرجسية مريضة... وهذا خطأ فادح آخر يتجلى فى رفض التعددية والتنوع والتطور ووأد للعقل العلمى الحر... على الرغم من أن هذه بعض خصائص التراث الذى يجهلونه...

الترجمة أحد جناحى النهضة للاستيعاب النهم واقتناص معارف الآخر، والجناح الثانى هو الإبداع الذاتى فى مجال الفعل والفكر. وهذان الجناحان لايحلقان بالمجتمع إلا فى مناخ من الحرية والديمقراطية وثقافة الفعل والتغيير...

الطريق إلى المستقبل مشحون بالتحديات... تحديات مع أنفسنا لفهم وتغيير أنفسنا ثقافيًا وتاريخيًا... وتحديات مع الآخر فى ضوء مقتضيات حضارة العصر... وإن لم نقارن لن نفهم. وإن لم نعقد العزم على التزام نهج علمى فى الفهم وفى مواجهة التحديات لن نخطو أبدًا إلى أمام...

ونعود لنسأل :

أين العرب من كل هذا.... ؟!!

الترجمة

بين عالم جديد ومستقبل مجهول

بداية أضع تعريفًا للترجمة غير الشائع؛ تعريفًا تحدد صيغته المهام والمسئوليات ومقتضيات نشاط المجتمع الذى يحق أن نسميه ترجمة. وينأى بنا عن المزاج الثقافى الاحتفالى السائد بيننا الذى يفضى إلى تزييف الوعى، ويضيع معه الطريق، ونقع أسرى الصخب حيث ضجيج ولا طحين.

ليست الترجمة نقل معرفة ، ولا هى حوار حضارات بالمعنى السطحى الذى نردده إلا وفق شروط. الترجمة إحدى آليات تمكين المجتمع Social enpowerment، وهى اقتناص لأفضل معارف حضارة العصر العالمية اللازمة لدعم عملية التمكين على صعيد استراتيجى فى سياق التحدى والمنافسة، أو الصراع العالمى. وطبيعى أن يخرج بنا هذا عن الترجمة كترف ثقافى. وتمثل الترجمة بحكم هذا التعريف نشاطًا منظوميًا اجتماعيًا، بمعنى أن الترجمة نشاط اجتماعى لا فردى، تخطيطى لا عشوائى، يجرى إنجازه من خلال مؤسسات ومنظمات تجمع بينها بنية شبكة اجتماعية وصولاً لى هدف أو مستقبل.

وحرى بنا أن ندرك بادئ ذى بدء أن الترجمة فى عصور نهضتها تكون قرينة نهضة مجتمعاتها، بل ثمة تلازم بين الاثنين. وتمثل فى حالة النهضة حركة ومنظومة مؤسسية وليست نشاطًا فرديًا أو تراكمًا عدديًا. وتجسد منظومة معرفية وتعبيراً عن حالة حضارية اتخذت الطابع المؤسسى ويهيئ لها المجتمع الدعم المؤسسى الاجتماعى والاقتصادى والصناعى والعلمى والتعليمى... إلخ أى يحشد لها مثلما يحشد لكل أنشطة المجتمع عوامل التمكين وصولاً إلى المستقبل المنشود وفق استراتيجية جرى التخطيط لها علميًا.

ولكن لماذا المعرفة / الترجمة؟ ولماذا السعى إليها سعيًا شبكيًا فى إطار المؤسسات الاجتماعية؟ وما هى حدود المعرفة المنشودة ومجالها من حيث التخصصات والفنون ومن حيث الموطن والمصدر؟ وما هى آليات ومعايير اختيار المعارف للترجمة على الصعيد الاجتماعى؟ معارف محلية، تاريخية، معاصرة، أى باعتبارها نشاطًا اجتماعيًا داخليًا أم نشاطًا متبادلاً بين المجتمعات؟

الإجابة تأتى تأسيسًا على فهم معنى المستقبل، ومعنى البحث فى الزمان والمكان الحضاريين كدور وكحركة. ونعنى هنا المستقبل الاجتماعى؛ إذ يتميز الإنسان/ المجتمع بأنه كيان حى دينامى هادف. والمستقبل هدف حركة أو حراك اجتماعى يأتى بناء على وعى بالواقع والسياق المحلى والعالمى كطور حضارى واختيار. ويخضع الاختيار الواعى لمحددات عدة هى أشبه بإحداثيات تتلاقى فى محل هندسى

مشترك بحيث تشكل فى مجموعها قوة دفع متكاملة ومتناغمة ضمانًا لبلوغ الهدف. أو لنقل بعبارة أخرى: إن بلوغ الهدف له مقتضيات من حيث تشخيص الواقع المحلى وخط المسار والأساليب، وطبيعة محيط الحركة الاجتماعية، أى الواقع الإقليمى والعالمى وما ندركه من تحديات حافزة إلى الحركة فى إطار صراع لا حوار فيما بين المجتمعات. وأقول: صراع لا حوار؛ لأن الحوار مرحلة تعبر عن توازن القوى، وتوازن القدرة على الأخذ والعطاء فيما بين الأفراد أو المجتمعات، إلى حين اختلال حالة التوازن؛ فيتحول الحوار إلى صراع، وتكون الهيمنة للأقوى بفضل مايملك من أدوات القوة: الفكر والتكنولوجيا.

ذلك لأن المجتمعات فى حركتها وفى تناقضها وتعاونها وصراعها إنما تسير لهذا كله بين بعدين: الثقافى والعلمى التكنولوجى. وهذان البعدان على الصعيد الإنسانى فى تطور مطرد أو هكذا الوضع السوى النظرى، وإن تغيرت حركة بندول الحضارات فى تناوب أو تبادل بين المجتمعات حسب طبيعة واقعها وحصتها من التقدم وشروط فعاليتها. وإذا كانت الحضارة - حسب تعريفنا لها - هى الإبداع العلمى التكنولوجى قرين إطار فكرى قيمى، بمعنى أن التطور التكنولوجى فى المجتمعات لا يعنى فقط تطور وارتقاء الأدوات المادية؛ بل وأيضًا تطور وارتقاء الأداة المعنوية التى هى الثقافة. ومن هنا فالثقافة متغيرة ومتفاعلة، وهى إجمالاً أداة المجتمع لتشخيص ظواهر الحياة وتحديد أسلوب التعامل الهادف معها.

لهذا فإن الثقافة فى حركة مجتمعية مع التاريخ، ومتنوعة بتنوع الزمان والمكان. والثقافة نجل لواقع إبداعى علمى تكنولوجى، وهى إحدى أداتين حضاريتين فى التمكين وفى الحوار والمناقشة والتناقض والصراع بين المجتمعات. وحرى أن ننظر إلى الترجمة فى إطار هذا الفهم وليس بمعنى أنها معارف مجردة منقولة، وهو ما يصدق على الترجمة كترف ثقافى. وحسب هذا الفهم تكون الترجمة أداة لفعل اجتماعى نشط هادف. والهدف تحقيق إنجاز، أى التمكين الاجتماعى فى إطار الماراثون الحضارى بين المجتمعات وينعكس على الإنسان فكرًا وحياة اجتماعية ودورًا حضاريًا.

إذن لابد وأن تكون الترجمة نشاطًا اجتماعيًا لا فرديًا، وهادفًا ومخططًا وليس عفويًا وإلا أضحت كماء مسكوب فى صحراء حتى وإن أفاد به بعض الكلأ. ويتعين أن تكون كذلك مستوفية لشروط تكفل بلوغ الهدف الذى هو علة الحركة؛ لأن الهدف أو المستقبل هو دائمًا علة حركة الإنسان. فالإنسان/ المجتمع لا يتحرك ميكانيكيًا بدافع خارجى قسرى، ولا يتحرك عفويًا، وإنما يتحرك من أجل.. أى نحو المستقبل كما يعيه أو يفهمه أو كما تقضى ثقافته؛ ذلك لأن بعض الثقافات الاجتماعية قد تبتر عوامل إرادة التغيير وصولاً إلى هدف حياتى دنيوى فى إطار الطبيعة وقوانينها، وإنما تحث الإنسان على الانصراف عن هذا وأن يرى هدفه الأجلَّ فرديًا يعزز الخلاص من بلاء الدنيا، والتوق الأبدى إلى ما وراء الطبيعة.

نأتى أخيراً إلى تحديد معنى الهدف المحرك لنشاطنا. أعنى تحديد معنى المستقبل فى ضوء المحددات التى ذكرتها، وأيضًا فى ضوء تشخيص واقعنا الحضارى ومدى التناقض بين الواقع والهدف؛ ومن ثم مدى وطبيعة الجهد اللازم (من حيث الترجمة) لضمان بلوغ الهدف.

يؤكد الواقع الحضارى الآن أننا إزاء مرحلة حضارية جديدة لها خصائص مميزة نحن عاطلون منها؛ ومن ثم معوقون حتى الآن. الحضارة الجديدة أو الطور الحضارى الجديد الذى يحدد لنا معالم التحدى والمستقبل الذى يتعين أن ننشده ونحشد القوى والطاقات من أجله - هو حضارة عصر المعلومات وبناء مجتمع المعرفة : الاقتصاد والإنسان والثقافة... إلخ وهذا الطور الحضارى هو الباب الثانى من حضارة عصر التصنيع.

نعم، وكما يؤكد مانويل كاسيلز فى كتابه المرجعى "عصر المعلومات"- المعلومة لها دور على مدى التاريخ التطورى الارتقائى للإنسان والمجتمع. والمعلومة بمعنى اتصال المعرفة حاسمة ومهمة فى جميع المجتمعات. ولكن الجديد مع التطور العلمى التكنولوجى خلال النصف الثانى من القرن العشرين بعامة، والعقدين الأخيرين بخاصة- أنه نشأ ما يسمى مجتمع المعرفة الذى تمثل فيه المعرفة أهم مكونات النشاط الاجتماعى فى كل صوره وبخاصة النشاط الاقتصادى. نعم، القول بأن المعرفة المشتركة والمتواصلة مجتمعيًا هى أساس الإنتاج وترابط البيئة الاجتماعية - ليس بالجديد، ولكن الجديد :

١ – التكنولوجيا الجديدة تجاوزت الحدود الجغرافية القومية وتجاوزت معها هذه الحدود التطلعات والتفاعلات والتكوينات الشبكية لجماعات النخبة والمصالح.

٢ – تقدم التكنولوجيا الجديدة إمكانات مهولة للشراكة فى المعرفة والأرشفة والاستعادة وصياغة المحتوى معرفياً بل والتلاعب به.

٣ – المعرفة أهم رأسمال، ومن ثم نجاح أى مجتمع يتمثل فى نجاحه فى إدارة المعرفة: التحكم فيها إنتاجًا وصياغةً واستيعاباً واستثماراً واستغناءً وتجديداً.

٤ – نشوء مجتمع كوكبى قائم على التفاعل الشبكى.

٥ – ثورة فى إنتاج المعرفة والتسارع المذهل فى توليدها؛ بحيث إن التمييز بين المجتمعات وقدراتها ينبنى على أساس فائض قيمة المعرفة الموظف والمستثمر لتأكيد التمكين والهيمنة.

٦ – تلاشى الحدود بين المجتمعات، وما يفضى إليه من تكثف التواصل والتفاعل بين الثقافات سواء عن طريق الهجرة والسفر أو عبر الميديا، وما يقتضيه هذا من تمكين وحصانة وديناميه وتسامح وحرية تفاعل ووعى علمى بالحقائق عند المواجهة والقدرة النقدية العقلانية عند التلقى (الترجمة).

إنه عصر ثورة تفجر المعلومات وكوكبية هذه الثورة إنتاجًا وفعالية وهيمنة؛ حتى ليمكن القول: إن البشرية على أعتاب مرحلة تطورية ارتقائية جديدة تعادل مرحلة اختراع الكتابة وما أفضت إليه من

تحولات. نحن على أعتاب مرحلة ستغير من البشر - المشاركون فى هذه الحضارة طبعًا - عصبيًا، وتغير من النمط الظاهرى Phenetype بل وربما تغير من شروط البيئة المؤثرة فى الجينات على المدى الطويل؛ وسوف تغير كذلك من الاستعدادات العقلية والنفسية ومن العلاقات الاجتماعية والعلاقات بين المجتمعات. ثورة جديدة فى سلم الارتقاء التطورى تبشر القائمين بها وعليها بإمكانات واعدة وتنذر المتخلفين عنها بتبعية دائمة وربما ليكونوا نموذجًا لكائنات مرحلة تاريخية سابقة.

ويستهل مجتمع/ اقتصاد المعرفة نمطًا جديداً للإنتاج يغير مصدر خلق الثروات والعوامل الحاكمة للإنتاج. بالأمس كان الحديث عن فائض قيمة العمل كإنتاج، الآن فائض قيمة المعرفة كإنتاج. القيمة هى المعرفة والعمل المنتج للمعرفة والعاملين المنتجين للمعرفة، والمعرفة المنتجة للعمل.

ويجسد مجتمع المعرفة صورة جديدة ومميزة للتنظيم الاجتماعى من حيث كيف أو نوع الإنتاج (المعرفة وهضمها وتوظيفها وسرعة التوظيف ومحتواها والمنتج منها) وكم الإنتاج ونطاق استثمار المنتج وهدفه. هنا توليد المعلومات/ المعرفة ومعالجتها ونقلها وطاقتها التفاعلية هى المصادر الرئيسية للإنتاجية الاجتماعية وصور القوة والهيمنة بفضل ظروف تكنولوجية وعلمية جديدة تهيأت ونشأت خلال الفترة الأخيرة. وأصبحت الإنسانية تتكامل كوكبيًا على أساس شبكى بين المشاركين. ويقتضى هذا الأساس توفر الكفاءة والندية. هذا أو إفراز وإخراج من هم دون المستوى ربما ليقتنعوا بالتلقى؛ ومن ثم الاغتراب عن العالم أو الإقصاء والتهميش.

ويمثل مجتمع المعرفة - بصورته هذه - ثورة متسارعة من التكنولوجيا والمعلومة والمحتوى المعرفى بفضل التغذية المتبادلة والتلاحم؛ ذلك أن النظام المعلوماتى يفضى إلى تنامى تكنولوجى للتراكم المعرفى وصولاً إلى مستويات أرقى من التعقد فى معالجة المعلومات، فالتكنولوجيا والمعلومات مترابطتان فى جديلة واحدة متنامية صاعدة. وهنا رابطة وثيقة بين الثقافة وقوى الإنتاج؛ إذ لا ثقافة - ثقافة حضارة العصر - بدون قوى الإنتاج (إبداعًا وتوظيفًا وتطويراً)، ولا قوى إنتاج بدون هذه الثقافة. ويعنى هذا أيضًا أن الهيمنة ستكون حق مجتمعات المعرفة. فهى بؤرة وركيزة ومصدر عملية توليد المعرفة والإنتاجية، وهى المصدر الفعال للثروة والسلطة والرموز أى الثقافة.

هنا نقول: إن حياة المجتمعات ومستقبلها الآن رهن تمثل واستيعاب ثورة المعرفة كوكبيًا. حضارة عصر المعلومات أو عصر ثورة المعرفة وتجلياتها فى النظام الاجتماعى، أى إعادة تشكيل جذرية لهياكل المجتمعات وعلاقاتها الداخلية الرأسية التراتبية والتحول الجذرى إلى نمط جديد للإنتاج يوحد بين التكنولوجيا والمعرفة فى صعود متسارع ارتقائى؛ ولهذا فإن الانتماء إلى العصر رهن المشاركة الإيجابية أخذاً وعطاء على أساس الكفاءة والندِّية، وما يقتضيه هذا من تحول فى ظروف وشروط التنشئة الاجتماعية والتغذية الفكرية (الثقافية العلمية فى التعليم والإعلام... إلخ) من حيث نطاقها الكوكبى ومضمونها ومحتواها الداعم والمؤسس محليًا. وليس الانتماء إلى الماضى والقناعة به، وليس الاكتفاء

بالتلقى فى سلبية. وتأسيساً على هذا نقول: إن المستقبل ليس مستقبل نشاط الترجمة منعزلاً عن الجُماع المنظومى لأنشطة المجتمع؛ وإنما مستقبل المجتمع حيث الترجمة إحدى التجليات، أو هى آلية من بين آليات الحراك أو التمكين الاجتماعى كمًا وكيفًا، وهى مؤشر أيضًا على مدى ما يتحلى به المجتمع من خصوصيات النهم المعرفى ووضوح الرؤية نحو مستقبل مرسوم وقدرة على تعبئة الطاقات والجهود.

لهذا أقول: إن الهوة بيننا وبين المجتمعات المتقدمة هوة معرفية فى الأساس، من حيث إبداع وإنتاج وتوظيف المعلومة وإغنائها بمحتوى معرفى. وليس الفارق كميًا - أى كم المعلومات - ؛ بل فعالية الإنتاج الإبداعى والقدرة على معالجة المعلومة وصياغتها فى نسق معرفى. أعنى إرادة فعل التغيير ومقتضيات توفر هذا الفعل لدى إدارة المجتمع والتكوين النفسى والثقافى والعلمى لأفراد المجتمع الذى يخلق بينهم صورة البحث المشتركة. الانتماء والتضافر والفعالية المشتركة المتكاملة. هكذا حتى نكون مشاركين عن أصالة فى عملية البناء الحضارى. ومن شروط هذه المشاركة سد الفجوة المعرفية عن طريقين : إبداع محلى، وتحصيل المعارف أو المعلومات التى أبدعها الآخرون. تحصيلها وملاحقتها فى نهم عقلانى نقدى لتدخل فى نسيج البنية المعرفية للمجتمع وتوظيفها اجتماعيًا ضمن استراتيجية تحول حضارى لمجتمعنا. وهنا يبرز دور الترجمة وشروط فعاليتها ونجاحها.

هذا هو مناخ العصر ، أو السياق الحضارى الذى يتعين أن نتحاور ونتفاعل فيه ونرسم فى ضوئه المستقبل، وتكون الترجمة إحدى

آليات التمكين.. إحدى آليات حشد الطاقات والجهود الفكرية والعلمية والإعلامية والثقافية والإبداعية... إلخ لتعظيم رأس المال البشرى أى الإنسان هدف النهضة وأداتها وضمان الكفاءة والندية للخطو على طريق النهضة. ويبقى هنا سؤال أو أسئلة :

هل الترجمات الصادرة فى العالم العربى على قلتها وتدنيها وتشتت أهدافها تمثل خطوة على الطريق؟ هل تصدر بناء على خطة مجتمعية هادفة؟ هل هى نشاط مؤسسى؟ ليس بمعنى أنها تصدر عن إدارة أو مجلس حكومى أو تجارى؛ وإنما بنية اجتماعية تاريخية ذات سياسة موجهة ورؤية مستقبلية جامعة لجهود أعضائها عن وعى نحو الهدف مع تغذية عكسية مستمرة بين الصادر والعائد لتصحيح المسار، فضلاً عن علاقة شبكية تربطها بمؤسسات/ منظومات المجتمع ككل، والسؤال المحورى الأهم: ما هو المستقبل الذى رسمناه كمجتمع عام ويمثل صورة مشتركة بيننا حتى نحدد على هديه آلية ومحتوى الترجمة كمًا وكيفًا؟ إذ مثل هذه الصورة عن الواقع والمستقبل والتحديات هى بعض مكونات الوعى الوجودى الاجتماعى، وهو وعى علمى وسياسى رفيع المستوى لصياغة ما يمكن أن نسميه الإطار الفكرى أو النموذج الإرشادى "البارادايم" Paradigm لنشاط أو أنشطة المجتمع.

أعود لأقول: مجتمع المعرفة، مجتمع المستقبل القريب والتحدى المباشر، مجتمع تفاعلى قائم على حرية الفكر والرأى والتعبير والإبداع وحرية تدفق المعلومات والتأكيد على حقوق الإنسان والحريات الأساسية مجتمعة دون تجزئة. ومجتمع المعرفة مجتمع تعظيم رأس المال البشرى

وحق وحرية المرء فى تنمية شخصيته نموًا حرًا كاملاً، وأن لا يخضع المواطن - وليس الرعية - لأية قيود وانحيازات تفرضها سلطة ما، سياسية أو دينية أو أبوية. ويمثل التعليم والمعرفة والمعلومات والاتصالات بؤرة النشاط المتجدد بغية تقدم البشرية ورفاهيتها فى مساواة كاملة دون تمييز من حيث النوع أو الجنس أو الدين أو النسب... إلخ. ومجتمع المعرفة أيضًا مجتمع مؤسسى مدنى؛ ومن ثم نقيض كامل لمجتمع السلطة السياسية المركزية الأبوية. وهو أيضًا ساحة للإبداع العلمى والتكنولوجى فى ترابط كوكبى حر. والترجمة هنا هى حلقة وصل كوكبية ورافد تغذية جوهرية لجميع هذه الأنشطة، وهى تغذية مجتمعية لا فردية وهادفة تخطيطيًا.

دعونا نسأل - فى ضوء هذا التصور - هل مصر أو أى أمة عربية تمثل المستوى العام والسوى للأمم من حيث الإبداع العلمى والفكرى وتهيئة شروط التحول الحضارى إلى مجتمع معرفة؟ وهل تمثل المستوى العام والسوى من حيث الترجمة والنهم المعرفى وإصدار وانتشار الكتاب؟ وإذا كانت الأمة - أى أمة عربية - دون المستوى فهل هى كذلك عن جهل؛ بمعنى أنها لا تعرف، ومن ثم هذه حقيقة خافية وإذا تكشفت سوف تعقد العزم وتعبئ الجهود للحاق به؟ وإذا لم تكن كذلك فلماذا؟

الشىء اليقينى أن مصر والمجتمعات العربية، والمثقفين العرب جميعًا - خاصة مثقفى السلطات - يعرفون حقيقة الهاوية العلمية والفكرية والثقافية والتكنولوجية وكذا حقيقة تدنى وضع الترجمة. وشاعت

هذه الحقيقة على الصعيد العالمى فى تقارير الأمم المتحدة وعايرنا بها جورج بوش الابن. ماذا كان رد الفعل؟ انبرى مثقفو السلطات العربية يكذبون عن وعى ما قلناه تأسيسًا على إحصاءات صدرت عن المواقع الرسمية للدول العربية. هذا بدلاً من عقد دراسات ميدانية وإحصاءات علمية موضوعية لاستكشاف حقيقة الدعوى أو الادعاء وحقيقة واقعنا.

لست بحاجة إلى أن أعيد وأكرر إحصاءات سابقة. ولكن أقول إجمالاً: الوضع المصرى والعربى عامة أسوأ الآن كثيراً مما كان منذ عشر سنوات. العالم تغير، والهوة المعرفية اتسعت. العالم يعيش ثورة حضارية معرفية ونحن نناشد عقول السلف ونناجى الماضى. والثورة المعرفية جوهرها ومحورها الثقافة/ الفكر/ المعرفة/ المؤهلة لاقتسامها على نطاق كوكبى.

ويكفى أن نشير إلى :

ينفق العالم سنويًا أكثر من ٥٠٠ مليار دولار على البحث والتطوير العلميين. وهذا معرفة يتعين استيعابها وتوطينها والإسهام فيها بإبداع محلى.

ويستحدث العالم كل سنة أكثر من ٤٠ ألف مصطلح علمى جديد، كما يستحدث قرابة ٢٠٠ ألف قضية رياضية جديدة تحمل معها عدداً كبيراً من مئات المصطلحات. وطبيعى ليس لنا أن نقنع بالتنقيب عن مقابل للمصطلح فى التراث وإنما تلزم المتابعة للجديد وابتكار واستحداث جديد فى اللغة علاوة على المشاركة الإيجابية فى النشاط العلمى.

وتصدر المعرفة العلمية والتكنولوجية كلها بلغات غير عربية. ٨٦٪ بالإنجليزية والباقى بلغات ألمانية وفرنسية وغيرها وليس للغة العربية فيها نصيب.

هنا الترجمة بقدر ما هى إحدى آليات تمكين المجتمع، هى أيضًا إحدى آليات تخصيب وتطوير أى تمكين اللغة.

ولكننا - لأننا شعوب تعشق الطرب - نقنع بنرجسية الثناء على اللغة العربية، ونتقاعس عن الإبداع وعن الترجمة. والأزمة ليست أزمة لغة؛ بل أزمة الإنسان/ المجتمع العربى. وإذا تطلعنا إلى المستقبل الذى يجسده العالم المتقدم أمامنا - نرى واضحًا كم هو مستحيل تصور مجتمع معرفة بدون ترجمة، أو لنقل: كم هو مستحيل بناء مستقبل بدون ترجمة!

الترجمة فى العالم العربى

ومجتمع المعرفة

سؤالان يلحان على الذهن كلما حاول المرء الحديث عن واقع حال المجتمعات العربية والطريق إلى المستقبل.. إلى مجتمع المعرفة، وهذان السؤالان هما :

كم حجم المعرفة التى ينتجها العرب إبداعًا ذاتيًا وإضافة محلية وعالمية وتجد سوقًا رائجة أو مقبولة من حيث المحتوى فى العالم وتتسم بالجدة والقدرة على المنافسة؟

وما هى صورة المستقبل التى رسمها وخطط لها كل مجتمع عربى وحشد طاقاته لضمان إنجازها ومن بين هذه الطاقات الترجمة؟

هذان سؤالان وثيقى الصلة بموضوع الترجمة والمستقبل الذى يجسده الآن مجتمع المعرفة؛ ذلك أن الترجمة – وإن اختلفت كمًا ونوعًا مع كل عصر – هى إحدى آليات تمكين المجتمع عند حشد الطاقات والكفاءات واقتناص الخبرات وصولاً إلى مستقبل منشود تَحَدَّدَ مجتمعيًا فى ضوء التحديات الحضارية لعصر بذاته. وتمثل الترجمة هنا تجليًا لفهم معرفى يسود جميع مؤسسات وأفراد المجتمع، كل فيما يخصه، تعزيزًا لبنية المجتمع وقدراته وفعاليته وعلاقاته محليًا وإقليميًا وعالميًا.

إذ من المسلَّم به أن المعرفة تمكين للفرد والمجتمع، ونقص المعرفة ضعف يفضى إلى تبعية. وإن القدرة على اكتساب المعرفة نقلاً عن الآخر، قرين القدرة على توليد المعرفة بكل أشكالها إبداعًا ذاتيًا بما فى ذلك الاستعادة الإبداعية للمعارف التقليدية والارتقاء بها واستثمارها وظيفيًا، دليل واضح على حيوية المجتمع وقدرته على البقاء ومواجهة التحديات، وكذا دليل على قدرته على تقاسم المعرفة فى إطار عملية تفاعلية فيما بين المجتمعات وداخل المجتمع الواحد.

وتمثل الترجمة فى هذه الحالة سعيًا مجتمعيًا مؤسسًا على التخطيط ومدفوعًا بإرادة التحدى للاستيعاب العقلانى النقدى الانتقائى والإبداعى للمعرفة التى تتكامل وتتلاحم مع إبداع معرفى ذاتى.. إبداع تجديدى سواء لرصيد الماضى عند استعادته أو لإنجازات الحاضر فى ضوء استشراف للمستقبل؛ ولذلك تكون الترجمة بمثابة فعل مجتمعى نشط حافز دائمًا، أو هى استجابة لحاجة اجتماعية ملحة؛ لأن التطوير حياة وتحدٍّ مستمرين. وبدون ذلك تتدنى الترجمة كنشاط ورؤية مستقبلية إلى أدنى مستوى وتنحصر فيما يمكن وصفه إجمالاً ثقافة ترفية تلهى عن جدية البناء ومواجهة التجديد.

ومن ثم فإن حياة المجتمعات دائمًا رهن المعرفة، مثلما أن المعرفة تتطور ويطرد اكتمالها بفضل الفعل الاجتماعى والتفاعل بين الأفراد والمؤسسات داخل المجتمع الواحد، وتتطور كذلك بفضل التفاعل بين المجتمعات عن طريق نقل المعرفة/ الترجمة. ونحن نرى أن تمكين

المجتمع على أساس المعرفة المنقولة، فضلاً عن المعرفة الإبداعية الذاتية- لا يعنى فقط نقل المعرفة كنشاط مظهرى احتفالى؛ بل يعنى استثمارها بكفاءة بهدف زيادة الثراء العلمى والتكنولوجى والاقتصادى والسياسى واللغوى... إلخ وهذا ما لا يتسنى تحققه إلا فى مجتمع إنتاجى، يرى وجوده مشروعًا ممتدًا حاضرًا ومستقبلاً على مستوى حضارة العصر وتحدياته؟ إذ بدون توفر هذا الشرط تفقد الترجمة فعاليتها ولا نجد لها مردودًا اجتماعيًا، فضلاً عن تدنى انحسار مستواها. وليس غريبًا أن يتوارى نشاط الترجمة العلمية تحديدًا فى المجتمعات المتخلفة والمعتمدة على استهلاك منتجات المجتمعات الأخرى. وليس غريبًا كذلك أن تعانى مثل هذه المجتمعات من تخلف اللغة؛ لأن اللغة هى الإنسان/ المجتمع فى حيويته وفى نشاطه الإنتاجى العلمى والتكنولوجى.

نذكر هذا والعالم الآن على أعتاب مرحلة جديدة فى تاريخ تطور الإنسان والإنسانية تعادل مرحلة اختراع الكتابة. وسوف يفضى هذا التحول إلى تقسيم المجتمعات مستقبلاً إلى مجتمعات ما قبل عصر المعلوماتية ومجتمعات عصر المعلوماتية أو مجتمعات المعرفة. مثلما سيفضى إلى تحولات عضوية/عصبية فى بنية وسلوك الإنسان. وهذه المرحلة هى الطور الثانى فى مرحلة الثورة الصناعية. وتباينت الأسماء لتعريفها ما بين ما بعد الصناعة أو ما بعد الفوردية أو المعلوماتية، أو مجتمع/ اقتصاد المعرفة؛ وهو الاسم الذى استقرت عليه مصادر كثيرة.

ويمثل مجتمع المعرفة صورة المستقبل الذى أطل بفجره على المجتمعات المتقدمة. وهو أيضًا مجال المنافسة فيما بينها. كما يمثل التحدى الأول والأساسى أمام المجتمعات النامية ومنها المجتمعات العربية.

الآن ومع التحول العصرى الذى تغير معه مشهد العالم لم تعد القيمة التفاضلية المتمثلة فى الثروات الطبيعية من مواد خام، ولا عدد البشر والأيدى العاملة الرخيصة - هى وجه التمايز والتميز بين المجتمعات؛ وإنما وجه التمايز والتميز هو قدرة البلدان على أن تبدع وتنظم وتنشر وتستثمر وتدير بكفاءة وفعالية وحرية وسرعة المعارف والمعلومات المتاحة عالميًا والمبتكرة محليًا لدعم مشروع وجودها ودعم قدرتها على المنافسة كنموذج جدير بأن يحتذى فى الصناعة والسياسة والتطوير. إن مناط الأمر الآن الميزة التنافسية لا ميزة المقارنة. ليس حيازة تكنولوجيا؛ بل إبداعها وتطويرها؛ لأن حيازتها فى ظل التخلف تمثل عبئًا وعائقًا.

وتسعى المجتمعات الناهضة بكل طاقاتها إلى توطين العلم والتكنولوجيا، وترى أن المفتاح هو العلم المعرفى. ويعنى العلم المعرفى الاستيعاب النقدى لإنجازات العالم المعرفية واحتضان أو توطين العلم والثقافة العلمية، والقدرة على التعامل المنهجى ومعالجة هذه الثروة المعرفية، وكذا القدرة على إدارة المعرفة إبداعًا أو توليدًا واستثمارًا وتطويرًا بل ونسيانًا فى ضوء احتياجات النهضة. ويعنى العلم المعرفى أيضًا كيف نتعلم، وكيف نطور، وكيف نخطط طاقاتنا المعرفية، وحفز

نزوع النهم المعرفى عند أبناء المجتمع، وأن نعرف كيف نغير ونتحكم علميًا فى البيئة الأساسية، أى فى كلمة واحدة كيف نبدع ثقافتنا الحضارية لعصر جديد؛ ولهذا نؤكد أن قضية الترجمة ليست كما يحلو لكثيرين قضية لغة؛ بل هى قضية سياسة ثقافية حضارية، ومع الترجمة القائمة على التخطيط قرين الفعالية الاجتماعية - تتطور وتثرى اللغة.

وتأسيسًا على هذا لم تعد السلعة الخام وعدد البشر ورخص الأيدى العاملة - هى محور تقييم الثروة بل المعرفة وفائض قيمة المعرفة. وظهر بذلك مجتمع الثراء المعرفى وما يحققه من فائض قيمة معرفية، مقابل مجتمع الإفلاس المعرفى.

نعم المعرفة على مدى تاريخ الوجود البشرى هى أهم مكونات الأنشطة الاجتماعية على اختلافها فى الاقتصاد والثقافة وفى السياسة، وفى الحرب والسلم... إلخ ولكن الفارق الآن أن مجتمع/ اقتصاد المعرفة هو المجتمع الذى تمثل فيه المعرفة المنتج الرئيسى والمادة الخام موضوع الإنتاج والمناقشة. ويتمثل الجديد فى أن التكنولوجيا تجاوزت الحدود الجغرافية القومية. وتقدم هذه التكنولوجيا الجديدة إمكانات مهولة لتقاسم طوفان المعرفة ومعالجتها واستعادتها. وأضحت المعرفة بذلك - أى بطابعها العالمى ومحتواها المتميز - أهم رأسمال للمجتمع مع توفر القدرة على التحكم فيها إنتاجًا وتوظيفًا.

انتقلت حضارة عصر الصناعة، أى البلدان الصناعية المتقدمة إلى حضارة عصر الفضاء الإلكترونى، عصر الحاسوب "الكومبيوتر". وتشكل

معه فضاء جديد تسيطر فيه لغة المعلومات أو المعرفة والتى تعنى المعلومات فى صياغة نسقية حاملة معها طابعها الاجتماعى والأيديولوجى. وانعقد سلطان الهيمنة لوسائل الإعلام والاتصال "الميديا" التى تعتمد فى صناعتها على اللغة.

وأدت - وتؤدى - هذه التحولات إلى قلب أو نقض الأسس التى قام عليها العالم الصناعى الحديث؛ إذ تنشئ روابط جديدة بين المعرفة والثروة والسلطة. وأدت كذلك فى الوقت نفسه إلى تشوش العلاقات ما بين الكلمات والأفكار والأشياء. معنى هذا أننا بصدد بيئة رمزية مغايرة، ورؤى وعلاقات جديدة. إنها المعرفة فى ثوب جديد ودلالة جديدة تفيض طوفانًا عبر آليات جديدة غير مسبوقة. طوفان المعرفة الذى يصوغ صورة العالم، ويصوغ معالم إدراكنا له، ويعيد تشكيل كل مظاهر حياتنا.

نحن إزاء صورة جديدة، وطوفان لا ينتهى من المعرفة، وإزاء منظومة جديدة للعالم ندركها من خلال وفى إطار مفاهيم أو معارف جديدة؛ إذ من الطبيعى أن يقتضى هذا التحول أنماطًا مغايرة من التفكير، وعتادًا جديدًا من المفاهيم، وممارسات اجتماعية مغايرة، وخبرات وجودية جديدة تنتظم فى منظومات شبكية كوكبية. وطبيعى أيضًا أن ليس بالإمكان لمن شاء إنجاز مشروعه الوجودى؛ أى ضمان البقاء والتطور والمنافسة - أن يفهم عالم اليوم بذات أطر الفكر والمفاهيم التقليدية السابقة التى سادت فى عصر الصناعة، ناهيك عن العصور الأسبق؛ ذلك لأن لكل فضاء وجودى أنماطه الفكرية، ولكل ممارسة اجتماعية لغتها ورموزها ومفاهيمها ومعاييرها . معنى هذا أن المجتمع الذى

يتقاعس عن نقل/ ترجمة واستيعاب المعرفة الجديدة، ويتقاعس عن تطوير ذاته للإسهام فى الإبداع المعرفى - مثل هذا المجتمع سيظل أسير صورة العالم القديمة ويعيش مغترباً معرفياً يعانى من أزمة المفارقة الزمنية والانفصام بين تخلف الفكر وحيازة المستحدث التكنولوجي؛ الأمر الذى يفضى حتماً إلى التهميش والتبعية.

ومجتمع المعرفة هو الوليد الشرعى لثورة الاتصالات والمعلومات التى تحققت وتجسدت خلال العقدين أو الثلاثة عقود الأخيرة. وأفضت هذه الثورة إلى الثورة المعلوماتية التكنولوجية الآخذة فى التقدم فى تسارع مطرد. وحرى أن ندرك أن حيازة التكنولوجيا لا تصنع تطويراً أو تقدماً للمجتمع بل تبعية. والقناعة بالحيازة والاستهلاك لا تتولد عنها حاجة موضوعية للترجمة ونقل المعرفة سوى ما نراه من كتب عن إصلاح.. إصلاح الراديو، وإصلاح الكومبيوتر... إلخ على الرغم من تدنى مهارات الصيانة. وإنما التقدم الذى يحفز إلى نقل/ ترجمة المعارف العلمية رهن إبداع وتطوير واستثمار تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المنتجة للمعرفة والتى هى الوسط وآلية التفاعل والتنافس الكوكبى للمعرفة بين القوى الفاعلة، أى القوى الإنتاجية الإبداعية الحاضنة للمعرفة. وهاهنا تنشط الترجمة وعملية نقل المعرفة من شتى بقاع العالم استجابة لحاجة المجتمع.

ويمثل هذا التحول أزمة حقيقية وموضوعية تواجه البلدان العربية؛ مما يضعف شهيتها للمستحدث من المعرفة أو ضياعه بسبب عدم وجود بنية حاضنة تستثمرها. وجدير بالذكر أن البنك الدولى يشير فى تقريره

عن العام ١٩٩٨/١٩٩٩ الذى لايزال صادقًا إلى أهم القضايا التى تواجه البلدان النامية فى عصر ثورة الاتصالات والمعلومات فيوضح:

١ - طوفان المعرفة الجديدة والعجز عن الاستيعاب وعن احتضان هذا المستحدث فضلاً عن تناقضه مع منظومة العلاقات الاجتماعية فى هذه البلدان وتراثها وما تقتضيه المعرفة من حرية تدفق وتفاعل.

٢ - تسارع التقدم العلمى والتكنولوجى؛ مما يزيد هوة التخلف.

٣ - الزيادة المطردة فى المنافسة بين المجتمعات المتقدمة فى إبداع المعرفة وسرعة توظيفها. ويؤدى هذا أيضًا إلى تفاقم خطر ما اصطلح على تسميته الفجوة الرقمية.

معنى هذا أن المجتمع الذى عقد العزم على النهوض لابد وأن تتوافر لديه :

١ - صورة عن المستقبل وقدرة علمية عصرية على حشد الطاقات الاجتماعية للإنجاز.

٢ - نهم معرفى لتحصيل واكتساب المعارف المستحدثة عالميًا لتوظيفها محليًا أى ترجمتها واستثمارها قرين الإبداع المحلى استجابة لضرورة التطوير، فضلاً عن إعادة هيكلة البنية والعلاقات الاجتماعية ومضاعفة رأس المال البشرى.

ويعيدنا هذا إلى سؤالينا فى صدر هذا المقال :

ما نصيب العالم العربى من نقل المعرفة/ الترجمة؟

تشير جميع الإحصاءات والمقارنات مع بلدان العالم الأخرى إلى التدنى الشديد لما يسمى مجازاً نشاط الترجمة فى العالم العربى. ويتجلى هذا واضحاً سواء من حيث كم ونوع الترجمات، أو من حيث الميزانيات المالية المرصودة للترجمة، أو البحث العلمى واحتضان الثقافة العلمية والعلم، ناهيك عن غياب تام للتخطيط؛ إذ إنها ترجمات فردية وعفوية. يضاف إلى هذا شيوع نسب عالية من الأمية - الكتابة والقراءة - ناهيك عن الأمية الحاسوبية، وكذا استخدام الحاسوب يكاد يكون قاصراً على الأعمال الروتينية وليس لإبداع علمى وفكرى جديد. ونرى- لهذا- أن أزمة الترجمة فى العالم العربى هى أزمة كتاب وقارئ وسياسة ثقافة. وهذه جميعها أعراض لأزمة الثقافة والفعالية الإنتاجية والعلمية للمجتمعات.

ويضاعف أو يفاقم من هذا الوضع الغياب الكامل لمؤسسات ومنظومات صناعية تخلق الحاجة المتطورة إلى طلب المعرفة من مختلف مصادرها العصرية فى العالم، ناهيك عن الإسهام العالمى فى الإبداع للجديد.

وغنى عن البيان أن ليس بالإمكان نقل/ ترجمة المعرفة العلمية والتكنولوجية المتخصصة إلا بين منظومات صناعية؛ إذ يلاحظ أن جميع المؤسسات الصناعية فى العالم المتقدم تؤسس صناعتها على مراكز للدراسات والبحوث والتطوير العلمى وهى جزء متكامل مع المنظومة الإنتاجية. وغير خاف فى مقابل هذا أنه لم تؤسس أى دولة عربية منظومة للعلوم والتكنولوجيا تكون هدفاً ووسيطاً لتلقى المعرفة وتوظيفها

وتطويرها. وتسهم مثل هذه المؤسسات فى تنشيط تدفق المعرفة العلمية من مصادرها؛ مما يثرى الخبرة العلمية ويوفر مناخًا ثقافيًا علميًا. وتساعد هذه المنظومات على تطوير أدوات التعليم والتمويل والاكتساب والتطبيق والإنتاج والتراكم للعلوم والتكنولوجيا. وتسهم كذلك ماليًا فى تطوير التعليم وتنشيط حركة الترجمة التخصصية وتوجيهها ليكون لها مردودها الاجتماعى.

صفوة القول: إن مشكلة الترجمة فى العالم العربى هى تجسيد لأزمة التخلف العلمى والتكنولوجى والاجتماعى أى أزمة مجتمعات غير إنتاجية. وانعكس هذا واضحًا فى إنتاج المعرفة العلمية وفى التعليم والثقافة العلمية، وتجلى واضحًا فى الانصراف عن القراءة وعن الترجمة.

نعم توجد مؤسسات فردية تبذل جهدًا متميزًا للترجمة؛ مثل مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، أو المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى الكويت. وإذا كانت الجامعة العربية تدرك منذ سنوات خطر أزمة الترجمة وغياب البحث العلمى؛ فإنها أقدمت أخيرًا وأنشأت المعهد العالى العربى للترجمة فى الجزائر. وإذا كانت دولة الإمارات رصدت قدرًا كبيرًا من المال للترجمة والنشاط الثقافى؛ إلا أن هذه الجهود جميعها غير المترابطة تدعونا للسؤال:

أى نتيجة باهرة كنا نتوقعها لو أن هذا الجهد وهذا القدر الضخم من الأموال مرصود فى مجتمعات مؤسسية صناعية؟ وعلى أى نحو يا ترى ستجرى إدارة وتوظيف هذه الجهود لتصب متكاملة فى اتجاه بناء مستقبل جديد تتغير معه الثقافة السائدة ويصوغ رؤى جديدة على طريق التطوير..الطريق إلى مجتمع المعرفة؟

الترجمة عن العربية (التعجيم)

نعود لنقول: إن نقل المعرفة، بما فى ذلك الترجمة، التماس معرفة بهدف التفاعل الحضارى، أى لاستثمارها فى إطار استراتيجية إنجاز قومى محلى، على اختلاف مجالات أنشطة المجتمع: علمية، وثقافية وصناعية... إلخ. وإذ نقول: تفاعلاً حضارياً، فهذا يعنى الأخذ والعطاء معًا فى سياق من الوجود الشبكى لحضارة عصر المعرفة، على أساس من الكفاءة والندِّية، وضمانًا للاستقلال الذاتى، وتطويراً للهوية واللغة القومية. وحضارة العصر هى كما أشرنا العلم والتقانة فى سياق مجتمع المعرفة؛ ومن ثم لنحاول أن نستشرف الواقع العربى تأسيسًا على هذه النظرة، لنرى ماذا يأخذ وماذا يعطى، وقدرته على العطاء اتساقًا مع مستوى ومقتضيات حضارة العصر.

نلحظ بداية غيابًا كاملاً لأى دراسات أو بيانات إحصائية منهجية ونسقية عن نشاط الترجمة والمترجمين عن العربية، ولكن المراقب لما يجرى تحت هذا المسمى فى العالم العربى يرصد ما يلى - وإن بدا رصيداً يشوبه قصور للسبب المذكور:

الترجمة عن العربية تنهض بها :

(أ) مؤسسات أو دور نشر أجنبية.

(ب) مؤسسات إقليمية.

(جـ) مؤسسات حكومية ودور نشر محلية.

(أ) المؤسسات أو دور النشر الأجنبية . نذكر منها :

١ - الجامعة الأمريكية فى القاهرة : أصدرت عام ٢٠٠١ عدد ٢٦ عنوانًا؛ تأليفًا وترجمة، وأصدرت عام ٢٠٠٢ عدد ٢٠ عنوانًا؟ تأليفًا وترجمة. المؤلفات لأجانب، والترجمات شارك فى بعضها مصريون. وتدخل جميع الإصدارات ضمن مجال نقل المعرفة عن واقع عربى، وتشمل الترجمات أعمالاً أدبية وروائية أساساً، وقضايا فكرية واجتماعية أحيانًا.

٢ - مراكز دعم الأدب العربى والأفريقى : التى تتلقى دعمًا من الاتحاد الأوروبى، مثل : جمعية دعم الأدب فى ألمانيا، التى تصدر ترجمات لأعمال روائية عربية، وكذلك الجمعية الدولية SECUM ومركزها ميلانو، والمعنية بعلوم وثقافات البحر المتوسط؛ حيث شرق وجنوب المتوسط بلدان عربية.

٣ - مدرسة طليطلة فى أسبانيا : المعنية بترجمة أعمال عربية إلى الأسبانية وبالعكس، وجميعها دراسات تاريخية وأدبية.

٤ – مؤسسات رسمية أمريكية معنية بترجمة أعمال تراثية فى العالم العربى إلى الإنجليزية، وتضمينها بنوك المعلومات، وقد عهدت إلى مركز الترجمة والنشر بجريدة الأهرام بمثل هذه المهام.

٥ – حرى أن نذكر هنا اليابان والصين : أصدرت دور نشر فى اليابان عدداً من المترجمات الأدبية العربية، وبدأت الصين تهتم أيضًا بثقافة العالم العربى، وحرصت أكاديمية العلوم الاجتماعية بجامعة شنغهاى على ترجمة العديد من الأعمال الروائية والفكرية العربية، علاوة على "معجم الأدباء العرب"، لمؤلفين صينيين للتعريف بالأدباء والحياة الأدبية العربية، وأنشأت الصين منذ عام مركز دراسات الشرق الأوسط.

٦ – مجلة بانيبال : بريطانية ، صدرت ١٩٩٨، وتخصصت فى التعريف بالأدب العربى (الحياة ٢٣/١١/٢٠٠٢).

٧ – السويد ، حركة الترجمة الجديدة : وتمثل مدرسة حديثة العهد منذ خمس سنوات. وعدد المترجمين عن العربية إلى السويدية حوالى أربعة مترجمين غير متفرغين. ولا تزيد الأعمال المترجمة عن خمسة أعمال روائية كل عام، وبعضها ترجمة غير مباشرة، كما يقول الدكتور تتس روك المستعرب، وأستاذ اللغة العربية، والمترجم بجامعة أوسلو.

(ب) مؤسسات إقليمية (على سبيل المثال لا الحصر) :

١ – المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو) : وتضم قسمًا خاصًا بالترجمة. ومقرها الرباط، وأنشئت تنفيذًا لتوصيات

مؤتمر قمة الدول الإسلامية المنعقد فى فاس عام ١٩٨٢. وتعمل على نشر الثقافة الإسلامية، وتصدر مجلة "الإسلام اليوم" باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، وتنهض بترجمة بعض الكتب التى تخدم الثقافة الإسلامية من العربية إلى لغات أخرى.

٢ - مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود : مقرها الدار البيضاء. وتمولها المملكة العربية السعودية. وتصدر عنها بعض الترجمات عن العربية لخدمة العقيدة. عملت منذ أول التسعينيات على تأسيس شبكة للترجمة والنشر بالاشتراك مع معهد العالم العربى فى باريس، وقسم الترجمة التابع للبعثة الفرنسية للبحث والتعاون بالقاهرة. وضعت خطة فى منتصف التسعينيات تهدف إلى توسيع الشبكة باسم "المبادرة الأوروبية العربية للترجمة". وكان الهدف التعاون مع الجهات المعنية بالترجمة من اللغة العربية وإليها على صعيد أوروبا والعالم العربى..."، وتقول د. الحبابى تعقيبًا على هذا : "ولكن المؤسف له أن كل ذلك بقى حبرًا على ورق".

٣ - جامعة الدول العربية : تصدر وثائق، ومجلات، وكتبًا وثيقة الصلة بالقضايا العربية.

(جـ) مؤسسات حكومية ودور نشر محلية. نذكر من بينها :

١ - مجمع البحوث الإسلامية فى مصر : يصدر دراسات وكتبًا عن العقيدة للمسلمين فى غير البلدان العربية.

٢ – الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة : وتصدر ترجمات أدبية وسياسية لكتاب مصريين.

٣ – المكاتب الإعلامية التابعة لوزارات الخارجية أو الدواوين الملكية والرئاسية : وتعنى بترجمة خطب وأحاديث الملوك والرؤساء وسيرهم الذاتية، وتصدر مجلات أو كتبًا عن الاتصالات والعلاقات مع الدول الأخرى أو للتعريف بالبلاد.

٤ – بيت الحكمة في تونس : تأسس ١٩٨٢ ويقول د. عبد اللطيف عبيد إنه "أصدر ما يزيد على ٩٠ كتابًا منها ٢٣ كتابًا مترجمًا عن العربية وإليها.. من بينها ١٩ كتابًا معربًا" (أى أربعة كتب معجمة وهى من الأدب التونسى) ص ١٠، ويذكر أيضًا أن دراسة عبد الوهاب الدخلى (١٩٨٥) تشير إلى أنه بلغ عدد النصوص المترجمة من الأدب التونسى الحديث والمعاصر إلى اللغات الأخرى ٦٤٥ نصًا، تتراوح ما بين نص نثرى أو شعرى قصير أو مجموعة مختارات، ولا يزيد عدد الكتب عن ١١ عنوانًا ص ١٢ .

٥ – الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض : تهتم بترجمة الكتب المختصة بالعقيدة الإسلامية الموجهة لغير العرب من المسلمين.

٦ – رابطة العالم الإسلامى : مقرها مكة، تهتم بترجمة الكتب والبحوث التى تهم الشعوب والأقليات المسلمة فى غير البلدان العربية.

٧ – منظمة المؤتمر الإسلامى، والمؤسسات المنبثقة عنها : مقرها جدة، ولها إصدارات تربوية ودينية بلغات عدة.

٨ – الندوة العالمية للشباب الإسلامى : مقرها الرياض .

٩ – مكتب التربية لدول الخليج : عقد اتفاقات مع منظمات دولية، وبعض دور النشر العالمية، واتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة، لترجمة كتب دينية إلى اللغة الإنجليزية (دراسات عن واقع الترجمة فى الوطن العربى ص ٢٢٨).

فلسطين

حرى أن نخص بالذكر نشاط الترجمة عن العربية لدى أبناء فلسطين. يشير د. حسام الخطيب فى "دراسات عن واقع الترجمة" ص ٦٤ – ٨٣ إلى أن الفلسطينيين لهم جهد مميز فى مجال الترجمة عن العربية، لعرض قضاياهم وثقافتهم بلغات أجنبية، على الرغم من حالة الشتات. ويقول : على الرغم من النكبة وعدم توافر أجهزة ومؤسسات للترجمة، فإن هذا لم يمنع ظهور حركة ترجمة موازية للحركة النضالية؛ للتعريف بقضايا وآداب الشعب الفلسطينى ، ويشيد بدور الشاعرة الباحثة المترجمة سلمى الخضراء الجيوسى، صاحبة مشروع "بروتا" الذى تولى نقل روائع التراث العربى، ماضيه وحاضره، هذا علاوة على جهود نقل الشعر، والنتاج الأدبى الفلسطينى إلى لغات أخرى عديدة.

المغرب العربى

من الأهمية بمكان إضافة كلمة ذات دلالة عن وضع متمايز للمغرب العربى فى مجال الترجمة عن وإلى العربية؛ إذ تعانى بلدان المغرب العربى من أزمة ثنائية أو ازدواجية اللغة. ويقول شحادة الخورى "دراسات" ص ١٣٨ : "إن ازدواجية اللغة (أى العربية والفرنسية فى التعليم والتأليف والصحافة) أثرت تأثيراً فعالاً على حركة الترجمة، فأبطل الشعور بالحاجة إليها". ويبلغ إجمالى الكتب المطبوعة فى المغرب عام ١٩٨٠ : عدد ٢٥٣ كتابًا بالعربية، و ٢٠٠ كتاب بالفرنسية، وفى عام ١٩٨٣ : ١٢٣ كتابًا بالعربية و١٠٢ كتاب بالفرنسية. ويضيف أن الكتاب والمثقفين يفضلون الكلام والكتابة بالفرنسية. (وطبيعى أن يدخل هذا ضمن نقل المعرفة والثقافة العربية بلغة غير العربية).

وتقول د. الحبابى فى هذا الصدد : "الترجمة تتم عمومًا من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية...".

وتضيف : "ترجمة الإبداعات الروائية غالبًا ما تتصدى لأعمال حديثة الصدور"، و"إن ما يترجم فى كثير من المجالات الأخرى قد تفصله عن تاريخ صدوره سنين، بل قرون (مثل ترجمة نقد الشعر عند العرب لمؤلفه الطرابلسى). وتستثنى من هذه الظاهرة المحاضرات الرمضانية السنوية التى تلقى فى شهر رمضان فى حضرة صاحب الجلالة الملك... وتترجم إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية، وتمثل وحدها كمية

مهمة مما يترجم فى مجال الفكر والدين الإسلامى، كما تستثنى من ذلك الخطب السياسية الملكية وخطب بعض القيادات الحزبية والسير الذاتية السياسية"، ص ٩٨ – ٩٩. وتشير إلى وجود بيوت معنية بترجمة الثقافة العربية مثل : بيت آل الحبابى ، الذى عنى بنقل كتب فلسفية، وأدبية، ودواوين شعرية من اللغة العربية إلى الفرنسية، ص ٧١ .

ونقرأ فى هذا الشأن للدكتور عبد اللطيف عبيد ما يلى :

"وتتصف الوضعية اللغوية فى تونس بالثنائية التى تهيمن ضمنها اللغة الأجنبية (الفرنسية أساسًا) على اللغة العربية، وتستأثر دونها بالمجالات الحيوية فى التعليم والإدارة والاقتصاد؛ إذ تستخدم الفرنسية فى تدريس المواد العلمية والتقنية، وفى تدريس التخصصات العلمية والهندسية ... إلخ". ويضيف : "إنه لمن الجائز القول : إن الثنائية اللغوية فى تونس قصرت استخدام العربية كليًا أو غالبًا على المجالات السياسية والدينية والأدبية، وعلى الإعلام والثقافة الجماهيرية... فى حين استأثرت الفرنسية بالمجالات العصرية. "ثم يستطرد قائلاً : "وإن فرض اللغة الفرنسية فى التعليم، واحتكارها للتعبير العلمى – يجعلان من الترجمة عملاً لا جدوى من ورائه ص٢ .

الخلاصة :

نخلص مما سبق إلى ما يلى :

يدور نشاط الترجمة عن العربية فى المجالات التالية حصراً :

١ - الهم الأول ترجمة خطب وأحاديث الملوك والرؤساء وسيرهم الذاتية .

٢ - نشر العقيدة وتأكيد الصلات بين المسلمين فى مختلف بلدان العالم.

٣ - ترجمة أعمال أدبية من شعر أو قصص أو تراث.

ويبين جليًا أن العطاء العربى (النقل المعرفى) محصور فى نطاق إفادة الغرباء بحياة الملوك والرؤساء، أو اطراد رسالة إبلاغ العقيدة؛ فهذان هما الهم الأول الذى يستوعب جل الجهد، ثم يليهما بمسافة أو مسافات نقل دراسات تراثية تاريخية وأعمال أدبية، ولا شىء بعد ذلك من المعارف العلمية.

والسؤال : ماذا لو تأملنا هذا الوضع الذى نسميه تجاوزًا "العطاء المعرفى العربى للعالم" فى ضوء تعريفنا لمعنى نقل المعرفة؛ تأسيساً على السياق الكوكبى، أى فى عصر المعلوماتية، ونشوء مجتمعات المعرفة، وثورة العلم والثقافة؟ وماذا لو تأملنا واقعنا المعرفى العربى من منظور الواقع المعرفى الشبكى، والمشاركة الإيجابية فى المعرفة على الصعيد

الكوكبى، وإلى أى مدى تتوافر لنا مؤهلات؛ لكى نسهم كطرف منتج فى حوار علمى ثقافى مؤسسى كوكبى، شرطه إبداع جديد، واستثمار هذا الجديد، وتمكين للمجتمع وللإنسان فى مناخ من حرية المعرفة والتفكير والإبداع؛ من أجل اطراد التقدم والتغيير والمنافسة، وتجنبًا لهيمنة الآخر؟

إن عطاءنا من احتياجات ومقتضيات عصر العلم والثقافة صفر. هذا على عكس الحال حين ينهل الغرب بنهم شديد فى مطلع نهضة علوم العرب الأسبقين؛ إذ كانت علومهم دعامة لحركته، وخطوة على درج سلم ارتقى به مدارج حضارة، بلغت عصر الصناعة ثم المعلوماتية.

نقل المعرفة والترجمة
فى العالم العربى

تعريف :

الترجمة التماس معرفة وتفاعل حضارى، عن طريق النقل البشرى أو الآلى من لغة إلى لغة تحريرياً أو شفاهيًا، وبهدف معرفى علمى وثقافى، أو بهدف مهنى مثل : ترجمة الرسائل والخطب والنشرات... إلخ، ونقل المعرفة أوسع وأشمل؛ إنه التماس معرفة بوسائل عديدة متباينة من بينها الترجمة، وقد يكون من خلال المشاركة فى المؤتمرات استضافة أو ضيافة، والعلاقات الشخصية بين العلماء والتقانيين، واللقاءات المباشرة أو عبر الشبكات (الإنترنت). وقد يكون من خلال جهود البحث، وهى جهود تعتمد على الإبداع العلمى التقانى الذاتى، مع الإفادة بحصاد خبرات الآخرين، خاصة وأن الإنجاز العلمى التقانى لم يعد محليًا، بل عالميًا وشبكيًا مؤسسيًا، معتمداً فى تطوره المطرد على التغذية والتغذية المرتدة بين إنجازات المجتمعات فى العلم والتقانة. وقد يكون نقل المعرفة من خلال الدراسة فى جامعات الخارج، أو تبادل البعثات والمنح، أو التأليف المشترك بين أساتذة الجامعات. وقد يأتى نقل المعرفة استراقًا من رصيد يحرص صاحبه على الاحتفاظ به سراً؛ لأنه مصدر هيمنة وقوة علمية أو تقانية، وهذه من مهام حرب الذكاء. وقد يأتى عن طريق استنزاف العقول، على نحو ما نرى من جهود البلدان المتقدمة فى

جذب عقول متميزة من أبناء البلدن النامية، أو على نحو ما فعلت الولايات المتحدة فى أعقاب الحرب الثانية من جذب العلماء الألمان، أو فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى السابق من جذب العلماء السوفيت الذين استهوتهم الولايات المتحدة وإسرائيل وغيرهما.

وهنا تنقسم المجتمعات إلى مجتمعات جاذبة للعقول وأخرى طاردة. ونشهد اليوم نقل المعرفة وتبادلها عبر الإنترنت، أو طريق المعلومات فائق السرعة، الذى يستلزم توافر مؤهلات للتمكين من المشاركة والاستفادة معًا، مثل : مستوى ونوع التعليم، وحرية التعبير، والقدرة على الاستيعاب، وقيام مجتمع نهم للمعرفة واستثمار الجديد، وقدرة على التعلم مدى الحياة.

ويمثل نقل المعرفة – بما فى ذلك الترجمة – رصيدًا استثماريًا وإبداعيًا، بما يضيفه ويهيئه من فرص لتجديد البنية الذهنية للفرد وللمجتمع، وما يهيئه من قيمة جديدة وفكر جديد للمجتمع، وطاقة جديدة للتمكين وممارسة النفوذ، واطراد عملية التحديث. وكذا فرص جديدة للاستيعاب والعطاء فى إطار المشاركة المعرفية الكوكبية، عبر شبكة الاتصالات الكوكبية التى هيأتها ثقافة الاتصالات، وللتأثير المتبادل دون التأثر سلبًا فقط حين يجف نبع العطاء. وأدت عملية نقل المعرفة وتبادل الآراء والحوارات عبر شبكة الاتصالات الكوكبية إلى نشوء مجتمعات افتراضية، أضحت تشكل قوة تأثير على نحو ما حدث فى سياتل وغيرها من جانب المناهضين للعولمة، علاوة على ما حققته من مضاعفة الشفافية فى نقل المعلومات عن المجتمعات دون اعتبار للحدود والقيود.

وتمثل المعارف والثقافات فى جميع الأحوال قاسمًا مشتركًا، وهدفًا إراديًا منشودًا لاستثمارها وفاء لحاجة مجتمعية، وإن تنوعت آليات التحصيل. ونقصد بالمعرفة مرحلة تتجاوز مرحلة المعلومات والبيانات، إنها بناء نسقى منهجي وهادف من المعلومات، صاغه المجتمع فى ضوء تجاربه وخبراته وثقافته وحاجاته الراهنة والمستقبلية؛ ليكون أداة تكيف فاعلة في علاقاته الاجتماعية الداخلية، وفى تفاعله الأيكولوجى، وعلاقاته مع المجتمعات الأخرى.

وترصد جميع الأمم على مدى التاريخ جهود المحيطين بها، والمنافسين لها، أو المتصارعين معها. ويحرص البلد الناهض على استيعاب جهود الآخرين، وتمثل الإيجابى منها، ضمن جهوده الهادفة إلى التفوق؛ ضمانًا وأمانًا لوجوده المادى والفكرى. وإن تَمَثُّلَ المعرفة الإبداعية المتجددة والمتفاعلة مَعْلَمٌ على قدرة المجتمع على التفكير والتحليل وفهم الأوضاع، والتى بدونها يكون التخلف والضياع. والمعرفة منذ البدء هى وليدة فعل ونشاط الإنسان/ المجتمع وتفاعله لإنتاج وجوده؛ وهى بذلك شرط اطراد وجود تقدم الإنسان/ المجتمع. غير أن المعرفة تحتل اليوم صعيدًا أرقى، وباتت مصدر تمكين ومنافسة فى سياق كوكبى، وهى ثروة المجتمع وعماد إنتاجه، وفائض قيمة المعرفة هو رصيد البناء والتطوير، وتراكم أو تنامى رأس المال الاجتماعى البشرى. وجدير بالذكر أن المعرفة الإبداعية لا حدود لها، فهى إنتاج متجدد متسارع، إنها رسملة الثروة المعرفية، وبدونها يؤول المجتمع إلى نكسة متسارعة فى سياق التنافسية الكوكبية.

ويقول فى هذا الصدد مانويل كاسل فى سفره المرجعى: "عصر المعلومات: "وفى نمط التطور المعلوماتى الجديد يتمثل مصدر الإنتاجية فى ثقافة توليد المعرفة، ومعالجة المعلومات والاتصال الرمزى. حقًا إن المعرفة والمعلومات عنصران حاسمان فى جميع أنماط التطوير؛ نظراً لأن عملية الإنتاج تعتمد دائماً وأبداً على مستوى ما من المعرفة ومعالجة المعلومات. ولكن ما يميز نمط التطور المعلوماتى هو تأثير المعرفة على المعرفة نفسها كمصدر رئيسى للإنتاجية. وتتركز عملية معالجة المعلومات على تحسين تقانة معالجة المعلومات كمصدر للإنتاجية فى دوائر تفاعل متباينة ، بين مصادر معرفة التقانة واستخدام التقانة لتحسين توليد المعرفة، وتحسين عملية معالجة المعلومات".

صفوة القول: ثمة معايير جديدة خلقها مجتمع المعرفة لتقدير القيمة التنافسية بين المجتمعات من ذلك: براءات الاختراع، والبحوث، والتطوير، وتوافر عمالة المعرفة. والمعرفة فى جميع الأحوال هى معيار التقييم والتقسيم بين المجتمعات، وهى قوة الإنتاج ومناط الفائض، وقاطرة التقدم، وأداة الهيمنة، وعماد المنافسة؛ ومن ثم فإن المجتمعات المهمشة الآن، أو مستقبلاً، هى المهمشة معرفياً، أى أرادت لنفسها ذلك بسبب تقاعسها؛ لأن المعرفة لا حواجز تحول دون إنتاجها وتحصيلها ونقلها سوى حواجز ذاتية.

السياق الكوكبى

الحديث عن النشاط الاجتماعى لنقل المعرفة، بما فى ذلك الترجمة، لا يستقيم دون الإشارة إلى السياق الكوكبى الذى يمثل فى آن واحد بيئة صراع وتحد، وبيئة للفعل الاجتماعى لنشاط المعرفة، فى تكامل أو تباين مع السياق المحلى؛ تأسيساً على المقارنة بين مستويات الفعل هنا والفعل هناك، والتفاعل وبيان أوجه القصور أو التميز؛ ومن ثم طبيعة التحديات ومؤشرات الحركة.

وإذا كانت المقارنة ضرورية لتعرف الذات موقعها من الآخر ، ودفع خطوها فى تفاعلها وتنافسها مع هذا الآخر، ومن أجل بناء نفسها وتصحيح أوضاعها الذاتية - فإنها الآن أكثر ضرورة فى ظل شرط وجودى عالمى جديد، تداخلت فيه العلاقات بين الأمم والجماعات والأفراد، بحيث يقال: إن الوجود الاجتماعى على الصعيد العالمى وداخل المؤسسات وفيما بينها أضحى وجوداً شبكياً؛ ومن ثم لا يمكن لمجتمع أن يبنى ذاته تأسيساً على رصيده الذاتى أو بمعزل عن الآخر أو عالة عليه، مستهلكاً للفكر والعلم والتقانة.

لقد تحولت الاقتصادات الكوكبية المتقدمة إلى اقتصادات معرفة، وأضحى الكوكب بؤرة تواصل متداخل، وتشارك وتقاسم للمعرفة فى سياق تفاعل وتنافس محلياً وعالمياً. وتمثل المعرفة بذلك مصدر ثروة عالى القيمة للغاية، يتعين حيازته وإحراز السبق فيه والسيطرة عليه؛ لمنافعه الاقتصادية، وضمان أمن واطراد الوجود المجتمعى.

وإن نقل المعرفة والترجمة بالمعنى الذى أسلفناه، وباعتباره الوجه المتكامل مع الإبداع المحلى للمعرفة - يمثل مؤشراً على موقفنا من المعرفة، لكى نقارن بين حالنا وحال غيرنا ممن يخطون على عتبة عصر جديد .. عصر الثورة المعرفية أو مجتمع المعرفة.. عصر يمثل طوراً جديداً فى سلم التطور الارتقائى للبشرية، يكاد يماثل مرحلة اختراع الكتابة، وستكون له تجلياته الفيزيقية والعصبية والنفسية والاجتماعية. طور ربما يكون حداً فاصلاً بين نوعين من البشر، بحيث يخلف وراءه من هم أدنى مستوى، وأعجز عن الملاحقة والتكيف.

وإذ تقف البشرية المتقدمة والناهضة على أعتاب عصر الثورة المعرفية؛ فإنها بصدد تشكل ما يمكن أن نسميه بعداً كوكبيًا إضافيًا للذاتية المحلية، أى ذاتية كوكبية مضافة، تتحدد معالمها ومكوناتها أكثر فأكثر، وتتفاعل مع ما هو محلى من خلال الاتصال عبر اللغات والثقافات، والتفاعلات فى مجالات العلم والتقانة والاقتصاد والفكر. قد تكون الذاتية المضافة تهجيناً وثمرة تفاعل يفضى إلى ظهور أنماط جديدة من الأفكار، وقد تكون هيمنة تصل إلى حد الطمس لثقافات اجتماعية جفت ينابيعها، أو جهود أصحابها عن العطاء. وهكذا تفرض الذاتية الكوكبية أبعاداً وأطراً جديدة للصراع الأبدى بين المجتمعات على الأصعدة الثقافية والاقتصادية. وتدور هذه الأبعاد الآن حول محور المعرفة. أو الكثافة المعرفية إبداعًا واستثماراً وفائضًا.

يعيش العالم اليوم صراعًا محمومًا تقوده تقانة الاتصالات والمعلومات من أجل سرعة إنتاج واستثمار المعلومات والسيطرة عليها، باعتبار المعلومة مادة وهدفًا استراتيجيًا شأن الطاقة. ويتجلى الصراع في جهود البحث العلمي والتطوير، والذى يعنى كما تشير مقدمة الكتاب السنوى لليونسكو: "الأنشطة المنهجية والإبداعية التى تمارس بغية زيادة رصيد المعارف، بما فى ذلك المعارف الخاصة بالإنسان والتقانة والمجتمع، واستخدام رصيد المعارف هذا لابتكار تطبيقات جديدة. ويشمل نطاق البحث العلمى والتطوير التجريبى البحوث الأساسية (أى الأنشطة النظرية والتجريبية التى تجرى بدون هدف تطبيق عملى مباشر). كما يشمل البحوث التطبيقية فى مجالات كالزراعة والطب والكيمياء والصناعة... إلخ (أى الموجهة أساسًا نحو هدف عملى محدد)، وكذا أنشطة التطوير التى تؤدى إلى استحداث أنظمة وطرائق ومنتجات جديدة".

وينفق العالم سنويًا على البحث والتطوير أكثر من ٥٠٠ مليار دولار، ويعمل فى هذا المجال ٤,٣ مليون باحث. وتخصص البلدان الصناعية حوالى ٣٪ من إجمالى الناتج الوطنى للبحث والتطوير. وينتج هذا رصيدًا متزايدًا من المعرفة العلمية، ويمثل هذا الجهد مجال المشاركة الكوكبية فى المعرفة. وتطمح كل البلدان المتقدمة والناهضة إلى استيعاب هذا الكم المتزايد من المعلومات من مصادر المنشأ عن لغته الأصلية. وتمثل اللغة الإنجليزية قرابة ٨٥٪ من جملة هذا الرصيد

العلمى التقانى. وهنا تبدو الترجمة بالنسبة للمجتمعات العربية تحدياً ثقيل الوطأة، ومطلباً حيوياً يستلزم تنظيم وتخطيط الجهود على الصعيد العربى كله، فى إطار استراتيجية عربية متكاملة وطموحة تشمل التعليم والإدارة والاقتصاد... إلخ، وإعادة هيكلة اجتماعية. وسوف يبين خطر هذه المهمة حين نعرض إحصاءات الترجمة العلمية وجهود البحث العلمى العربى.

وتبدى الدول المتقدمة والناهضة اهتماماً كبيراً بنقل المعرفة وبالترجمة من شتى مصادرها، ولا تقتصر الجهود على الجديد والحديث من المعارف، بل وأيضاً القديم والتراثى، ليكون البلد المعنى موسوعة ومرجعاً كبنك معلومات ومصطلحات. وهذا ما تفعله الولايات المتحدة تحديداً. وظهرت شركات تخصصت فى الترجمة، علاوة على جهود المؤسسات الرسمية مثال ذلك : شركة بريطانية تحمل اسم Wordbank، ويعمل لديها وحدها ٥٥٠ مترجماً محترفاً. وتقدر مجلة نيوزويك كلفة الترجمة عام ١٩٨٩ بمبلغ ٢٠ مليار دولار. ويصدر العالم سنوياً أكثر من مائة ألف عنوان مترجم. وجاوزت جملة الإصدارات تأليفاً وترجمة ٨٣٠ر٠٠٠ عنوان سنوياً.

وجدير بالذكر أن اليابان مع مطلع نهضتها فى عصر "الميجى"، حرصت على نقل جميع المعارف العلمية والثقافية إلى اليابانية، علاوة على إيفاد البعوث من الطلاب النابهين، لتحصيل علوم الغرب المتقدم والعودة إلى اليابان، حيث المجتمع يعيش نهضة حقيقية تمثل الخريجين

مجالاً حيوياً لتوظيف واستثمار معارفهم. قررت اليابان آنذاك أن العلم أداتها للنهوض، شريطة أن تمتلك ناصيته بحثًا وتجريبًا. ولذلك عنيت بتعليم اللغات الغربية، وتهيئة مناخ تنمية الإبداع من خلال التنشئة الاجتماعية فى البيت والمدرسة والمجتمع. واقترنت جهودها بنهضة تعليمية ودستورية شاملة لصناعة عقل جديد. وأصابت اليابان آنذاك - ولا تزال - حمى التهام علوم وثقافة الغرب. لم يكن منطقها محاكاة الحداثة الغربية، بل استيعاب علوم الغرب من موقع المنافسة والندية لتحديث اليابان. وأقيمت فى بداية عصر "الميجى" المؤسسة الهولندية التى اضطلعت بأعباء إنشاء حركة ترجمة واسعة النطاق، وعقدت اليابان اتفاقات مع كبرى دور النشر العالمية لإصدار طبعة باللغة اليابانية من إصداراتها العلمية حال صدورها بلغتها الأصلية. ويقدر عدد العناوين المترجمة آنذاك ١٧٠٠ عنوان سنوياً.

ويقول الدكتور محمد إسماعيل صالح (الصينى) - الأستاذ بجامعة الملك سعود - : إن اليابان تترجم سنوياً ٣٠ مليون صفحة. كذلك الحال بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التى تحرص على أن تكون هى بنك المعلومات الكوكبى والمرجع. وعلى الرغم من أن قرابة ٨٥٪ من الإنتاج العلمى العالمى باللغة الإنجليزية؛ فإننا نجد الولايات المتحدة حريصة على ترجمة كل شاردة وواردة من المنشورات العلمية، علاوة على ترجمة الرصيد الثقافى لحضارات العالم. ويشير الدكتور الصينى إلى أن قسم الترجمة التقنية الأجنبية التابع لسلاح الجو الأمريكى قد ترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٨٧ ما بين ٧٠ و ٧٥ ألف صفحة. كذلك إدارة

الخدمات المشتركة الخاصة بالمنشورات البحثية - وتتبع المكتب الفيدرالى للمعلومات العلمية والتقنية فى وزارة التجارة الأمريكية - ترجمت فى النصف الأول من العقد السابع ٤٤٩ر٢٧٣ صفحة، ويعمل لديها ٣٣٠ مترجمًا فى المتوسط. ويذكر أن هاتين هيئتين من بين آلاف الهيئات والمؤسسات الأمريكية العامة والخاصة. وأصدرت المؤسسة الوطنية للعلوم NSF فى واشنطن نسخة ببليوجرافية للمواد العلمية المترجمة تحت عناوين بحوث وكتب تقع فى ٤٧ صفحة لعام واحد ١٩٧٨/١٩٧٩ ص ١٣٩ - ١٤٠ .

وإذا ألقينا نظرة على نمور شرق آسيا نجد أن تكثيف الجهود لدعم البحث والتطوير وراء نجاحها؛ إذ خططت ماليزيا ١٤٨ مليون دولار فى الخطة الخمسية ١٩٨٦/١٩٩٠، لتمويل مشروعات البحوث والتطوير، و٢٢٢ مليون دولار فى الخطة السادسة. ويمثل الإنفاق على البحوث والتطوير أكثر من ١٪ من إجمالى الناتج المحلى. وحرصت سنغافورة على تعزيز أنشطة البحوث والتطوير لدعم القدرة الإنتاجية لتصدير المعرفة التقانية وتطوير الميزة التنافسية. وتنفق سنغافورة نحو ٤ر٣ مليار دولار أمريكى على تقانة المعلومات فى مجال التعليم. وتنفق كوريا الجنوبية على البحوث والتطوير ٢٪ من إجمالى الناتج المحلى.

وتدمج نشاط البحوث والتطوير فى اقتصادها الصناعى بحيث إن كل مجمع صناعى (شيبول) يضم مركزًا متقدمًا للبحوث والتطوير. (د. محمود عبد الفضيل، العرب والتجربة الآسيوية).

وحرى أن نلقى نظرة على تجربة إسرائيل فى مجال الترجمة والعلم والتقانة؛ لتكون النظرة سبباً لشحذ الهمم. أدرك الصهاينة من قبل نشأة إسرائيل دور المعارف العلمية والتقانية وضرورة توطينها لضمان وجودها. وأنشأوا فى حيفا عام ١٩١٢ المدرسة التقنية العليا "التخنيون". وأقاموا عام ١٩٣٤ معهد "دانييل زيف" للأبحاث العلمية. وفى عام ١٩٤٦ تم وضع حجر الأساس لمعهد "وايزمان للعلوم"... إلخ. وأسست إسرائيل منذ عام ١٩٥٦ مؤسسة "البرنامج الإسرائيلى للترجمة العلمية"، وتعتبر من أهم مؤسسات الترجمة العلمية، تعتبر من أهم مؤسسات الترجمة فى العالم الآن. وكان لديها عام ١٩٦٧ عدد ٢٥٠ مترجماً متفرغاً، و ٤٤٠ مترجماً نصف الوقت، وحوالى ١٠٠٠ مترجم من الخارج. وتنتج المؤسسة وحدها أكثر من مائة ألف صفحة مترجمة سنوياً، وتنشر حوالى ٢٠٠ كتاب جديد سنوياً. وتضم الآن أكثر من ٥٠٠ مترجم متفرغ بينهم عدد كبير من العلماء. وبلغت ميزانيتها عام ١٩٦٠، ٣٠٠ مليون دولار، تضاعفت الآن عشر مرات. (د. صفاء عبد العال محمود، التعليم العلمى والتقانى فى إسرائيل). وتخصص إسرائيل ٢ر٢٪ من إجمالى الدخل القومى للبحوث والتطوير، وترسل علماءها إلى جامعات العالم المتميزة فى تخصص ما، فى إجازات تفرغ دراسية دورية مدتها أربع سنوات، لاستيعاب إنجازات الخارج. وتوجه الدعوات لعلماء الخارج للتدريس فى جامعاتها بشكل دورى.

الواقع العربى

إن وصف مجتمع ما بالتقدم أو التخلف لا يكون ضربًا من أحكام القيمة، أو الانحياز تفاؤلاً أو تشاؤمًا - إذا استند إلى إحصاءات مقارنة مصدرها منظمة دولية. والدفع بأنها إحصاءات معيبة أو قاصرة حجة مردودة؛ ذلك لأن منظمة اليونسكو استقتها من البلدان المعنية.

ولكن وجه القصور هذا أن البلدان صاحبة الشأن قصرت فى إعداد إحصاءات مدققة، ولا تلتزم منهجًا علميًا فى المتابعة الإحصائية لأنشطتها، ييسر لها صوغ نظرة نقدية تحدد وقع خطواتها على طريق التطوير.

إذ المقارنة المستمرة بين الذات والآخر هى العين الناقدة، والضوء الهادى لخطى المجتمع فى سباق الصراع أو التنافس الكوكبى. وإبراز جانب التخلف ليس مدعاة للإحباط؛ بل دافعًا لشحذ الهمم وقبول التحدى. هذا كان حال اليابان مثلاً عقب هزيمتها على يد الجنرال بيرى؛ إذ بحثت عن أسباب الغلبة، وعرفت أن السر فى امتلاك العلم والتقانة، والنظرة المؤكدة أن الصراع أو التنافس مكون رئيسى للحياة داخل المجتمعات وفيما بينها، والسياسة العلمية الحكيمة هى الفهم والتحليل ورسم منهج العمل مع قبول التحدى. ولكن المجتمع الذى يقنع راضيًا بذاته وبالموروث التاريخى، دون ملاحقة نقدية على أساس من المقارنة والمنافسة مع المجتمعات الأخرى - يضيع من أقدامه الطريق، وتخفى عنه الحقيقة، وتصدمه وقائع الأرقام، فيكذبها سعيًا إلى تطويع الواقع قسرًا؛ ليتلاءم مع فكره الانفصامى.

الترجمة فى التاريخ العربى الحديث موقف ثقافى اجتماعى من المعرفة، إنتاجًا وإبداعًا وتحصيلاً واستثمارًا. فالترجمة كنشاط اجتماعى هادف لاتزال قضية خلافية؛ هناك من يراها تغريبًا للمجتمع أو صرفًا للأذهان والوجدان عن علم نافع، وهناك من يراها حقًا للمجتمع فى أن ينهل ما شاء من علوم الآخرين بحرية وعقل ناقد، وفاء لحاجات اجتماعية، وأداة تكميلية للتطوير والتغيير.

والقضية في ضوء واقعنا وتحدياتنا يجسدها السؤال التالى : ما نصيبنا من الفكر العلمى أخذًا وعطاءً، وكذا التفكير العلمى المنهجى؟ وما نصيبنا من ترجمة الفكر العلمى ودوره الفاعل فى حياتنا، وليس فقط نصيبنا من الإنجازات التقانية، التى هى وجه مكمل ومتكامل مع إبداع الفكر العلمى. وإنما قنعنا باستيرادها سلعًا استهلاكية، وهكذا وكأن الحداثة حيازة، وليست توطينًا وتطويرًا للعلوم والتقانة. وكيف يجرى اختيار هذا النصيب؟ هل من أساس نسقى، أم اختيارات فردية عفوية؟ وهل الفكر العلمى المترجم - إن وجد - يمثل ركائز علوم العصر الأساسية والتطبيقية، ويجسد دعامة أساسية فى بنية تنموية استراتيجية، ورؤية مستقبلية لمجتمعاتنا العربية؟

بدأ تاريخ الترجمة فى العصر الحديث انطلاقًا من مصر ولبنان مع اختلاف الحوافز والدوافع والمسار. بدأت فى لبنان ضمن جهود المحافظة على اللغة العربية ضد حركة التتريك العثمانية، وبدأت الترجمة فى مصر فى عهد محمد على، وأخذت صورة تيار اجتماعى نشط. واستطاع

الشيخ رفاعة الطهطاوى أن يجعل الترجمة مؤسسة اجتماعية تساهم فى إنجاز مشروع قومى اجتماعى لتحقيق نهضة فى العلوم والصناعات؛ ومن ثم نقلة تطويرية لمصر إلى عصر جديد. ولكن تعثر النشاط وانحسر، بعد أن أصابت النهضة انتكاسة، بسبب الدور الاستعمارى الغربى والنظم الاستبدادية الأوتوقراطية فى الداخل، واطراد نظم اقتصاد الريع المحافظ بطبيعته.

والملاحظ أن أى محاولة لاستكشاف الجهد العربى المعاصر فى مجال الترجمة، من حيث الكم والنوع، تصطدم بعقبة غياب الإحصاءات أو تشوشها وعدم دقتها. مثال ذلك: أصدرت الهيئة العامة للكتاب فى مصر فهارس تعريف بالإصدارات تحت عنوان "الثبت الببليوجرافى للمؤلفات والمترجمات، وجملتها خمسة: من ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٧، ثم الأعوام ١٩٧٩ و ١٩٨٣ و ١٩٩٠ و ١٩٩٣ ثم توقفت. وجميعها سرد للعناوين المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينيات، وتكرارها فى السنوات التالية دون تخصيص، أو تحديد عام الإصدار. ولكنها تكشف بعد مراجعتها عن ضآلة عدد العناوين المترجمة إجمالاً، والتى تتجاوز ٢٠٠ عنوان، كما تكشف عن التدنى الشديد للترجمات العلمية. ثم إننا نجد تحت عنوان "العلوم التطبيقية" عناوين مثل : الطب الروحانى، والجبن الدمياطى وصناعته، والرضى لمن يرضى (دليل الكتاب المصرى ١٩٩٠). وإذا استوفينا الإصدارات المترجمة منذ الأربعينيات، ومشروع الألف كتاب الأول والثانى - انحسارًا واضحًا فى نوع وكم الكتب ذات التوجه العلمى الحضارى من حيث النسبة العامة.

وتنص الخطة القومية للترجمة - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٦ - على ما يلى : "ولم يجر حصر شامل" لما تمت ترجمته من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وبالعكس منذ بداية عصر النهضة حتى اليوم". بيد أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أجرت إحصاءين لهما دلالة مهمة: أحدهما عن الكتب العلمية المترجمة منذ ١٩٧٠ - ١٩٧٥ فى خمس دول عربية، فبلغ العدد ٨٧٢ كتاباً، وثانيهما عن الكتب المترجمة بداية من عام ١٩٧٠ لغاية ١٩٨٣ فى ست عشرة دولة عربية، فبلغ ٢٨٤٠ كتاباً. وتشير الإحصاءات إلى أن حركة الترجمة فى الدول العربية دون المستوى المنشود". معنى هذا أن معدل الترجمة السنوى من ١٩٧٠ لسنة ١٩٧٥ يبلغ ١٧٥ عنواناً . ومعدل الترجمة السنوى من ١٩٧٠ - ١٩٨٠ يبلغ ٢٨٤ عنواناً. وسوف نجد فى ضوء الإحصاءات التالية أنه قارب الضعف فى التسعينيات وأواخر القرن العشرين، وهو ما يعنى أن المجتمعات العربية حققت إنجازاً. ولكن إذا ألقينا نظرة مقارنة فى ضوء حركة المجتمعات الأخرى وتطورها الحضارى نجد أن الهوة اتسعت.

دولة الإمارات العربية :

عرفت نشاط الترجمة والتأليف المؤسسى مع مطلع العقد الأخير من القرن العشرين. ويمثل المجمع الثقافى - أبو ظبى - المؤسسة الرسمية المنوط بها هذا الدور. وإصداراته من الترجمة كالآتى :

السنة	١٩٩٣	١٩٩٥	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢
عدد	٢	١٣	٣	٢٣	١٠	٥	٣	٥

تونس :

فى دراسة بعنوان "حال الترجمة فى تونس وعلاقتها بالوضعية اللغوية"، ١٩٩٨ للدكتور عبد اللطيف عبيد يقول : "تمت ترجمة ٤٦ عنوانًا إلى العربية من ١٨٣٨ إلى ١٨٨١، أى ٤٦ عنوانًا فى ٤٣ سنة، قبل الاحتلال. وتمت ترجمة ٢٠٤ عنوانًا خلال النصف الأول من القرن العشرين حتى عام الاستقلال ١٩٥٦، بمتوسط ٤ عناوين فى السنة. ويضيف أن ما ترجم فى تونس منذ الاستقلال (١٩٥٦)، أى على مدى ٤٠ عامًا يبلغ ١٥٠ عنوانًا بمتوسط ٤ عناوين فى السنة. ويقول : الترجمات العلمية قليلة الأهمية عددًا ونسبة.

المملكة العربية السعودية :

فى دراسة للدكتور عبد الله الفقارى ١٩٩٨، يشكو من صعوبة الحصول على بيانات. ويشير إلى دراسة للباحثة نوره صالح الناصر بعنوان "ترجمة الكتب إلى العربية فى المملكة العربية السعودية" من ١٣٥١هـ - ١٤١٢ هـ أى : ١٩٣٢ - ١٩٩٢م. وتقرر أن المترجمات ٥٠٢ كتاب خلال ستين عامًا مع سيطرة العلوم الاجتماعية الإنسانية، أى بمعدل ٨ كتب سنويًا . ولكن د. الفقارى يذكر أن الترجمات على مدى خمسين سنة حتى ١٩٩٨ بلغت ٧٢٩ عنوانًا، بمعدل ١٥ عنوانًا، فى العام. وأن الترجمات خلال السنوات الست الأخيرة بلغت ٢٢٧ عنوانًا، بمعدل ٣٨ عنوانًا فى السنة. ويشكو من قلة عدد الأفراد السعوديين

الممارسين للترجمة. ويقرر أن جميع المترجمات التى قام بها أفراد سعوديون خرجت من قاعات الدرس فى الجامعات أو المراكز البحثية المخصصة. ويضيف أن الكتب المترجمة الصادرة هى فى أغلبها نشاطات لأعضاء هيئة التدريس والباحثين فى مجالات تخصصهم.

سوريا :

يشير الإحصاء السنوى لليونسكو عام ١٩٩٢ إلى أن إجمالى المترجمات كما يلى :

السنة	عدد المترجمات
١٩٨٤	٤٣
١٩٨٥	٤١
١٩٨٦	٥٩

العراق :

فى دراسة للأستاذ/ سمير عبد الرحيم الجلبى ١٩٩٧، يقرر أن مجموع الكتب المترجمة الصادرة عن دار المأمون بيت الحكمة فى ست سنوات ١٢٥ عنوانًا، وتقلص النشاط بسبب ظروف الحصار.

مصر :

بدأت حركة الترجمة بمصر الحديثة منذ عهد محمد على أواخر القرن ١٩، واستطاع الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى - رائد النهضة الفكرية - خلق مدرسة أو حركة ترجمة نهضوية تضع مصر على أعتاب عصر الصناعة.

وظهر فى مطلع القرن العشرين عديد من رواد الترجمة من أمثال: الشيخ محمد عبده، الذى ترجم كتاب هربرت سبنسر "التربية"، وأحمد فتحى زغلول، وأحمد لطفى السيد، وآخرين. وتوجد فى مصر أجهزة حكومية معنية بالترجمة، علاوة على دور النشر الخاصة، وعدد من مراكز الترجمة التابعة لسفارات أجنبية.

ونذكر من المؤسسات الحكومية: الهيئة العامة للكتاب ، والمجلس الأعلى للثقافة، وهيئة الاستعلامات .

وجدير بالتنويه أن المجلس الأعلى للثقافة عمل منذ عام ١٩٩٤ على إنجاز المشروع القومى للترجمة، وهو الأول من نوعه فى العالم العربى، ويصدر سنوياً قرابة ٨٠ عنواناً مترجماً فى مختلف العلوم والفنون، وبلغت جملة إصداراته أكثر من ٧٥٠ عنواناً. هذا علاوة على إنشاء ورش عمل لتدريب مترجمين من الشباب، وإصدار مجلة بعنوان "الترجمة".

دولة الكويت :

فى دراسة للدكتور عبد الرحمن أحمد الحمد، ١٩٩٨ يشكو من عدم وجود إحصاءات ثم يقول : "من العقبات التى تواجه مؤسسة الكويت

للتقدم العلمى عدم وجود ببليوجرافية محلية أو عربية". ويوضح الجهات المعنية بالترجمة وإصداراتها من كتب ومعاجم:

(أ) مؤسسة الكويت للتقدم العلمى : عنيت بنشر قواميس ومعاجم وموسوعات علمية، وأصدرت سلسلة من الكتب المترجمة، صدر عنها منذ ١٩٨٢ حتى ١٩٩١: ٢٢ عنوانًا، وتعمل على توحيد المصطلحات، وتصدر مجلة "علوم" - المترجمة - شهريًا، وتعنى بمنح جوائز عن النشاط العلمى ومن بينه الترجمة.

(ب) المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب : يصدر كتبًا مترجمة ضمن سلسلة عالم المعرفة، صدر منها قرابة ٨٦ عنوانًا من ١٩٧٨ وحتى ١٩٩٨، وتصدر كذلك سلسلة المسرح العالمى (إبداعات عالمية)، علاوة على مجلة الثقافة العالمية المترجمة، وتصدر كل شهرين.

ويشير الإحصاء السنوى لعام ١٩٩٢ اليونسكو إلى إصدارات الكويت المترجمة:

السنة	عدد المترجمات
١٩٨٤	١٧
١٩٨٥	١٧
١٩٨٦	٢١

لبنان :

يوجد أكثر من ١٧٠ دار نشر للتأليف والنشر. مجموع الدراسات المترجمة فى لبنان ١٩٧٠ - ١٩٨٥ : ٣٩٦ عنوانًا، جميعها علوم إنسانية، و ٦ عناوين فى علوم الطب والتداوى بالأعشاب.

المغرب :

تشير الدكتورة فاطمة الجامعى الحبابى فى دراسة لها عن الترجمة فى المغرب ١٩٩٨، إلى أن نشاط الترجمة بدأ محدودًا فى القرن ١٦، وشهد منتصف القرن ١٩ بدايات جديدة، اقترنت بمحاولات نهضة علمية، وتذكر أنه يوجد بالمغرب عشرة مكاتب أو معاهد أو أكاديميات معنية بالترجمة من أهمها: مكتب تنسيق التعريب، الذى أنشئ عام ١٩٦١ ثم أصبح اسمه عام ١٩٦٢ المكتب الدائم لتنسيق التعريب، وألحق بالأمانة العامة للجامعة العربية عام ١٩٦٩ ثم بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٧٢ ، وأن مهمته الأساسية تنسيق تعريب المصطلحات على الصعيد العربى، وأنه أصدر أكثر من ٥٠ معجمًا. وهناك أيضًا معهد الدراسات والأبحاث والتعريب الذى أنشئ عام ١٩٦٠، وهدفه إنجاز الدراسات والأبحاث للتعريب، ويعمل الآن على إنشاء قاعدة معجمية (بنك بيانات) يضم قرابة ٢ مليون كلمة.

وتشكو الباحثة من عدم وجود إحصاءات، وتضع عدة مقاربات، وتذكر إحداها أنه تمت ترجمة ٥٠ عنوانًا من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٥، أى فى ١٥ سنة، وتشير مقاربة أخرى إلى أن جملة المترجمات ٩٨ عنوانًا من ١٩٣٢ إلى ١٩٩٢، وتذكر مقاربة رابعة ٤٦ عنوانًا فى الفترة من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٠، وأن المترجمات على مدى الأعوام ١٩٩٢ - ١٩٩٧ تبلغ ١٢٥ عنوانًا.

وتعرض الباحثة الإحصائية التالية :

السنة	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	١٩٩٦	١٩٩٧
العدد	١٣	٢٤	١٩	٢٣	٢٧	١٩

إصدارات الكتب تأليفًا وترجمة الإحصاء السنوى . اليونسكو ١٩٩٩

اسم البلد	١٩٧٤	١٩٨٥	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٦
مصر	١٧٦٥	١٣٦٦	٢٠٣٦	٢٥٥٩	٣١٠٨	٢٢١٥	
ليبيا						٢٦	
تونس	١٠٧	٤٥٠			٥٣٥	٥٦٩	
الأردن				٦٦٣	٥٠٠	٤٦٥	
السعودية	١٢٥	٢١٨					٣٩٠

مقارنة إحصائية

إصدارات الكتب لكل مليون نسمة (تأليف وترجمة) - الكتاب السنوى - اليونسكو ١٩٩٥

	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٠	١٩٩١
العالم	١٨٢	١٦١	١٥٩	١٦٠
أفريقيا	٢٢	٢٥	٢٠	٢٠
آسيا	٥٩	٥٤	٧٣	٧٠
أوروبا	٥١٥	٦٨٢	٧٢٦	٨٠٢
الدول المتقدمة	٤٢٨	٤٩٠	٤٨٨	٥١٣
الدول النامية	٣٩	٤٦	٦٠	٥٥
البلدان العربية	٣٨	٤٠	٢٩	٢٩
أفريقيا بدون العرب	١٧	٢٥	٢٠	٢٠
أمريكا الشمالية	٣٦٦	٣٩٣	٣٨٥	٣٦٥

إجمالى الترجمة فى عدد من الدول للمقارنة (نفس المصدر)

إسرائيل ٤ر٥ مليون نسمة

السنة	إجمالى	ملاحظــات
١٩٨١	٣٨٧	ما بين ٩٣ و٧٦ كتاباً لكل مليون نسمة ، مع ملاحظة شيوع الإنجليزية ، وأن ٥٠٪ من سكان إسرائيل مهاجرون ، يقرؤون بلغاتهم الأصلية علاوة على العربية
١٩٨٢	٣٤٨	
١٩٨٣	٢٣٢	
١٩٨٤	٣٦٦	
١٩٨٥	٣١٣	
١٩٨٦	٤٦٢	

المجر . التعداد ٠٠٠ر٥٧١ر١٠ نسمة (المصدر نفسه)

السنة	إجمالى	ملاحظــات
١٩٨١	٤١٩	حوالى ١٠٨ كتاب لكل مليون
١٩٨٢	١٢٢٧	
١٩٨٣	١٣٩٧	
١٩٨٤	١٢٣٨	
١٩٨٥	١٢٠٢	
١٩٨٦	١١٤٤	

أسبانيا ٣٩ مليون نسمة

السنة	إجمالى	ملاحظـــات
١٩٨١	٦٣٦١	حوالى ٢٤٠ عنوانًا لكل مليون نسمة
١٩٨٢	٦٣٨١	
١٩٨٣	٧٤٤٧	
١٩٨٤	٧٧٤١	
١٩٨٥	٧٩٤٤	
١٩٨٦	٩٦٤٧	

إجمالى الإصدارات فى العالم تأليفًا وترجمة

	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٠	١٩٩١
العالم	٥٢١,٠٠	٧١٥,٠٠٠	٨٤٢,٠٠٠	٨٦٣,٠٠٠
أفريقيا	٨,٠٠٠	١٢,٠٠٠	١٣,٠٠٠	١٣,٠٠٠
أمريكا	١٠٥,٠٠٠	١٤٢,٠٠٠	١٤٨,٠٠٠	١٤٤,٠٠٠
أسيا	٧٥,٠٠٠	١٣٨,٠٠٠	٢٢٨,٠٠٠	٢١٥,٠٠٠
أوروبا	٢٤٦,٠٠٠	٣٢٣,٠٠٠	٣٦٤,٠٠٠	٤٠٣,٠٠٠
الاتحاد السوفيتى سابقًا	٨٠,٠٠٠	٨٠,٥٠٠	٧٧,٠٠٠	٧٦,٠٠٠
البلدان المتقدمة	٤٥١,٠٠٠	٥٦٢,٥٠٠	٦٠٠,٠٠٠	٦٣٥,٠٠٠
البلدان النامية	٧٠,٠٠٠	١٥٣,٠٠٠	٢٤٢,٠٠٠	٢٢٨,٠٠٠
أفريقيا بدون العرب	٤,٦٠٠	٩,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠

آسيا بدون العرب	٧٣,٧٠٠	١٣٤,٥٠٠	٢٢٤,٠٠٠	٢١٥,٠٠٠
البلدان العربية	٤,٧٠٠	٦,٥٠٠	٦,٤٠٠	٦,٥٠٠
أمريكا الشمالية	٨٣,٠٠٠	٩٩,٠٠٠	١٠٦,٠٠٠	١٠٢,٠٠٠
أمريكا اللاتينية والكاريبى	٢٢,٠٠٠	٤٧,٠٠٠	٤٢,٠٠٠	٤٢,٠٠٠

إجمالى الترجمة فى العالم العربى (٢٥٠ مليون نسمة)

السنة	إجمالى	ملاحظات
١٩٨١	٢٢٥	حوالى كتاب واحد لكل مليون نسمة ، إحصاء اليونسكو ١٩٩٢
١٩٨٢	٧٢ (لم ترد مصر والعراق)	
١٩٨٣	٧٠ (لم ترد مصر والعراق)	
١٩٨٤	٤٥٩	
١٩٨٥	٢٧٢ (لم ترد مصر والعراق)	
١٩٨٦	٢٦٨ (لم ترد مصر والعراق)	

البحوث والتطوير والمؤتمرات العلمية

ذكرنا أن من آليات نقل المعرفة، أو المشاركة فى المعرفة المتاحة كوكبيًا نشاطات البحوث والتطوير R & D ، والمؤتمرات العلمية وتبادل بعثات العلماء. ونورد هنا بعض الإحصاءات التى ذكرها أنطوان زحلان، ولعله أهم باحث عربى متابع لنشاطات العلم والتقانة فى العالم العربى وفى إسرائيل. وتتطابق إحصاءاته مع إحصاءات منظمة اليونسكو.

يقول زحلان : "منذ عام ١٤٩٨ والوطن العربى مذعن لتقدمات تقانية أنجزت فى أوروبا. وكانت العلوم والتقانة هى الأداة الرئيسية التى جرى عبرها التفكيك المستمر للوطن العربى خلال السنوات الخمسمائة الماضية (ص ١٧) ويعتمد العالم العربى على المشروعات الجاهزة "تسليم المفتاح"، دون توطين العلم والتقانة فى كل محاولات التحديث المعاصرة. وإحدى نتائج تبنى ثقافة المشروعات الجاهزة هى أن المرء يرى نفسه فقط عبر عيون أجنبية (ص٤٣). وينعكس عدم توطين العلم والتقانة سلبًا على أى جهد للنهوض بالبحث والتطوير".

ويشكو من أن المعلومات الإحصائية عن أى ناحية من العالم العربى محدودة. وقاعدة المعلومات الموثقة الوحيدة هى تلك التى تصدر عن مؤسسة المعلومات العلمية فى فيلادلفيا، عن منشورات فى دوريات مستشهد بها (ص١١٤).

ويذكر فى إحصائية أن إجمالى نتاج البحث فى الوطن العربى مقارنًا بإسرائيل كما يلى .. وتعبر الإحصائية عن مجمل التفاعل المعرفى

إنتاجًا محليًا، وتحصيلاً من الخارج، مع ملاحظة أن نتاج البحوث يتركز فى الجامعات العربية التى بلغ عددها ١٧٥ جامعة عام ١٩٩٥ .

	١٩٦٧	١٩٧٧	١٩٨٧	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥
المجموع العربى	٤٦٥	١٣٤٨	٤٥٦٩	٥٥٩٥	٥٤٦٠	٥٤٠٨	٥٣٤١	٦١٤٤	٦٦٥٢
إسرائيل	١١٢٥	٣٢٨٤	٧٩٦٩	٧٥٧١	٧٣٧٧	٨٠٥٣	٩١٨٢	٩٥٦٧	١٠٢٠٦

ويضيف أن غالبية المنشورات العربية هى فى حقول لينة، والكثير من نتاج البحث ذو طبيعة تطبيقية وصفية ومستوصفية. ومستوى النشاط البحثى فى العلوم الأساسية لا يكاد يذكر (ص٦٦-٧٢). وتفتقر البلدان العربية إلى منظومات علم وتقانة، علمًا بأن صمام الأمان الوحيد هو تعزيز اندماج العالم فى منظومة علم وتقانة وطنية، ثم عبر هذه المنظومات إلى أسرة العلم الدولية للمشاركة فى المعرفة الكوكبية (ص١٠٢).

ويقول د. إبراهيم قويدر مدير عام منظمة العمل العربية فى حوار معه على صفحة الأهرام ٢٠٠٢/١١/١٢ : "إننا نحتاج لمضاعفة برامج البحث العلمى ٧٧٠ ضعفًا لنصل إلى المستوى المماثل فى إسرائيل..."، ويدعو إلى أن نلتفت بعمق إلى مستوى التنمية البشرية؛ لأن النوع البشرى وإبداعه أفرادًا ومجموعات هو الذى يضع الفارق فى التفوق والتقدم. حيث إن ترتيب إسرائيل فى دليل التنمية البشرية هو ٢٣ بين بلدان العالم، بينما يتراوح ترتيب الدول العربية بين ٨٢ و ١١٩ .

وينفق العالم أكثر من ٥٠٠ مليار دولار سنويًا على البحوث والتطوير؛ مما يعطى حصاداً متسارعًا من المعارف العلمية والتطبيقية، التى يتعين ترجمتها واستيعابها (١٦١).

وتخصص البلدان الصناعية حوالى ٣٪ من إجمالى الناتج الوطنى للبحث والتطوير. هذا بينما خصصت الأقطار العربية ٧٥٠ مليون دولار، أى حوالى ٢ر٠٪ وأن ندرة النشاط البحثى العربى تعنى أن أساتذة الجامعات تتعرض معارفهم للتقادم بسرعة؛ مما ينعكس على مستوى التعليم، خاصة مع توقف تبادل بعثات الأساتذة. وبينما يبلغ شبه العائد من الإنفاق على البحث الأكاديمى فى الولايات المتحدة حوالى ٣٠٪ نجدها حوالى الصفر فى الأقطار العربية (ص ١٧٥ , ٢٢٤).

الإنفاق على البحث والتطوير

كنسبة مئوية من إجمالى الناتج الوطنى، إحصاء اليونسكو ، ١٩٩٥

البلد	النسبة	البلد	النسبة
الولايات المتحدة	٣٪	ألمانيا	٢,٤٪
إسرائيل	٢,٢٪	العالم العربى	٠,٢٪
اليابان	٢,٩٪	كوريا(ج)	٢٪
فرنسا	٢,٤٪	ماليزيا	أكثر من ١٪

أزمة المصطلح العلمى

الثورة المعرفية تعنى أيضًا ثروة لغوية؛ مما يفرض على أى مجتمع ناهض أن يواكب الفيض الدافق من المصطلحات العلمية والتقانية الجديدة. ويقول عبد الحفيظ الهرفام فى مقال له – "الحياة" ٤/١٠/١٩٩٨– : "التطور الراهن تفجير لثورة لغوية؛ إذ يتعين على كل لغة تنشد البقاء أن تتوافق دلاليًا ومفاهيميًا وتعبيريًا مع المستحدثات. ونحن نشهد من الآن ثورة فى مستوى المفاهيم والمصطلحات والمضامين فرضتها ضرورة مواكبة التطور العلمى التقانى".

وهكذا أصبح لزامًا على كل لغة أن تتكيف فى دينامية ومرونة مع الجديد من المصطلحات. ويشهد العالم كل عام ميلاد قرابة أربعين ألف مصطلح جديد على الأقل.

وتصدر ٢٠٠ ألف قضية رياضية جديدة، تجر معها عدداً كبيراً من مئات المصطلحات. محمد شفيق ، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ولعل أهم الإشكاليات التى اعترضت ولاتزال تعترض نجاح تعريب المواد العلمية هى عدم توافر المصطلحات العلمية باللغة العربية، وغياب كتابة علمية بلغتنا الوطنية، وندرة الاهتمام بالبحث العلمى فى الدول العربية، بالإضافة إلى فوضى وضع المصطلح للمقابل الأجنبى بين عدة مجامع لغوية عربية، علاوة على الجهود الفردية؛ مما يضاعف من تعثر توحيده.

وإدراكًا من المسئولين عن الثقافة لهذه المشكلة انعقدت مؤتمرات عدة لتعريب المصطلح. ويمثل المكتب الدائم لتنسيق التعريب الذى أسلفت ذكره – المنسق العربى العام لتوحيد المصطلح العربى؛ إذ يعمل على تتبع جهود العلماء والمجامع اللغوية ونشاط الكتاب والأدباء والمترجمين. ويقوم بتصنيف ذلك تمهيداً لعرضه على مؤتمرات التعريب. وأصدر أكثر من ٥٠ معجمًا فى العلوم المختلفة. هذا غير جهود مجامع اللغة العربية فى القاهرة والأردن وغيرها وجهود الأفراد.

ولكن الملاحظ : أن حجم التعريب دون الكم الهائل من المصطلحات التى تولد جديدة كل عام فى العلم والتقانة. ثانيًا: تعثر توحيد المصطلح على الصعيد العربى. وثالثًا: أن المصطلح العلمى المعرب فى مجتمع راكد علميًا لن تكتب له الحياة؛ إذ يولد فى وضع سكونى فاقد لعنصر التطور الحياتى. وإنما يحيا ويتجدد المصطلح فى مجتمع يمثل العلم فيه

فعالية نشطة، أى يحيا المصطلح من خلال شيوع استعماله فى الحياة؛ مما يعنى أن نجاح التعريب مرهون بالتطور العلمى التقانى. لذا نرى أن أزمة المصطلح هى أزمة الإنسان/ المجتمع العربى الراكد علمياً وتقانياً. رابعًا: نجاح التعريب يعزز الشعور بالذاتية القومية. ونلحظ كذلك أن نشوء بنوك للمعلومات العلمية التى تتوافر فى بلدان المركز - بشكل يتجاوز القدرات العربية الحالية؛ مما يعنى ضرورة تطويرها، وإعادة هيكلة البنية الاجتماعية، والتحول إلى مجتمع التصنيع والمعرفة وتطوير التعليم.

الترجمة الآلية

نظراً لأهمية الترجمة وثورة المعلومات تم إعداد وتطوير بنوك المصطلحات الآلية، وتيسر هذه البنوك البحث عن المصطلح وأية معلومات عنه مثل: التاريخ، والمصدر، ودرجة الاعتمادية، وشرح موجز، والمرادفات مع صور ورسوم توضيحية، وأية تعديلات طارئة. لذلك تبذل الدول جهوداً مضنية لتطوير بنوك المصطلحات؛ لتكون أداتها لكسر الاحتكار اللغوى، وسرعة متابعة ونقل الجديد.

وتقترن هذه الجهود بجهود تطوير أنظمة ترجمة آلية، وإن لم تصل بعد إلى حد الكمال أو الأمان، إلا فى مجالات محدودة. ويبذل العالم العربى جهوداً فى هذا الصدد، ولكنها مشتتة فى عدد من البلدان العربية، وحبذا لو أمكن توحيد هذه الجهود توفيراً للوقت والجهد والمال، ومنعًا للازدواجية، وضماناً للسرعة. وتوجد الآن فى العالم العربى عدة برامج أو نظم للترجمة هى بنوك مصطلحات منها :

١ – برنامج المترجم العربى ATA للترجمة من الإنجليزية.

٢ – العالمية (صخر)، طورت عدداً من البرمجيات للترجمة الآلية.

٣ – المعهد الإقليمي للعلوم الإعلامية والاتصالات عن بعد في تونس.

٤ – البنك الآلى السعودى للمصطلحات.

٥ – معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، الذى أعد بنك المصطلحات (معربى).

٦ – بنك المصطلحات التابع لمجمع اللغة العربية الأردنى.

٧ – أعد مجمع اللغة العربية فى القاهرة CD بجميع المصطلحات المعربة.

أين المشكلة ؟

ليس جديداً ولا غريبًا كل ما سبق على السلطات العربية المسئولة عن السياسة والثقافة. وهذا ما تؤكده جهود جامعة الدول العربية لإصلاح الوضع المتدنى فى مجالات الترجمة، ونقل المعرفة، والبحث العلمى، والتطوير.

هناك مرحلتان للترجمة تحت رعاية الجامعة العربية: الأولى: حيث أنشأت الجامعة إدارة ثقافية بناء على المعاهدة المبرمة بين الدول العربية عام ١٩٤٥ وتنص المادة السابعة من هذه المعاهدة على : "تنشيط الجهود لترجمة الكتب الأجنبية القديمة والحديثة، وتنظيم تلك الجهود، وتنشيط

الإنتاج الفكرى فى البلاد العربية بمختلف الوسائل". وصدر عن الإدارة عدد من الترجمات التى ترتكز على الإنسانيات.

المرحلة الثانية : عقب توقيع ميثاق الوحدة الثقافية العربية عام ١٩٦٤، الذى تضمن الدعوة التى دعت إليها المعاهدة الثقافية سالفة الذكر. وتحولت الإدارة الثقافية عام ١٩٧٠ إلى "منظمة التربية والثقافة والعلوم" اقتداء بمنظمة اليونسكو العالمية.

واضطلعت بأعمال منها :

(أ) الدعوة عام ١٩٧٣ إلى عقد حلقة الترجمة فى الوطن العربى. وانعقدت فى الكويت فى ١٩٧٣/١٢/٣١ وبحثت الحلقة "تنسيق حركة الترجمة فى البلاد العربية، وإقامة جهاز تنسيق على صعيد العالم العربى يتولى وضع خطة قومية للترجمة بالاشتراك مع الأجهزة الوطنية، وبالتنسيق مع المنظمات الدولية".

(ب) أنشئت بالفعل وحدة للترجمة عام ١٩٨١ ووضعت هدفًا لها :

١ - إقامة مشروع المعهد العالى العربى للترجمة الذى استضافته الجزائر ولم يفتح. وبدأ أخيرًا ٢٠٠٤ الإعداد لافتتاحه فى الجزائر.

٢ - إنتاج الترجمات : وقد أنشئ المركز العربى للتعريب والتأليف والترجمة، واستضافته سوريا، لكنه بدأ العمل منذ ١٩٩٠، وإنتاجه محصور فى حدود ١٥٠ ملزمة سنويًا.

٣ - نشر الخطة القومية للترجمة. وكانت قد أقرتها المنظمة العربية ثم أقرها مؤتمر الوزراء المسئولين عن الشئون الثقافية عام ١٩٨٣،

ونشرت عام ١٩٨٥ . ولكن توقف المشروع فى أواخر ١٩٨٥ بسبب إلغاء وحدة الترجمة بإدارة الثقافة، نتيجة تراخى الدول العربية.

وفى عام ١٩٩٤ أوصى وزراء الثقافة العرب خلال الدورة التاسعة لمؤتمرهم فى بيروت بما يلى :

"دعوة المنظمة إلى تحديث الخطة القومية للترجمة ونشرها" ونشرتها عام ١٩٩٦ ولكن المنظمة العربية تشكو حتى الآن من تعثر إجابات الدول العربية وضياعها بين دهاليز مكاتب الموظفين.

وفيما يتعلق بالبحث العلمى والتطور التقانى نشير إلى أحد القرارات الرئيسية لمؤتمر الوزراء العرب المسئولين عن تطبيق العلوم والتقانة فى التنمية، والمنعقد فى الرباط من ٦ إلى ٢٥ آب/ أغسطس ١٩٧٦ وينص القرار بالإجماع على تأسيس صندوق برأسمال ٥٠٠ مليون دولار لدعم البحث والتطوير بالوطن العربى. ولكن لاقى الاقتراح الإهمال من الدول العربية بعد ذلك. (زحلان).

وفى عام ١٩٨٣ وضع اتحاد مجالس البحث العلمى العربية سلسلة أوراق بهدف تطوير استراتيجية عمل مشترك فى العلم والتقانة. ولم يثمر هذا الجهد شيئًا يذكر. وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى أوائل الثمانينيات بجهد آخر، وعهدت إلى إحدى اللجان إعداد استراتيجية عربية للعلوم والتقانة. وقدمت اللجنة تقريرها المعنون "استراتيجية للتطوير العلمى والتقانة فى الوطن العربى". إلى مؤتمر الكسو عام ١٩٨٨، وأقرت اللجنة التقرير ويقول زحلان : "وكان الاستقبال

الشديد التواضع الذى لقيته الاستراتيجية المقترحة فى النقاشات العامة، وردود الفعل لها - مثالاً على حالة السبات الذى تبتلى به الأقطار العربية (ص ١٠٨ - ١٠٩).

والسؤال : إذا كان المسئولون على وعى بأبعاد الأزمة، فأين تكمن المشكلة، أو معوقات النهوض فى مجالات الترجمة، ونقل المعرفة، وتطوير العلم والتقانة؟.

المعوقات

(أ) الثقافة الاجتماعية التقليدية السائدة الحاكمة للسلوك، والتى تتجلى فى أساليب التنشئة الاجتماعية والتعليمية والإعلامية والسياسية. إنها ثقافة تقتل الفضول المعرفى وحرية البحث، وتئد نزوع مغامرة البحث عن المعرفة والمجهول، أو التمرد المنهجى المعرفى، وتجعل النظر إلى الإبداعات التقانية وكأنها ضرب من المعجزات، وتصرف الأذهان عن منهج فهم العلل والأسباب الواقعية لظواهر الحياة، وترسخ أن العلم النافع غير علم الدنيا، وترى الحياة ابتلاء وليست تحديًا وإرادة، وتغرس فضيلة الطاعة والخضوع والتبعية لمركز القوى الأيديولوجى (السلف)، والسياسى (الأب المهيمن)، لا فضيلة التغيير الذى يستلزم البحث عن المعرفة المنهجية.

(ب) نظام اقتصاد الريع الأبوى المنتمى إلى تقاليد عصر ما قبل الصناعة، والقائم على الثقة فى الأقارب والأصدقاء، ويتنافى مع طبيعة بنية المنظومات الشبكية، بين مؤسسات اجتماعية فاعلة مستقلة ذاتيًا، وشرطها الأهلية والكفاءة. ويتبع نظامًا تراتبيًا هرميًا حيث الحق والحقيقة هما رأس المجتمع، ومن ثم غلبة السياسة الفوقية على تفاصيل الأنشطة الاجتماعية. ويرى هذا النظام الحداثة حيازة ومحاكاة وليست إنجازًا إبداعيًا ذاتيًا، وإراديًا جمعيًا ومنافسة. ويرسخ ثقافة المحافظة على الهيكل الاجتماعى الأبوى؛ ومن ثم لا يتبنى استراتيجية تطوير بعيد المدى، وأى تغيير رهن الإرادة العلوية. ولا يلتزم سياسة تربط بين العلم والتعليم والتنشئة كمثال. وتشيع فيه روح الاتكالية، ويعزز حالة الانفصال بين الفكر والفعل.

لهذا نلحظ المعوقات التالية على طريق نقل المعرفة والترجمة والتى هى تجليات لهيكل اقتصاد الريع التقليدى المحافظ :

١ - غياب استراتيجية تطوير اجتماعى شاملة تعبئ وتنظم طاقة الشعوب العربية، ويجرى بناء الإنسان على هديها، وتكون أساسًا لنشاط علمى مجتمعى إبداعى، وإطارًا حاكمًا لأى استراتيجية فرعية لنشاط اجتماعى مثل الترجمة ونقل المعرفة.

٢ - النظام التعليمى تقليدى ويعتمد على الاستظهار والحشو، ولا ينمى القدرات العقلية النقدية والإبداعية، ومحوره الحفاظ على الموروث الثقافى باعتباره ثوابت، والطاعة وعدم التمرد.

٣ – غياب المنظومات المؤسسية؛ مما أشاع الفردية الأنانية في النشاط، سواء في مجال الترجمة أو العلم؛ ومن ثم عدم وجود خطة قومية على الصعيد العربي والقطري للترجمة أو للبحث والتطوير. فالترجمات فردية عفوية، والبحث العلمي جهد فردي.

٤ – التخلف الحضاري والعلمي، ومن مظاهره شيوع الأمية الأبجدية، وأمية تقانة المعلومات، وكذلك الأمية العلمية والثقافية، ومن أهم مظاهرها تدني قيمة العقل والعلم والفكر الحر، وسيادة الدجل والشعوذة؛ مما يضع سداً أمام دخول مجتمع المعرفة.

٥ – أزمة المصطلح العلمي العربي التي هي تعبير عن أزمة البحث العلمي وغياب السياسة العلمية في أي من المجتمعات العربية.

٦ – غياب جيل جديد من المترجمين الخبراء، خاصة في الترجمة العلمية.

٧ – غياب إحصاءات ببليوجرافية سواء عن المترجمات أو المترجمين والعلماء، وكأننا مجتمع بدون ذاكرة.

٨ – الكتاب العلمي الأجنبي غير ميسور في المجتمعات العربية، إلا لمن يحصل عليه بجهد فردي، سواء للاطلاع أو للترجمة، وكأن المثقف العربي معزول عن النشاط الفكري والعلمي في الخارج، إلا ما تعوضه به الآن شبكة الإنترنت. ولم تعد المكتبات العامة تفيد في هذا الصدد.

لهذا نرى أن نشاط الترجمة موقف ثقافي اجتماعي من المعرفة، إنتاجاً وإبداعاً واستثماراً، والتي هي بطبيعتها خلق متجدد ويتجاوز الواقع. ونرى أن الأزمة هي أزمة كتاب وقارئ وبنية اجتماعية صانعة لإنسان عربي تقليدي؛ لذلك فإن التطور الحضاري الشامل ودخول عصر الصناعة المعلوماتية بكل ما يقتضيه من تحولات هيكلية هو ضمان البقاء والازدهار.

المراجع

١ – أنطوان زحلان : "العرب وتحديات العلم والتقانة"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٩ .

٢ – الخطة القومية للترجمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٦ .

٣ – دراسات عن واقع الترجمة بالوطن العربى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٧ .

٤ – د. محمود عبد الفضيل، العرب والتجربة الآسيوية، مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٢ .

٥ – د. صفاء محمود عبد العال، التعليم العلمى والتكنولوجى فى إسرائيل، الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٢ .

٦ – شوقى جلال، الترجمة فى العالم العربى، الواقع والتحدى، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ١٩٩٩ .

٧ – الكتاب السنوى لمنظمة اليونسكو، سنوات عدة.

٨ – دليل الكتاب المصرى، الهيئة العامة للكتاب ١٩٦٨، ١٩٧٩، ١٩٨٨، ١٩٩٠، ١٩٩٣ .

٩ – د. عبد اللطيف عبيد ، دراسة بعنوان "حالة الترجمة فى تونس وعلاقتها بالوضعية اللغوية".

١٠ – تقرير رسمى عن مركز الترجمة، جامعة الملك سعود، مرسل من الدكتور محمود إسماعيل صالح (الصينى).

١١ – د. فاطمة الجامعى الحبابى، دراسة حال الترجمة فى المغرب ١٩٩٨ .

١٢ – د . عبد الرحمن أحمد الحمد، دراسة بعنوان "الدراسة المسحية لجهود الترجمة فى دولة الكويت ١٩٩٨ .

١٣ – إحصاء الترجمة والتأليف بالمجمع الثقافى، أبو ظبى، مرسل بفاكس.

١٤ – د. محمود إسماعيل صالح (الصينى)، الاتجاهات المعاصرة فى حركة الترجمة فى العالم ١٩٩٨ .

١٥ – سمير الجلبى، النشاط الترجمى فى العراق، دراسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨ .

١٦ – د . عبد الله سليمان الفقارى، دراسة بعنوان "حال الترجمة فى المملكة العربية السعودية" ١٩٩٨ .

١٧ – Manuel Castell; Information Age, 3 vol. Rlackwell, London, 1996.

ما الترجمة .. ولماذا ؟

وجود الإنسان/ المجتمع وارتقاؤه اجتماعيًا ونفسيًا وثقافيًا وفكريًا بل وبيولوجيًا - رهن العمل الاجتماعى العقلانى المجسد للمعرفة. وهذا النشاط الاجتماعى المزاوج بين العمل والمعرفة هو ما يمنح الإنسان/ المجتمع أقوى أداة وأكبر إمكانات متاحة للسيطرة على مصيره، أى للتحرر، وليكون له الخيار فى تقرير مستقبله. ورصيد المعرفة الاجتماعية هنا من مصدرين أولين متداخلين فى لحمة واحدة :

(أ) معرفة هى ثمرة العمل أو الإنجاز الاجتماعى.

(ب) معرفة هى ثمرة السعى الاجتماعى النشط بدافع الفضول، لاكتساب خبرات الآخرين فى إطار المواكبة والمنافسة.

ويقدر فعالية الإنسان/ المجتمع بقدر ما يكون ثراء هذا الرصيد، وغنى الحوار، وبقدر ما يتجلى مرة أخرى فى قدرة الإنسان/ المجتمع المتعاظمة على النشاط والحركة الهادفة المثمرة الإيجابية فى بيئته؛ إذ إن هذا النشاط وثراء الرصيد - هما نشاط معلوماتى وثراء معرفى يصبان فى فعالية هادفة. وتعطل هذا النشاط يعنى انحسارًا ونكوصًا إلى معارف موروثة مقطوعة الصلة بالحاضر، ترسخ الغربة الاجتماعية

والانكفاء على النفس، وفقدان سلاح معايشة العصر، ناهيك عن المواكبة أو المنافسة أو الصراع.

أقصد بهذا أن الحياة المعرفية للإنسان/ المجتمع هى أولاً نشاط إبداعى، وهى أيضًا تفاعل أو ترجمة متصلة نشيطة فيما بين المجتمعات، وأنها هى عماد الحياة المجتمعية الفاعلة؛ ومن ثم تكون الترجمة توسيعًا لدائرة الحوار والمعرفة، وبالتالى توسيعًا لدائرة الفعالية؛ ومن ثم حرية الإنسان/ المجتمع.

الترجمة بهذا المعنى هى حوار حضارات. وهو حوار شامل جميع مجالات المعرفة، علومًا إنسانية وطبيعية. والترجمة أداة اكتساب وأداة تعبير عن عزم الإنسان/ المجتمع على استيعاب أكبر قدر يعنيه، باختياره وإرادته، من حصاد المعارف الإنسانية، التى هى سلاح الإنسان فى التطور والمنافسة والارتقاء، والأخذ والعطاء على المستوى الحضارى، تعزيزًا للوجود.

وحوار العصر حوار علمى منهجًا ولغةً وفكرًا وإنجازًا. وأريد بكلمة الحوار أن أتجاوز كلمة النقل الشائعة كمرادف للترجمة؛ إذ ليست الترجمة المنشودة مجرد نقل من لغة إلى لغة عبارات مسطورة بين دفتى كتاب، لا تخلق تيارًا فكريًا، ولا تدخل فى نسيج رؤية للوجود والحياة؛ ومن ثم تظل عاطلة من الطاقة الدافعة للحراك الاجتماعى. الحوار هنا هو حوار فكر وأفعال وإنجازات علمية تؤكد وجود الإنسان / المجتمع، وجودًا فاعلاً ومؤثرًا فى العلاقات بين المجتمعات التى هى علاقات تنافس

قد يتصاعد إلى حد الصراع، وتكون فيه الغلبة للأقدر علميًا والأنشط عمليًا. أى الأقدر على الإنجاز العلمى فى شتى مجالات الطبيعة والمجتمع والنفس. والأقدر على إنجاز أكبر قدر من المعلومات الصحيحة، والأسرع كذلك فى معالجتها وتوظيفها لأهدافه. والحوار العلمى هنا مجلى للمنافسة وامتلاك واستراق أسباب تقدم الآخر فى مضمار المنافسة والتحدى والملاحقة والتجاوز. وأعنى بالحوار العلمى ذلك الحوار المرتكز على الجهد النسقى المنطقى المنظم منهجيًا، والمتبلور فى صورة نظريات هادية؛ ومن ثم يدور الحوار بلغة حضارة العصر، أى بفكرها العلمى ومنهجها العلمى فى التفكير والبحث، وبعلومها الأساسية ذات السيادة. وحوار اجتماعى على هذا المستوى لا يتوافر إلا بين أطراف يسهمون جميعًا بنصيب فى النشاط الاجتماعى العلمى، وإبداع المنهج والنظريات.

وهكذا تغدو الترجمة - كنشاط اجتماعى - أداة المجتمع للتفاعل مع الجديد فى العلوم والفنون والإنسانيات، وتمثل عاملاً أساسيًا ضمن مجموعة عوامل متكاملة للتقدم الحضارى. وباتت اليوم أكثر لزومًا مع السرعة المذهلة فى مظاهر التقدم العلمى والتقنى على المستوى العالمى، وتصبح الترجمة بصورتها هذه تعبيرًا مكثفًا عن المجتمع فى تحولاته الإنسانية الشاملة، وعلى المستويات كافة. ومن هنا وفى ضوء عرضنا التالى لواقع الترجمة فى العالم العربى، أرى الحديث عن الترجمة إنما هو دعوة لإعادة تكوين البنية الذهنية للإنسان العربى. تكوينًا حضاريًا

من حيث المحتوى وآلية الاستجابة. فالإنسان العربى بوضعه وبحالة بنيته الذهنية وآلية ردود أفعاله غير مؤهل للتعامل مع التحديات الحضارية. وإن الحفاظ على البقاء هو تحد حضارى شامل لكل أنشطة وعلاقات حياتنا الاجتماعية التقليدية، وإن القدرة على مواجهة إسرائيل أو غيرها هى قدرة على مواجهة حضارية وليست عقائدية.

والصراع الحضارى ينطوى دائمًا على صراع ثقافى، بمعنى الثقافة الأعم كإطار معرفى قيمى حاكم للسلوك الاجتماعى. والأساس العميق لهذا الصراع. كما يقول توينبى، هو آلية التحدى والاستجابة، وهى آلية مستمرة استمرار المجتمعات، ومشروطة بظروف وملابسات التنشئة والنشاط الاجتماعيين. وها هو ذا التحدى ماثل بين ظهرانينا، بل وفى داخل أراضينا من واقع التخلف. واقع مادى يحاصرنا ويأزمنا. والسؤال عن الاستجابة وعن المستجيب فكرًا وتأهيلاً.

الفجوة بيننا وبين الآخر المتقدم فجوة معرفية، أو معلومات منتجة وموظفة اجتماعيًا، بحيث نعيها ونستوعبها ونمارسها ونسهم فى إبداعها. التخلف الذى نعانيه قبل أن يكون اقتصاديًا هو تخلف ثقافى معرفى؛ لأنه تخلف عن حضارة عالمية تمثل فيها المعرفة العلمية القوة المحركة والدافعة. المعرفة العلمية منهجًا للتفكير، ولغةُ فى التعبير، ومبحثًا للنشاط الاجتماعى، وإطارًا للسلوك والتنظيم، وأصبح اللهاث وراء المعرفة - إبداعًا وترجمةً - سمة العصر حتى بين أكثر البلدان تقدمًا. لقد أصبحت الترجمة ممارسة وآلية يومية فى الدول المتقدمة لنقل

إنجازات الآخرين إلى لغة العلماء والمتخصصين والممارسين من أبنائها. وها هى الولايات المتحدة الأمريكية لا تترجم فقط البحوث والدراسات المنشورة بلغات أخرى فور صدورها، بل تترجم أيضًا تلك التى نشرت منذ قرون. وسبق أن طلبت بالفعل من مركز الأهرام للترجمة والنشر ترجمة كتاب عن الطب فى مصر الفرعونية، وكتاب آخر عن الطب فى الدول الإسلامية. معنى هذا أن الترجمة أداة الأمة على صعيد المنافسة الحضارية لتكون سباقة فى العصر، وأيضًا مرجعًا للثقافة العالمية تنهل منها الأمم الأخرى. وهذا عين ما فعلته أوروبا إبان نهضتها حين ترجمت دراسات العلماء العرب والمسلمين، وحين استعادت ذخائر الإغريق عبر الترجمات العربية لها.

ونحن فى بلدان العالم العربى لن نستطيع أن نعيد تأسيس أنفسنا انطلاقًا من معطيات ذاتية، واعتمادًا على تراث علمى ثقافى موروث مضى زمانه، وبعيدًا عن التواصل الحر مع الثقافات العالمية وآلية الإنجاز العلمى الحضارى العصرى: انفتاح على العالم، وانفتاح عقلانى نقدى على تاريخنا الحضارى، بكل تنوعاته وتناقضاته، منذ فجر الوعى الإنسانى. واستيعاب أو تمثل منهج ولغة التفكير العلمى والإنجاز. ومن شروط التفكير العلمى أن نملك غذاء تاريخنا وواقعنا، والواقع الحضارى للآخر، عقلاً علميًا ناقدًا يشكل أساسًا لرؤية مستقبلية واستراتيجية تنموية شاملة لجميع أنشطة وعلاقات المجتمع عند مستوى العصر، وهذه الاستراتيجية التنموية هى جهد قائم على الأخذ والعطاء، أو لنقل:

جناحاها: دراسة إبداعية جذورها نشاط اجتماعى إنتاجى، وترجمة معبرة عن هذا ومتكاملة معه.. ترجمة تأخذ عن وعى نقدى، وتنتقى وتحفز وتنهض بالمجتمع فكرًا ولغةً ونشاطًا متعدد المناحى، وتسهم فى صوغ منظومة معرفية قيمية تقف بالمجتمع ندًا وكفئًا فى ساحة النزال الحضارى، وله استقلاله الحداثى معًا.

والهدف أن نبتكر صيغة لنهضتنا تتجلى فى علاقاتنا الاجتماعية على نحو جديد، وفى إنجازنا العلمى النظرى والتطبيقى على مستوى العصر، وأن يكون منطلقنا وعى علمى بواقعنا وقضاياه والتحديات الماثلة، ووعى علمى بالواقع الإقليمى والعالمى من حولنا، وبكل ما يجرى على أرضنا وآفاق المستقبل. ولن يتسنى ابتكار وإنجاز هذه الصيغة إلا بفضل جهد مجتمعى مؤسسى، أى قائم على مؤسسات تحظى بحرية الفكر والتعبير، كمناخ عام راسخ حقيقى، وتحظى بحق التواصل العالمى الحر مع المجتمعات الأخرى. التى هى بدورها مجتمعات قائمة على مؤسسات متقدمة. ويترسخ هنا مبدأ حرية انتقال المعلومات، وينهض كل مجتمع من خلال نشاط الترجمة بالحوار، أى بالترجمة والتفاعل. ولهذا أضحت جهود الترجمة هى جهود مؤسسات ضالعة بدورها المميز فى استراتيجية التنمية والمواجهة الشاملة.

إن المجتمع لا يستطيع أن يصوغ مثل هذه الاستراتيجية، ولا أن يصوغ صورة المستقبل، ولا أن يعيد بناء مؤسسته الداخلية لتكون أهلاً للمواجهة، إلا إذا جرى تنظيم سياسته العلمية فى ضوء الصلات الثقافية

الوثيقة بمؤسسات البحث العلمى فى البلدان المتقدمة واستيعاب إنجازاتها؛ شريطة توافر مناخ محلى عام داعم وواع بالعلم قيمةً وأداةً ومنهجًا. ولن يتأتى هذا إلا بفضل سياسات ثقافية واقتصادية وإعلامية وعلمية وتعليمية تحشد الجهود، ويكون الإنسان العام عنصراً إيجابيًا حرًا ومتحرراً من كل أسباب التجهيل والتضليل الإعلامى والأيديولوجى. أعنى: حين يفكر أبناء المجتمع عبر الحقيقة وتأسيسًا على رؤية علمية صحيحة؛ وصولاً إلى هدف قومى يدعم الانتماء، ويشحذ الجهود، وتنتفى معه كل مشاعر الاغتراب. بحيث تكون الأمة فكراً وقيمًا ووجدانًا مؤمنة بالتقدم العلمى، راغبة فيه، حريصة عليه، ومثقفة به، وواعية بكل ما يجرى على الساحة العالمية من أمور وثيقة الصلة.

وتمثل الترجمة فى إطار هذا التطور مؤشراً على طبيعة واتجاه الحراك الاجتماعى وقوة الدفع، ابتغاء النهوض أو اطراد التقدم، ودالة على الوعى بالذات فى إطار المنافسة أو الصراع على الوجود أى: باعتبار الترجمة بعامة والترجمة العلمية خاصة - حسب مقتضيات حضارة العصر - دالة على موقف وهدف اجتماعى واستراتيجى ودالة على صدق العزم ومصداقية الجهد، قياسًا إلى عناصر التحدى. وشهادة التاريخ القديم والحديث والمعاصر أن ازدهار الترجمة واكب - إن لم - يسبق حركات النهوض الاجتماعى، ولازم التقدم المطرد للمجتمعات.

شهادة التاريخ

شهادة التاريخ قديمة قدم المجتمعات فى التواصل ونقل الخبرات والمعلومات؛ إذ تشهد الوثائق والتسجيلات والنقوش كيف أن الحضارات القديمة فى مصر وبابل والصين... إلخ، قدمت إنجازات مترجمة إلى اللغات الأخرى ونقلت عنهم. مثال ذلك: مخطوطات نجع حمادى التى تم العثور عليها مصادفة فى منطقة نجع حمادى فى صعيد مصر عام ١٩٥٤، ويرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الرابع الميلادى؛ إذ تحتوى على ترجمات إلى اللغة المصرية القبطية لعديد من الدراسات والنصوص، مثل : فصول من جمهورية أفلاطون، ونصوص زرادشتية، بل ونصوص فلسفية يونانية قديمة كانت مفقودة. وهناك شهادة أواخر العصر الأموى فى عهد خالد بن يزيد الذى كرس حياته لدراسة علوم الإغريق، وأمر بترجمة مؤلفات الكيمياء والطب، ثم شهادة العصر العباسى وقد تنوعت مصادر الترجمة من اللغات السريانية واليونانية والفارسية والهندية؛ مما ساعد على النهوض باللغة العربية، وأضحت لغة جميع الشعوب من بغداد إلى قرطبة، بل ولغة العلم شأن اللاتينية بعد ذلك فى أوروبا. وهكذا تفاعلت الدولة الإسلامية فى عز نهضتها تفاعلاً إيجابيًا مع الحضارات الأخرى المحيطة بها، وإن كانت حضارات آفلة، ولكنه التفاعل الذى أكسبها منعة وقوة ضمنا لها الحياة زمنًا. ثم نشاط الترجمة فى الأندلس

وعقب سقوطها مباشرة؛ إذ تمت ترجمة علوم العرب إلى اللاتينية لتكون أساسًا لنهضة أوروبية. ونجد شهادة صدق أخرى فى مصر أيام محمد على، ودور رائد النهضة الثقافية رفاعة الطهطاوى، ثم فى مطلع القرن العشرين مع زخم الدعوة إلى الاستقلال والنهضة؛ إذ ازدهرت الترجمة آنذاك فى مصر وفى متصرفية لبنان وبيروت.

وشهادة اليابان حين اكتشفت جفاف ينابيع التقليد وقصور الموروث عن مواجهة الجديد، وعقدت العزم على تجاوز هوة التخلف والانضمام إلى ركب التقدم. هنا أدركت وقررت أن العلم هو أداتها للنهوض، شريطة أن تمتلك ناصيته. ومن ثم عنيت بتعليم اللغات الغربية فى اقتران بنهضة تعليمية ودستورية شاملة لبرامج التعليم وتنظيم المجتمع وصناعة العقل؛ حيث احتلت العلوم مكانة متميزة وسامية. وجعلت اليابان فى عصر "الميجى" - أو النهضة - العلم والتعليم ضمن خطتها التنموية الأشمل، وسيلة لاكتساب المهارات والخبرات واتساع نطاق الحكمة وإنتاج الموهوبين، أى جعلت العلم والتعليم أداة لبناء الإنسان القادر على تغيير المجتمع وبناء اليابان المعاصرة تحت شعار : "أمة غنية وجيش قوى". ونشطت حركة البعثات التعليمية والتكنولوجية، كما نشطت حركة الترجمة .. ترجمة العلوم والمعارف العلمية النظرية والتطبيقية. وأصابت اليابان آنذاك - ولاتزال - حُمَّى التهام ثقافة وعلوم وتكنولوجيا الغرب، وبذا تفتحت وازدهرت الذاتية القومية اليابانية فى صورة حضارية أصيلة، ونهضت اللغة والفكر. وأقيمت فى اليابان مع بداية عصر

"الميجى" المؤسسة الهولندية، التى اضطلعت بأعباء إنشاء حركة ترجمة واسعة النطاق، وقرأ اليابانيون إنجازات أعلام الفكر والعلم فى أوروبا. وعقدت اليابان اتفاقات مع كبرى دور النشر العالمية لإصدار طبعة باللغة اليابانية من إصدارات هذه الدور حال صدورها بلغتها الأصلية. ويقدر عدد العناوين المترجمة فى اليابان آنذاك فى أوائل القرن العشرين، بحوالى ألف وسبعمائة عنوان سنوياً، وهذا جهد مهول لا يدانيه إلا جهد اليابان فى محو الأمية تماماً خلال بضع سنين، والتوسع فى إنشاء المؤسسات التعليمية والجامعات، حتى سبقت فى هذا المضمار أكثر البلدان الأوروبية تقدماً آنذاك.

وكان هذا هو أيضاً حال الاتحاد السوفيتى السابق فى مستهل نشأته، حين عقد العزم على النهوض من وهدة التخلف وقبول التحدى. فقد أنشأ لينين - ضمن استراتيجية شاملة - جهازاً للترجمة ضم أكثر من مائة ألف مترجم لنقل علوم الغرب إلى اللغة الروسية. وكان يشرف بنفسه على هذا الجهاز الذى حقق المعجزة بأن أصبح الاتحاد السوفيتى السابق موطناً للإنجاز العلمى. وتطورت اللغة الروسية لتكون لغة العصر والعلم. وكان الاتحاد السوفيتى قبل انهياره يضم أكثر من مليونى مترجم عن جميع لغات العالم. وما كان لهذا كله أن يتحقق لولا تطوير جذرى عصرى للتعليم، ولولا اقترانه بنهضة علمية ودعم المؤسسات العلمية، ولولا حشد جهود الترجمة والمترجمين فى وضع مؤسسى مخطط ومنهجى؛ ليكون نشاط الترجمة استجابة لحاجة مجتمعية.

وهذا هو حال إسرائيل، التى ظهرت إلى الوجود كمجتمع ودولة بينما اللغة العبرية شبه ميتة، وإذا بها تصبح لغة علم، وأضحت إسرائيل قوة علمية وتكنولوجية، أو أصبح العلم قوة داعمة وأداة حماية تتحدى به كل من حولها. وعلى الرغم من أن نصف سكانها مهاجرين يجيدون لغاتهم الأصلية، فإننا نجد حركة الترجمة نشطة للغاية. وهذا ما سوف نعرض له من خلال الدراسة والإحصائية المقارنة.

واقع العالم العربى

الترجمة فى التاريخ العربى موقف ثقافى اجتماعى من المعرفة إنتاجًا وإبداعًا وتحصيلاً وتوظيفًا. والملاحظ أنه على الرغم من كل الزهو والتباهى بعصر الترجمة فى الدولة العباسية، على قصره الشديد بل وهامشيته، وكذا حقبة الترجمة فى العصر الحديث التى بدأت فى مصر مع مطلع القرن التاسع عشر، فإن الترجمة كنشاط أو دور اجتماعى هادف لا تزال إشكالية، أى قضية خلافية يتصارع بشأنها رأيان. فالترجمة بمعنى حق الأمة العربية فى أن تكثف سعيها لكى تنهل بحرية من معارف الآخرين ولا تقنع بما لديها، وكله موروث وليس بالجديد، يراها البعض غاية مرذولة وهدفًا خطرًا عند الكثيرين. بينما يراها القليلون فرضًا واجبًا وضرورة، وهؤلاء هم دعاة التحديث الاجتماعى. ترى هذه القلة أن الترجمة شرط النهضة، بينما يرى الأكثرون من أهل التقليد، أن العلم هو العلم الذى ينفع فى الآخرة. هكذا كان السلف فى زعمهم؛ ومن ثم فإن الترجمة على إطلاقها هى عندهم عامل هدم وتغريب وفيروس سرطانى يتعين التحصين ضده، أما كيف؟ فذلك بأن نحتمى وراء أصالتنا أى ثقافة التقليد؛ كأن الأصالة كينونة اكتملت مع الأقدمين، صاغها السلف، ومستقلة عنا نحن التابعين. ومع هذا يتحدثون عن نهضة وصحوة، بدون علوم الآخرين؛ حفاظًا على الذاتية التى هى ذاتية

دينية سلفية، وكأن النهضة شرطها سد السبل ضد هذا الفيروس الوافد اللعين، وفرض حجاب على الفكر دون أسباب الغواية والتضليل التى هى علوم الآخرين. وتتضخم عقدة التمحور حول الذات وكأن ما قاله الأقدمون هو القول الفصل المبين ولا حاجة إلى مزيد. وهكذا يصدر الحكم إطلاقًا دون بيان أو تمييز (انظر أنور الجندى، حركة الترجمة، دار الاعتصام ١٩٧٩). ونجد فى المقابل من يرى فتح الباب على مصراعيه دون استراتيجية تنموية شاملة توجه خطانا وتستهدف الاندماج كعناصر مساهمة بفعالية وكثافة فى إبداع وإنجاز علوم العصر. وهنا يكون الهدف تجارة للاستهلاك لا دعامة للبناء.

وجدير بنا الإشارة هنا إلى الفارق بين الترجمة والتعريب، حيث يعنى التعريب، الذى يدور بشأنه الحديث كثيفًا وملحًا فى بلدان المغرب العربى، الدعوة إلى استمرارية اللغة العربية لغة الأم فى الثقافة والحياة تأكيداً للأصالة. نجد هذا واضحًا فى البلدان التى خضعت للاستعمار الفرنسى الذى اتبع نهجًا محدداً هو الاستيعاب؛ أى استيعاب مستعمراته وكأنها أجزاء من فرنسا بحيث تفقد هويتها ولغتها القومية. ونجد فى المغرب العربى من يدعو إلى الانفتاح على الثقافة العالمية بلغة أجنبية (الفرنسية)؛ ومن ثم لا داعى للترجمة. ويرى البعض الآخر عدم الانفتاح والاقتصار على العربية. وهنا نجد المثقفين البرجوازيين فكراً وانتماء يرون أن لا حاجة إلى الترجمة، وهنا موقف يدعم التمييز النخبوى ثقافيًا، ويحول دون مقرطة الثقافة التى هى شرط للتحديث الاجتماعى.

والسؤال الأول عندى ونحن نجرى دراسة استقصائية تحليلية لحالة الترجمة فى بلدان العالم العربى: ما نصيبنا من الفكر العلمى أخذًا وعطاء، ولن أقول: التفكير العلمى المنهجى، وإن كان كل منهما شرطًا أو وجهًا للآخر؟. وما نصيبنا من الفكر العلمى العالمى ودوره الفاعل فى حياتنا (أعنى الترجمة العلمية)، وليس نصيبنا من الإنجازات التكنولوجية، وهى أيضًا وجه مكمل ومتكامل مع إبداع الفكر العلمى، وقنعنا باستيرادها سلعًا استهلاكية؟. وكيف يجرى اختيار هذا النصيب الذى نحصل عليه شذرات - لا نسقًا - بعدد الأفراد الذين حظوا بالاطلاع عليه؟ وهل يمثل الفكر العلمى المترجم ركائز العلوم الأساسية البحتة والتطبيقية، ويجسد عندنا دعامة أساسية فى بنية تنموية استراتيجية ورؤية مستقبلية لمجتمعاتنا العربية؟

ليست الترجمة كما قلنا نقل معارف فحسب؛ بل تواصلاً حرًا بين الحضارات. ولا يكون هذا التواصل مثمرًا إلا حين تؤرقنا روح المغامرة الإنسانية التى يزكيها نهم معرفى لاستيعاب إنجازات وفتوحات العلم المرتكز على عبقرية الإنسان من أجل تغيير الواقع بإرادته! تغيير واقعنا الثقافى والبناء الاجتماعى بسبب حاجتنا الملحة إلى ذلك؛ وبذا نكون بنائين للحضارة عن وعى وإرادة وعقلانية. إننا قد ننقل نصوص النظريات أو المصطلحات، ولكن يظل حديثنا بها رطانًا؛ لأننا لا نستطيع أن ننقل الرأس المبدع ولا حياة وتاريخ النشاط الإنتاجى الخالق له. وقد نستورد نظريات ومناهج التعليم، ولكننا لا نستطيع أن نستورد الشغف بالعلم والنهم المعرفى؛ أى روح التعليم ذاته.

والسؤال : ما هو واقع الترجمة بعامة، والترجمة العلمية بخاصة فى عالمنا العربى ؟

نبدأ الإجابة بنبذة سريعة عن الترجمة إلى العربية فى العصر الحديث :

يرجع تاريخ الترجمة فى العالم العربى خلال العصر الحديث أو مطلع القرن التاسع عشر، أى بينما كانت لا تزال المجتمعات العربية واقعة تحت نير الحكم التركى، الذى حاول فرض سياسة التتريك وجعل اللغة التركية هى اللغة السائدة فى الثقافة والحديث وفى الدواوين. ويبرز هذا الاتجاه بوضوح فى بلدان الساحل الشرقى للمتوسط.

يبرز هنا مركزان للترجمة : متصرفية أو جبل لبنان أثناء الحكم العثمانى. وجاءت ولادة الترجمة هنا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحركة التبشير، وفتح المدارس العربية لمواجهة سياسة التتريك؛ ومن ثم إحياء أو الحفاظ على اللغة العربية. وتحول لبنان إلى أحد أبرز مراكز الحوار العربى الأوروبى. وأعلنت الجماعات التبشيرية التى توافدت على لبنان منذ القرن الـ ١٨ - أن رسالتها هى التنوير وإنشاء المدارس وتشجيع التدريس باللغة العربية. وكان واضحًا أن الهدف هنا هدف أوروبى ضمن الصراع بين سيطرة تركية متهاوية وبين قوى أوروبية استعمارية صاعدة، ورأت سبيلها فصل المنطقة ثقافيًا عن تركيا وتعزيز اللغة العربية أداةً للثقافة. ولكن حرى بنا أن نشير إلى أن جماعات المبشرين لم يكونوا هم طليعة التنوير الحداثى فى أوروبا العلمانية العقلانية؛

بل ارتبط معظمهم بالقوى الاستعمارية الساعية للسيطرة على البلدان العربية.

وقدمت لبنان بعد ذلك من خلال الجامعة الأمريكية فى مطلع القرن العشرين أعلامًا فى الفكر العربى من أمثال : بطرس البستانى الذى أصدر دائرة معارف البستانى، وأمين المعلوف الذى أصدر معجم الحيوان والمعجم الفلكى ومعجم النبات، وكذلك فارس نمر ويعقوب صروف وقد أصدرا مجلة المقتطف التى تضمنت الكثير من المقالات والدراسات المترجمة.

ولكن حركة الترجمة بمعناها الحقيقى كتيار اجتماعى نشط فى مجال ترجمة علوم الغرب بغية تحديث المجتمع قد بدأت فى مصر منذ أن تولى محمد على السلطة، ورأى أن سبيله للاستقلال بمصر تحديث جيشها ضمانًا لمواجهة السلطان التركى. وعنى محمد على بإرسال البعوث إلى أوروبا لتلقى العلم ونقل العلوم إلى العربية. ويعتبر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى بحق إمام التنوير والعلمانية؛ إذ جعل الترجمة مؤسسة اجتماعية تعمل على تنفيذ مشروع قومى اجتماعى لتحقيق نهضة فى العلوم والصناعات. ويعبر تاريخ الترجمة فى مصر عن حالة المد أو الانحسار للحياة الثقافية للمجتمع المصرى بل للمجتمعات العربية فى سعيها من أجل الاستقلال والاندماج فى حضارة العصر. وقد ساهمت الترجمة من بداية تاريخها فى بلورة الاتجاهات الأساسية لحركة النهضة. وساعد على هذا ترجمة تيارات الفكر ومناهج البحث؛

مما ساعد على علمية التوجه ومناقشة الفكر الاجتماعى، ورسم خطوات النهضة والارتقاء بالحوار، والاطلاع على إنجازات العلوم ومناهج بحثها. وانعكس هذا كله على صفوة المثقفين وعلى حركة التثقيف العام للجميع.

بدأ تاريخ الترجمة فى العصر الحديث للعالم العربى انطلاقًا من هذين المركزين: مصر ولبنان، مع اختلاف الحوافز والدوافع والمسار والفعالية الاجتماعية فى كل منهما. وتعثر نشاط الترجمة أو انحسر بعدما أصابت النهضة انتكاسة؛ بسبب الدور الاستعمارى الأوروبى والنظم الاستبدادية الأوتوقراطية من الداخل. ولكنها لم تنعدم وإن تغير مضمونها ومدى تشابكها فى النسيج الاجتماعى. وإذا حاولنا أن نجرى دراسة وثائقية تحليلية لنشاط الترجمة كمًا وكيفًا فى البلدان العربية خلال الحقبة الحديثة والراهنة - سنجد أن ذلك يكاد يكون ضربًا من المحال.

وهنا ننتقل إلى الوضع العربى الراهن للترجمة فى دور الدراسة الاستقصائية على أساس من المسح الميدانى. وقد لاحظنا ما يلى :

• إن أكثر البلدان العربية حديثة عهد بنشاط إصدار الكتب، ناهيك عن الترجمة؛ بل إن بعض البلدان لا نجد لها اسمًا على خريطة صناعة الكتاب تأليفًا وترجمة فى الإحصاءات الدولية. ويبدو كأن غالبية البلدان العربية تعيش عصر الثقافة الشفاهية.

• الترجمة ترف فردى فى أغلب الأحيان، وجهد متباين التوجهات؛ مما يعكس غياب رؤية عربية عامة تعى مقومات العصر ومقتضياته

وتحدياته.. عصر ثورة معلوماتية إنتاجًا إبداعيًا وتوظيفيًا، وعصر إبداع علمي وتكنولوجي، والتزام بمنهج تفكير علمي.

• الكتاب المترجم لا يصل إلى أكثر من ٥٪ من إجمالي المنشور على المستوى العربي، في ضوء الإحصاء لعدد من دور النشر، وقد يصل إلى صفر بالمائة بالنسبة للكتب العلمية المتعلقة بعلوم العصر الأساسية. والكتاب المترجم على المستوى الحضاري متعدد أو متنافر الاتجاهات والمستويات لا يكشف عن توجه مجتمعي غالب في اتجاه العصر. وإنما كتاب يربطنا بل ويحصرنا في ماضي سلفي على أساس أيديولوجي وقطيعة حضارية مع العصر. أو كتاب يربطنا بالعصر على أساس أن العصر عصر أعاجيب ومعجزات. أو كتاب معرفة استهلاكية. والقليل النادر الذي يصوغ ذهنية علمية إبداعية للإنسان، ويحدثنا عن العصر منهج فكر ونظريات ويضعنا في إطار معرفي / قيمي لحضارة العصر على نحو يحفزنا إلى البحث. ثم إن هذا الكتاب نراه متعثرًا في طريقه إلى القارئ العربي كأنه غريب في بلد غريب. وحظه من توصيل المعرفة لا يتجاوز حدود الدهشة؛ إذ يتلقاه القارئ على نحو ما يتلقى إعجازات الغيب، التي لا تأخذ سمة التحدي الدافع إلى التطبيق.

• الترجمة جهد فردي وعلى الرغم من محدوديتها فإنها تتم بدون تخطيط، وإنما انتقائية فردية على مستوى المترجم أو الناشر.

• الملاحظ أن ثمة حاجزًا فاصلاً كثيفًا بين بلدان ومثقفي العالم العربي وبين إصدارات العالم المتقدم دون أي محاولة مجتمعية منظمة

لكسر هذا الحاجز أو زيادة درجة شفافيته وصولاً إلى تضييق الهوة المعرفية العلمية بيننا وبين العالم المتقدم؛ الأمر الذى يجعل من الضرورى ضرورة مطلقة - سرعة بذل الجهد فى هذا الاتجاه من خلال مشروع "مؤسسة عربية للترجمة".

• من أخطر الظواهر أن القدر الأكبر من الترجمات الصادرة عن دور النشر هى ترجمات لحساب هيئات ومراكز رسمية أى دبلوماسية أجنبية (مركز الكتاب الأمريكى، البعثات الفرنسية، مؤسسات فولبرايت... إلخ) مما يعنى غياب الرؤية والمصلحة القومية.

• لا توجد إحصاءات ببليوجرافية شاملة ودقيقة عن واقع الترجمة خلال القرنين ١٩ و ٢٠ ، تكون أساسًا للتحليل وتحديد رؤيتنا، وإذا أخذنا مصر كمثال باعتبارها الرائدة والأكثر كثافة من حيث الإنتاج نجد بين أيدينا "دليل الكتاب المصرى"، وهو قوائم الكتب المتاحة لدى الهيئة العامة للكتاب كجهة إحصاء، باعتبار أنها الجهة الرسمية التى يودع لديها الناشرون إصداراتهم.

• غياب دليل للمترجمين العرب وتخصصاتهم، ولا يوجد غير دليل واحد أصدرته المنظمة العربية للتربية، وهو قاصر ومبتسر؛ نظراً لأن طريقة تأليفه تمت بتكليف جهات حكومية غير معنية بالنشر (جامعات وهيئات)، والنتيجة أن أدرج أساتذة الجامعات والموظفون أسماءهم. وظل الدليل حبيساً وكان لا أحد بعدهم منذ عشر سنوات.

• غياب جيل جديد من المترجمين الخبراء المجيدين والمتخصصين؛ إذ الملاحظ فى السوق نفس الأسماء القديمة للترجمات الجيدة.

• الترجمات جلها فى العلوم الإنسانية بالمعنى التقليدى (الأدب والسياسة والأيديولوجيا الدينية)، أو كتب للتسلية، أو كتب تعليمية؛ لأنها الأكثر رواجًا وربحية لدور النشر. والترجمة العلمية شبه غائبة، وما يوصف بالعلمية هى كتب عن نظم تشغيل الكومبيوتر، وإصلاح الفيديو والثلاجة... إلخ.

إحصاءات مصرية

إذا حاولنا الاسترشاد بحالة مصر تأسيساً على إحصاءات دليل الكتاب المصرى يبين لنا الآتى :

الثبت الببليوجرافى فى الأعمال المترجمة فى مصر فيما بين ١٩٥٦-١٩٦٧ الصادر عن هيئة الكتاب ويحوى - كما تقول المقدمة: "الجديد لما ترجم فى بلدنا خلال سنوات ١٩٥٦ - ١٩٦٧"، أى على مدى إحدى عشرة سنة نلحظ الآتى :

جملة العناوين المترجمة ٤٢٦١ عنواناً، أى بمتوسط ٤٠٠ عنوان فى السنة من بينها :

٢٧٤ عنواناً (أى أقل من ٦٪ وحوالى ٢٧ عنواناً فى السنة) رياضيات وعلوم بحتة.

١٨٥ عنواناً (أى أقل من ٥٪ وحوالى ١٨ عنواناً فى السنة) علوم تطبيقية، طب وزراعة وصناعة وتكنولوجيا.

٣٨٠٢ (أكثر من ٨٠٪، وحوالى ٣٨٠ عنواناً فى السنة) إنسانيات غالبيتها أدب، وديانات، وتاريخ وتراجم.

دليل الكتاب المصرى لعام ١٩٧٩ :

جملة الإصدارات فى جميع الذخصصات مؤلفة ومترجمة ١٥٤٢٧ عنواناً.

ومن بينها علوم بحتة وتطبيقية .ؤلفة ومترجمة ٦٤٩ عنواناً (حوالى ٥٪).

إصدارات العلوم المترجمة ١٤٥ .

مع ملاحظة أن الإحصاء هنا شامل الإصدارات الموجودة فى السوق منذ الخمسينيات، بمعنى أن عدد الإصدارات ليس إصدارات ١٩٧٩، بل أكثر من عشرين عاماً، ولكنه لا يزال متاحاً.

ومن بين هذه القائمة ٣٣٩٢ ديانات ، أى حوالى ٢٥٪ .

ومن بينها ٢٠ عنواناً مترجماً.

و ٣٢٦٧ فى العلوم الاجتماعية منها ٢٨٦ مترجماً.

دليل الكتاب المصرى عام ١٩٨٣ :

(الحصر هنا متداخل مع الدليل السابق)

٥٩٤ عنواناً فى العلوم البحتة ، مؤلفاً ومترجماً (بأقل من ٥ر٢٪) .

من بينها ٧٩ عنواناً مترجماً.

١٨٢٦ عنواناً فى العلوم التطبيقية ، مؤلفاً ومترجماً.

١٩٠٠٠ عنواناً فى الإنسانيات مؤلفاً ومترجماً.

ومن بينها ٣٨٠٧ ديانات (٢٨٠ مسيحى – ٢٥٢٧ إسلامى).

٨٦٤ فلسفة.

٦٦٤٢ فى العلوم الاجتماعية.

٣٩٩٦ فى الآداب.

٢٦٠٠ فى التاريخ والتراجم ... إلخ.

دليل الكتاب المصرى عام ١٩٩٠ :

يضم أكثر من ٦٢٠٠ عنوان مؤلف ومترجم فى جميع التخصصات.

(هى إصدارات سنوية سابقة) .

٣٥٠ عنوانًا مؤلفًا ومترجمًا فى العلوم البحتة والعلوم التطبيقية.

كمثال :

الطب النبوى ، إصلاح التليفزيون، العلاج بالأرواح، الطب الروحانى، الجبن الدمياطى وصناعته، الرضا لمن يرضى.

٢٤ عنوانًا كتبًا علمية مترجمة.

دليل الكتاب المصرى عام ١٩٩٣ :

ضم أكثر من ٣٥٠٠ عنوان مؤلف ومترجم (لعدة سنوات) من بينها ٢٠٠ عنوان و٢٥ عنوانًا فى مجال العلوم الرياضية البحتة والتطبيقية.

ونلاحظ على ما سبق :

ضآلة عدد العناوين المترجمة إجمالاً، وهو ما سوف يتضح لنا من خلال الدراسة المقارنة، وهو ما أكدته لنا عملية المسح الميدانى لنشاط الترجمة فى البلدان العربية. والترجمة العلمية هزيلة جداً بل هى خارج الإطار الحضارى، وبعيدة عن ترجمة أساسيات الفكر العلمى الذى يضعنا على عتبة العصر ويدفع حركة التقدم ويصوغ نظرة شاملة إلى الحياة: الإنسان والمجتمع والكون، ويرسخ أسس العقل النقدى والتفكير العلمى كتكوين ذاتى قادر على مواجهة واقع متغير فى استجابة ملائمة للتحديات. وأكثر من هذا أن الإنسانيات التى يتغذى عليها العقل العربى ليست تطبيقًا للمنهج العلمى فى التفكير والتحليل لتسهم فى صوغ إنسان قادر على تحقيق ذاته والتلاؤم الحضارى، أى قادر على النمو والتقدم على مستوى حضارة العصر. وإذا ما استعرضنا الإصدارات المؤلفة والمترجمة منذ الأربعينيات ومشروع الألف كتاب الأول حتى اليوم - نجد انحساراً واضحًا فى نوع وكم الكتب ذات التوجه العلمى الحضارى، من حيث النسبة العامة. وتكفى هنا الإشارة إلى تحقيق نشرته صحيفة الأهرام (ملحق ١٩/٥/١٩٩٥) يعلن أن آخر إحصائية أصدرتها دار الكتب تشير إلى أنه قد صدر خلال العام الماضى وحده أكثر من ثلاثة آلاف كتاب تحمل عناوين الدجل والشعوذة، يتم تداولها الآن مع الباعة وفى المكتبات، وتتناول ما يسمونه العلاج الروحى. هذا فى الوقت الذى لم يصدر فيه كتاب واحد يواجه هذا السيل من كتب الدجل والشعوذة التى تخرب عقل القارئ المصرى. وإذا كنت قد اكتفيت الآن بعرض حال المنتج المصرى عدداً ونوعًا؛ فذلك لأن العينة المصرية

هى الغالبة قياسًا إلى حجم المنتج العربى بعامة؛ إذ تكاد تكون مصر قبل ثلاثة عقود هى البلد الوحيد – مع لبنان – المنتج للترجمة.

والملاحظ عمومًا أن الترجمة فى عالمنا العربى أضحت نوعًا من الترف الذهنى فى الغالب الأعم للاستهلاك، أو أنها مجرد جهد من أجل نقل معلومات فحسب، وتخضع لمبدأ الربح التجارى. إنها تفتقر إلى البرامج على المستويين القطرى والقومى؛ ومن ثم لا علاقة لها بمحاولة منهجية لدراسة الواقع بلغة التطور، أو التطوير الاقتصادى الاجتماعى الثقافى. إنها لا تخضع للتخطيط بل هى نشاط اجتماعى فى صلب حراك مجتمعى هادف يساهم فى الانتقال بالمجتمع من حال إلى حال أخرى، أى من طور التخلف إلى طور النهوض حسب رؤية مستقبلية مدروسة مسبقًا، وتصوغ الوعى الاجتماعى. ولكى يكون للترجمة دورها لابد وأن تكون نشاطًا اجتماعيًا مؤسسيًا يمثل عنصرًا متكاملاً فى استراتيجية ثقافية هى بدورها وجه لاستراتيجيات تنموية شاملة، وبهذا الشكل تشكل تيارًا سائدًا، وجناحًا آخر للإبداع الداخلى؛ بحيث يعبران معًا عن التوجه الفكرى والتنموى للمجتمع فى حركته المستقبلية؛ ومن ثم تكون الكتب المترجمة دالة وشاهدًا على المضمون الفكرى للتطور الاجتماعى والبناء الحضارى للذاتية القومية فى اتصالها التاريخى وتواصلها الحضارى الإنسانى.

معوقات الترجمة فى العالم العربى

أزمة الترجمة هى أزمة مجتمع. وإذا كان لنا أن نحدد طبيعة المعوقات فى ضوء دراستنا الميدانية فإننا نجملها فيما يلى :

١ - فقدان خطة أو استراتيجية تنموية شاملة تعبئ طاقة البلد أو البلدان العربية وتكون أساسًا لنشاط علمى مجتمعى إبداعى. وتشكل هذه الاستراتيجية الأساس المجتمعى المادى لحرية الفكر والإنسان. وهذه هى أيضًا مشكلة القارئ واللغة والكتاب.

٢ - الثقافة والتنمية الفكرية العقلانية العلمية تحتل - إن وجدت - مرتبة ثانية.

٣ - التنشئة الاجتماعية التى ترسخ حالة الانحصار الذاتى وتقتل الفضول المعرفى وروح المغامرة والتمرد.

٤ - النظام التعليمى الذى يعتمد على الحشو ولا ينمى القدرات العقلية والفضول المعرفى والنهج العلمى النقدى والتحصيل الثقافى، وأيضًا عدم الاهتمام باللغات. والقيمة العليا فى التعليم هى لاستظهار النص.

٥ - الطابع الفردى فى اختيار الموضوعات، وكذا على مستوى النشر، فضلاً عن أولية اعتبار الربح.

٦ - عدم توحد المصطلح العربى.

٧ - التخلف الحضارى والعلمى (ومن مظاهره شيوع أمية القراءة والكتابة، ناهيك عن أمية التعامل مع تكنولوجيا المعلومات المعاصرة، واستيعاب دلالة ومحتوى هذه المعلومات ومواكبتها، وسيادة نزوع هروبى باسم القناعة بعلوم السلف أو أسلمة العلوم).

٨ - عدم توافر القواميس العلمية، وهذا طبيعى؛ نظراً لعدم حاجة النشاط الاجتماعى السائد والفكر المتخلف لمثل هذه القواميس.

٩ - الافتقار إلى تنظيم مؤسسى للمترجمين يكفل حقوقهم، ويرتفع بمستوى الأداء والعطاء.

١٠ - الأمية العلمية والثقافية، وأهم مظاهرها تدهور قيمة العلم اجتماعياً، وشيوع الخرافة والدجل والشعوذة.

١١ - الافتقار إلى التمويل فى بعض البلدان، وإن كانت جميعها تعطى أولوية لأمور أخرى مظهرية ولا تعتبر الثقافة، ومن بينها الترجمة، استثماراً إنتاجياً اجتماعياً بعيد المدى.

١٢ - الجامعات ومراكز البحث ليست على مستوى المنافسة العالمية، وهو ما يتمثل فى إنتاجها وإسهاماتها فى المؤتمرات العلمية العالمية.

١٣ - لعل من أهم معوقات الترجمة العلمية أو الانصراف عنها - أن الترجمة العربية لاتزال تفتقر إلى البرامج على المستويين القطرى

والقومى، أعنى كفالة وحدة اللغة والفكر قوميًا. والقدرة على المساهمة الحضارية عالميًا؛ انطلاقًا من تأكيد الذاتية القومية. وحرى بنا أن نطرح السؤال التالى :

كيف نساهم فى بناء الذات دون دراسة الواقع بلغة التطور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى بمنهج علمى، ودون رؤية مستقبلية، ودون قارئ ناضج علميًا أو يفكر علميًا ونهج للمعرفة تواق للاستكشاف والبحث؟ من هنا نجد ضرورة إنشاء مؤسسة عربية للترجمة. وفى ضوء هذا يتحدد دورها القومى.

وفى ضوء ما سبق يبين أن ازدهار حركة الترجمة رهن وضع استراتيجية تستهدف ازدهار المجتمع والإنسان ماديًا وفكريًا، وأن تعبر عن زخم أو قوة دفع وحراك فى المجتمع. إننا ونحن نفكر فى الترجمة يجب أن نفكر فى القارئ - الذى هو المجتمع - ومشكلاته وأثر بيئته عليه سلبًا وإيجابًا.

ونشير هنا - على سبيل المقارنة والتحدى - إلى أن إسرائيل كانت تعى حتى وهى لاتزال مجرد حركة صهيونية وقبل أن تكون دولة - كانت تعى مقتضيات التحدى الحضارى وبناء قاعدة علمية نظرية وتطبيقية تكون ركيزتها وأساسها؛ إذ عنيت بإنشاء الجامعات ومراكز البحوث، وأصبح لديها ضعف ما لدى إفريقيا كلها أو أمريكا اللاتينية كلها من العلماء الذين ينشرون أبحاثهم. كذلك فإن العلماء الإسرائيليين وهم أساتذة جامعات ومعاهد بحوث لا يتركون مؤتمرًا علميًا ينعقد دون أن

يشاركوا فيه بعدد كبير من أوراق البحث. ويحرصون على التواصل عن بعد وعلى الاتصال المباشر بعلماء وجامعات البلدان المتقدمة وتبادل المعلومات. ويحظى أساتذة العلوم الأساسية بأطول الإجازات لمعايشة البحث العلمي والعلماء في الخارج. وهكذا تعبر الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث عن مجتمع يموج بالحركة والنشاط العلميين؛ مما يجعل العلم يحتل مكانة أولى، على عكس الحال في البلدان العربية؛ إذ نرى أن هذا الضرب من النشاط محدود جداً (أنطوان زحلان، العلم والتعليم العالي في إسرائيل، ترجمة محمد صالح العالم، دار الهلال ١٩٧٠).

١٤ - الملاحظ انحسار نشاط الترجمة بعامة في بلدان المغرب؛ نظراً لأن البرجوازية المثقفة تجيد - بحكم النظام التعليمي في ظل الاستعمار الفرنسي - اللغة الفرنسية؛ لذلك نرى هذه الفئة تعرب عن عدم الحاجة إلى الترجمة. ويعيش المجتمع بلغتين؛ مما يفضي إلى شيوع الجهل بالحضارة وعلومها بين من يتحدثون لغتهم الأم فقط، سواء من العرب أم من الأمازيغ (البربر). هذا علاوة على انحسار سوق التوزيع والانصراف عن القراءة العلمية، وهي آفة شائعة في جميع البلدان العربية.

١٥ - الملاحظ أن كتاب المشرق لا يجسد سبيله إلى المغرب، والعكس صحيح، على الرغم من أن الثقافة أداة لتوحيد الوجدان العربي. وأحد أسباب ذلك الافتقار إلى نظام توزيع وتنسيق شاملاً بلدان العالم العربي. وطبيعي أن هذا يؤثر على رواج الكتاب المترجم.

الجامعة العربية والترجمة

عند الحديث عن الترجمة من حيث دورها الثقافى النهضوى وفعاليتها الاجتماعية لا يسعنا أن نغفل دور الجامعة العربية ووعيها بدور الترجمة، وكذا جهودها فى سبيل إصلاح هذا الوضع المتدنى. ولا سبيل إلى إنكار أن ثمة وعيًا عربيًا بهذا القصور الشديد؛ حيث إن الجامعة العربية هى تجسيد للمسئولين الرسميين فى الأقطار العربية؛ ومن ثم جهودها تعبير عن رغبة أو فكرة جرت مناقشتها وألحت على الأذهان. ولكن سوف تنكشف عادة سائدة فى حياتنا وهى الفصل بين الفكر والفعل.

هناك مرحلتان للترجمة تحت رعاية الجامعة العربية تعكس صورة صادقة للوعى بالوضع الثقافى العربى وحالة الترجمة: المرحلة الأولى مع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. وقد أنشئت هذه الإدارة فى منتصف الأربعينيات بناء على المعاهدة الثقافية المبرمة بين الدول العربية عام ١٩٤٥. وتنص المادة السابعة من هذه المعاهدة على "تنشيط الجهود التى تبذل لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة، وتنظيم تلك الجهود، وتنشيط الإنتاج الفكرى فى البلاد العربية بمختلف الوسائل".

وضمت الإدارة الثقافية عددًا من أئمة الفكر العربى المستنير من أمثال طه حسين، وسليمان حزين وغيرهما. وعنيت الإدارة بموضوع الترجمة، واتجهت إلى ترجمة بعض الأعمال الثقافية والعلمية والأدبية. وصدر عنها عدد قليل من أمهات الكتب العالمية من بينها على سبيل المثال: "قصة الحضارة" تأليف ويل ديورانت، وكتاب "السلطة والفرد"

تأليف برتراند رسل، وكتاب "العلم والموارد فى الشرق الأوسط"... إلخ. وكانت تعتزم - بناء على اقتراح طه حسين ترجمة - روائع الأدب العالمى الخالدة، وأن تبدأ بأعمال شكسبير ولكنها توقفت.

المرحلة الثانية تأتى عقب توقيع ميثاق الوحدة الثقافية العربية الذى أقره مجلس جامعة الدول العربية عام ١٩٦٤، وتضمن الدعوة إلى ما دعت إليه المعاهدة الثقافية المبرمة عام ١٩٤٥، أى الدعوة إلى تنشيط الترجمة والإنتاج الفكرى. وأضاف الميثاق الدعوة إلى توحيد المصطلحات العلمية والحضارية ومساعدة حركة التعريب. وتحولت الإدارة الثقافية عام ١٩٧٠ إلى "منظم التربية والثقافة والعلوم" اقتداء بمنظمة اليونسكو العالمية، وتم وضع دستور لها. ونذكر من بين الأعمال التى اضطلعت بها :

١ - الدعوة فى عام ١٩٧٣ إلى عقد حلقة الترجمة فى الوطن العربى، وانعقدت فى الكويت فى ١٩٧٣/١٢/٣١. وبحثت الحلقة فى "تنسيق حركة الترجمة فى البلاد العربية، وإقامة جهاز تنسيق على صعيد العالم العربى يتولى وضع خطة قومية للترجمة بالاشتراك مع الأجهزة الوطنية، وبالتنسيق مع المنظمات الدولية والمؤسسات العلمية الأجنبية المعنية بالثقافة العربية".

٢ - أنشئت بالفعل وحدة للترجمة عام ١٩٨١، ووضعت هدفًا لها :

(أ) إقامة مشروع المعهد العالى العربى للترجمة، وقد استضافته الجزائر ولم يفتح*.

---

* الشروع فى تنفيذه هذا العام .

(ب) إنتاج الترجمات. وأنشئ المركز العربى للتعريب والتأليف والترجمة. وقد استضافته سوريا، ولكنه بدأ العمل منذ ١٩٩٠.

(جـ) التنسيق والتخطيط من أجل :

* نشر دراسات عن واقع الترجمة فى الوطن العربى.

* إصدار دليل المترجمين ومؤسسات الترجمة والنشر، وقد صدر.

* نشر الخطة القومية للترجمة، ونشرت عام ١٩٨٥ .

٣ - وفى الفترة من ٨ إلى ١١ نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٨٢، عقدت أمانة المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت الندوة الثانية بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والعلوم واتحاد الناشرين العرب، وأصدرت الندوة توصيات من بينها :

(أ) إنشاء مؤسسة عربية للتعريب والترجمة والتأليف والنشر تكمل عمل المؤسسات القائمة.

(ب) تنفيذ الخطة القومية للترجمة التى أقرتها المنطقة العربية عام ١٩٨٢، وأقرها من بعدها مؤتمر الوزراء المسئولين عن الشئون الثقافية عام ١٩٨٣ .

٤ - فى محاولة من المنظمة لدراسة واقع الترجمة وجمع المعلومات، أرسلت استبانات تتضمن عدداً من النقاط والأسئلة، ولكنها تلقت إجابات سبع دول فقط. علاوة على هذا توقف المشروع فى أواخر عام

١٩٨٥ بسبب إلغاء وحدة الترجمة بإدارة الثقافة. ولوحظ أن الجهات المختصة فى الدول العربية لم تبذل الجهد اللازم لتنفيذ الخطة. ويكفى الإشارة إلى أن عدداً من الدول العربية لم يعبأ بالرد على الاستبانات المرسلة إليها. هذا علاوة على أن الردود التى وصلت تكشف عن وضع مأساوى؛ مثال :

تونس : تضمنت إجابة تونس أنها أصدرت من ١٩٦٦ إلى ١٩٨١، أى على مدى ١٤ سنة ٣٧ كتاباً فقط من بينها ٨ قصص أطفال. وبعض المترجمات من العربية إلى لغات أجنبية هى ترجمات لخطب الرئيس بورقيبة خلال هذه السنوات.

الجزائر : أفادت أنها ترجمت خلال الفترة من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٠ من وإلى العربية : ٢٤ كتاباً فقط.

السودان : ترجم ١٨ كتاباً من ١٩٦٠ إلى ١٩٧٠، ولم يترجم أى كتاب من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٠ .

سوريا : نشطت حركة الترجمة بعد إنشاء وزارة الثقافة والإرشاد القومى مع قيام الجمهورية العربية المتحدة. والجانب الأكبر من الكتب المترجمة مخصص لتلبية حاجات الجامعة وبضع كتب ثقافية. والغالبية كتب مترجمة من العربية تتضمن الخطب الرسمية وموضوعات حزبية.

ليبيا : أفادت بأنه أنشئ معهد الإنماء العربى بطرابلس سنة ١٩٧٥ من أجل تنمية البحوث وترجمتها. أصدر حوالى ١٥ كتاباً معظمها كتب

مدرسية، وبعضها من العربية مثل : "الكتاب الأخضر"، الذى ترجم إلى عدة لغات.

السعودية : أفادت أن وزارة التعليم لديها شكلت لجنة لاختيار وترجمة المصطلحات العلمية يشارك فيها أعضاء من مكتب التربية العربى لدول الخليج، وحتى الآن - ١٩٨٠ - لم يصدر كتاب واحد.

الأردن : أفاد فى تقريره بعنوان : "واقع الترجمة فى المملكة الأردنية الهاشمية" وكتبه د. عيسى الناعورى فقال : ".... تزدهر حركة الترجمة حيث توجد المؤسسات الداعية إلى تشجيعها... وهذا ما لم يتوافر فى الأردن، ولا يبدو أنه سيوفر فى القريب..." .

ثم يضيف : "والحقيقة أن عدد المترجمين فى الأردن قليل جداً، ومن المؤسف أن الكثيرين منهم، حتى بين أساتذة الجامعة - يترجمون بلغة عربية ضعيفة، وبعض المترجمين لا يتقنون اللغة التى يترجمون عنها. ولذلك يزداد الشك فى قيمة ما يترجم إلى العربية. وهذه مصيبة لا فى الأردن وحده بل فى العالم العربى برمته". وإن كان الوضع قد تغير نسبياً الآن.

ونعود إلى جهود المنظمة العربية للتربية:

٥ - أصدرت المنظمة "دليل المترجمين"، ولكنه قاصر؛ لأن الإجابات جاءت على لسان موظفين حكوميين لا علاقة لهم بالعمل الثقافى، أو أساتذة جامعات لا يعملون بالترجمة وإن أجادوا اللغة.

وفى عام ١٩٩٤ أصدر وزراء الثقافة العرب توصية إثر الدورة التاسعة لمؤتمرهم المنعقد فى بيروت ١٩٩٤ نصت على :

"دعوة المنظمة إلى تحديث الخطة القومية للترجمة التى أقرها المجلس التنفيذى فى دورته الثلاثين، وكذلك أقرها المؤتمر العام فى دورته الرابعة التى عقدت فى الجزائر عام ١٩٨٣، على أن تقدم للمؤتمر العام فى دورته القادمة".

ولكن المنظمة تشكو حتى الآن من تعثر إجابات الدول العربية وضياعها بين دهاليز مكاتب الموظفين.

وتحاول المنظمة الآن وضع ببليوجرافيا عامة تتضمن جميع الأعمال المترجمة فى العالم العربى وأسماء المترجمين ومؤسسات الترجمة والنشر. وأسهمت المنظمة أيضًا فى صياغة لائحة قانونية لرابطة المترجمين العرب، إذا ماحدث وأقيمت هذه الرابطة. وتحمل مسودات اللائحة العنوان التالى :

"مشروع قانون نموذجى بشأن تنظيم مهمة الترجمة".

من إعداد الدكتور محمد حسام لطفى أستاذ القانون المدنى. ويتمثل المشروع فى خمسة أبواب تتعلق بالموضوعات الآتية :

فى إنشاء النقابة وأحكام العضوية، النظام المالى للنقابة، إدارة النقابة، التزامات المترجمين وتأديبهم، وصندوق المعاشات والإعانات.

ووضعت مسودة "دستور اتحاد المترجمين العرب"، ويتناول النظام الداخلى والأهداف وأجهزة الاتحاد والأمور المالية والإدارة.

٦ - مكتب "تنسيق التعريب" الذى أنشئ عام ١٩٦٠ تحت اسم "معهد الأبحاث والدراسات للتعريب" فى الرباط/ المغرب، ثم أصبح من عام ١٩٧٠ جهازًا من أجهزة المنظمة العربية، ويعنى أساسًا بتوحيد المصطلح العربى، وأنتج حوالى ٥٠ معجمًا فى التخصصات المختلفة، ويتبع منهجًا خاصًا فى دراسة المصطلح والاتفاق عليه واعتماده، ولكنه مع هذا منعزل عن النشاط العلمى الاجتماعى.

الترجمة والجهات المنوط بها الترجمة في العالم العربي

دولة الإمارات العربية المتحدة :

عنيت منذ نشأتها بترجمة بعض الوثائق الرسمية للمحاكم والمستندات، وبعض مقتطفات الصحف والمجلات ذات الصلة. وأنشأت مركز الدراسات التاريخية ويعني بتجميع وترجمة عدد من الوثائق التاريخية البريطانية عن تاريخ الإمارات.

بدأت منذ ١٩٩١ محاولة لإنشاء دار أو قسم للنشر يتبع المجمع الثقافي، وصدرت بعض العناوين لكتب علمية في الإنسانيات.

وبدأ في ١٩٩٤ نشاط لمركز أنشئ حديثًا هو "مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية"، والمركز معني بالترجمة التوثيقية للبحوث والدراسات الاستراتيجية التي تساهم في صناعة القرار، وتتناول الخليج والعالم العربي. ويقع المجمع الثقافي ومركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية في إمارة أبو ظبي.

البحرين :

الترجمة أساسًا من العربية إلى الإنجليزية للخطب والموضوعات الرسمية. ولا توجد كتب علمية مترجمة في العلوم الأساسية أو التطبيقية، وإنما هناك محاولات وجهود فردية لترجمات أدبية.

المملكة السعودية :

- ترجمة وثائق المصالح الحكومية إلى الإنجليزية.

- حظر نشر كل ما يخالف العقيدة والخطاب الديني الرسمي.

- الترجمة إلى الإنجليزية شريطة الاتساق مع الخطاب الديني الرسمي للسلطة مثل :

كتاب الحلال والحرام للدكتور يوسف القرضاوي، قصص الأنبياء لأبي الحسن النووي، وغيرها من الكتب التي يجري إرسالها إلى المسلمين في أمريكا.

- الترجمة إلى العربية محدودة جداً، وهي التي تدعم خطاب الدولة الديني والسياسي، أو بعيدة تماماً عن شئون العقيدة وهو نشاط بدأ مؤخراً مثل :

– ما أصل الإنسان ؟ إجابات العلم والكتب المقدسة.

تأليف موريس بوكال، ترجمة كمال الهلباوي.

– شمس العرب تسطع على الغرب، مترجم عن الألمانية.

وأشارت المؤلفة إلى أنها ألفته اعترافاً بالوفاء للنظام السعودي.

– المنهج النموذجي في علم الحاسبات الآلية.

– ندوة الرياضيات المعاصرة.

- دراسات فى التنصير.

- كيف تستخدم الملح فى صيد الطيور، ترجمة عزيز ضياء.

تخضع الكتب المترجمة لعملية مراجعة فنية ودينية وسياسية متشددة فى شروطها التى منها :

(أ) تنمية المكتبات العربية والإسلامية وبناء الإنسان على الأسس والقيم العربية والإسلامية الصحيحة من وجهة نظر النظام.

(ب) الكشف عن مكنون التراث العربى الإسلامى المتسق مع خطاب النظام.

لم يرد اسم المملكة العربية السعودية فى إحصاءات اليونسكو - الكتاب السنوى قبل ١٩٨٤ .

والكتاب السنوى الصادر عام ١٩٩٢ يشير إلى :

السنة	إجمالى الإصدار
١٩٨٤	لا شىء
١٩٨٥	٢٠
١٩٨٦	١٢

وتشير آراء شفاهية لبعض الأكاديميين المعنيين بشئون الترجمة داخل الجامعات السعودية إلى أن المملكة العربية السعودية شهدت خلال العقد الأخير قفزة فى مجال الترجمة؛ إذ جاوزت الترجمة لكتب أكاديمية وغيرها الثلاثين كتابًا فى السنة. هذا علاوة على العناية باستحداث وتطوير وسائل الترجمة الآلية. ولكن الملاحظ أيضًا أن المترجمين إلى العربية هم من غير السعوديين.

دولة الكويت :

١ - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب وتصدر عنه :

(أ) سلسلة كتاب "عالم المعرفة"، شهريًا، ويتضمن أعمالاً مترجمة علمية.

(ب) مجلة "عالم الفكر"، فصلية، تشتمل على مقالات ودراسات مؤلفة ومترجمة.

(ج) سلسلة كتاب "المسرح العالمى"، كانت تصدر عن وزارة الإعلام. وهى الآن تتبع المجلس.

(د) مجلة "الثقافة العالمية" : وتنشر مقالات علمية مترجمة.

٢ - مؤسسة الكويت للتقدم العلمى.

يرأسها أمير البلاد، وتساهم فيها غرفة التجارة والصناعة. أنشئت ١٩٧٦، تضم ست إدارات إحداها إدارة الترجمة والتأليف والنشر،

ومهمتها دعم المكتبة العربية بالمراجع والدراسات والمعاجم والمخطوطات والمجلات يصدر عنها :

(أ) كاتب وكتاب.

(ب) قواميس علمية متخصصة.

(ج) مجلة التقدم العلمي.

(د) مجلة العلوم (مترجمة عن Scientific American) .

(هـ) تمنح جائزة سنوية لأفضل كتاب مترجم على المستوى العربي.

(و) أمهات الكتب.

٣ - لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت : إصداراتها محدودة جداً وفي حدود احتياجات الجامعة العلمية.

هذا عدا بضع دور نشر قطاع خاص تصدر ترجمات، ويشير الكتاب السنوي لليونسكو - إحصاءات الترجمة - إلى :

السنة	إجمالي الإصدارات
١٩٨٤	١٧
١٩٨٥	١٧
١٩٨٦	٢١

٤ - المركز العربى للوثائق والمطبوعات الصحية "أكمل" :

وهو منظمة عربية تتبع مجلس وزراء الصحة العرب، أنشئت عام ١٩٨٢ ومقرها دولة الكويت. والترجمة في مجال الطب.

٥ - معهد الكويت للأبحاث العلمية :

ترجمة دراسات وتقارير المعهد.

٦ - المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية :

ترجمة من العربية للتعريف بجهود العلماء المسلمين فى الطب.

٧ - اللجنة الوطنية الكويتية للتربية والعلوم والثقافة (وزارة التربية) :

لترجمة بعض إصدارات اليونسكو الحديثة .

لبنان :

يوجد أكثر من ١٧٠ دار نشر وتوزيع مسجلة.

الترجمة والنشر نشاط للقطاع الخاص والدولة لا علاقة لها بذلك.

الترجمة العلمية فى الصحف اليومية والمجلات الشهرية.

والسيادة لكتب الأدب والسياسة والإنسانيات.

القطاع الخاص يعمد إلى ترجمة المستحدث الذى يغطى تيارات الفكر الحديث، وكل دار حسب توجهها الفكرى والأيديولوجى.

مجموع الدراسات المترجمة فى لبنان من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٥ :

٣٩٦ عنوانًا جميعها علوم إنسانية وأدبية.

٦ عناوين فى العلوم والطب والتداوى بالأعشاب.

بدأ بعد ذلك الاهتمام بترجمة كتب تعليم وتبسيط الحواسب، وسبق أن ذكرنا أن لبنان بدأ نشاط الترجمة منذ أن كان "متصرفية جبل لبنان"، فى ظل الهيمنة العثمانية، وبدأ هذا النشاط على أيدى البعثات التبشيرية.

مصر :

بدأت الترجمة فى عصر محمد على بريادة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى منذ ١٨٣١، وقتما عرض رفاعة فكرة إنشاء مدرسة الألسن لتدريس اللغات الفرنسية والتركية والفارسية والإيطالية. وترجم رفاعة وتلاميذه أكثر من ٢٠٠٠ كتاب، وترجم وحده وهو فى باريس ١٢ كتابًا. وانصرفت الجهود آنذاك إلى ترجمة كتب العلوم والصناعات (التكنولوجيا) المختلفة دون الأدب والفلسفة والفنون إلا بقدر ضئيل. ومع نشاط حركة الترجمة نشطت حركة المعاجم والموسوعات التى تشكل ركيزة لأى نهضة فكرية ولغوية. نذكر الآتى :

(أ) المعجم العربى الإنجليزى English Arabic Lexicon تأليف وليم لين Lane بالاشتراك مع الشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقى، ١٨٦٣

وخبا نشاط الترجمة ليعود إلى الازدهار مع بدايات النهضة المصرية فى مطلع القرن العشرين. ونشأت مؤسسات وهيئات عنيت بنشاط الترجمة والتأليف منها :

– دار المعارف للطباعة والنشر : أنشأها نجيب مترى ١٨٩١، وقدمت مؤلفات ومترجمات أسهمت فى حركة التنوير.

– لجنة التأليف والترجمة والنشر : ورأسها أحمد أمين عام ١٩١٤ .

– لجنة دائرة المعارف الإسلامية : بدأت عام ١٩٣٣ ، وترجمت الموسوعة التى أصدرها أئمة المستشرقين فى العالم باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية تحت رعاية الاتحاد الأوروبى للمجامع العلمية. وقام بالترجمة عدد من شباب الخريجين هم : محمد ثابت الفندى ، أحمد الشنتناوى، عبد الحميد يونس، إبراهيم زكى خورشيد.

– لجنة النشر للجامعيين عام ١٩٤٣ .

– لجنة البيان العربى عام ١٩٤٦ .

– دار الهلال : أنشأها جورجى زيدان وهو من لبنان.

ظهرت مجلات تخصصت فى نشر ترجمات من روائع الفكر العالمى وأحدث النظريات العلمية مثل مجلات : المقتطف التى رأس تحريرها المفكر اللبنانى فؤاد صروف، مجلتى، الزهور... إلخ.

– مجلات اليونسكو : ديوجين، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، مجلة اليونسكو، ومستقبليات. وجميعها تصدر عن منظمة اليونسكو، وتتم ترجمتها إلى العربية بشكل دورى.

- الإدارة الثقافية : أنشأتها وزارة التربية والتعليم وأشرف عليها طه حسين. وأهم ما صدر عنها مشروع الألف كتاب الأول، الذى بدأ عام ١٩٥٥ وانتهى عام ١٩٦٨، وضم المشروع حوالى ٧٠٠ عنوان من بينها ٧٨ عنوانًا مترجمًا فى العلوم البحتة. وميزة هذا المشروع :

(أ) التخطيط المسبق.

(ب) استهدف مسايرة ركب العلم والحضارة. والمشاركة الإيجابية فى تطوير العلم، ومساهمة مصر فى عصر الذرة.

(ج) وصولاً إلى هذا الغرض عنى المشروع بنقل أمهات الكتب من مصادرها الأصيلة.

- المجلس الأعلى للثقافة، لجنة الترجمة :

وعنى المجلس بإصدار عدد من الترجمات والمعاجم المهمة ثم تعثر نشاطه. وتجدد شبابه مرة أخرى وأعد مشروعًا قوميًا للترجمة صدرت منه خلال الأعوام الثلاث الأخيرة أكثر من مائة وعشرين كتابًا. ويدعم المشروع صندوق التنمية الثقافية التابع لوزارة الثقافة. وبلغ إجمالى إصداراته المترجمة حتى أكثر من ٧٥٠ عنوانًا.

- المجلس القومي للثقافة والفنون والإعلام :

يفكر فى إنشاء ديوان للترجمة يضم صفوة من المفكرين والعلماء للتخطيط والإشراف.

– الألف كتاب الثانى ويصدر فى العام حوالى عشرة عناوين.

– هناك عدد من مراكز النشر التابعة لهيئات دبلوماسية أجنبية وتتميز بالنشاط مثل :

(أ) مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر : أصدرت الكثير من الكتب الأمريكية المترجمة إلى العربية ، وأصدرت الموسوعة العربية الميسرة بمعونة مالية من مؤسسة فورد.

(ب) مركز الكتاب الأمريكى : وتتعاون معه دور نشر عديدة لترجمة كتب أمريكية، مع دعم من المركز يتمثل فى شراء عدد من النسخ.

(ج) البعثة الفرنسية : ونشاطها مماثل لمركز الكتاب الأمريكى.

(د) كان فى السابق ترجمات للمركز الثقافى السوفيتى.

– صندوق التنمية الثقافية، وزارة الثقافة :

يدعم نشاط النشر تأليفًا وترجمة داخل مصر بتقديم دعم مالى.

– المركز القومى لثقافة الطفل :

يتبع المجلس الأعلى للثقافة، وله ترجمات محدودة جدًا لقصص الأطفال العالمية.

– الهيئة المصرية العامة للكتاب :

الترجمة بها جهود واختيارات فردية. تصدر مشروع الألف كتاب الثانى بناء على اقتراحات المترجمين، وليس خطة قومية كالسابق.

– هناك العـديد من دور النشـر الخـاصـة التى تصـدر من بين منشوراتها أعمالاً مترجمة مثل :

(أ) مركز الأهرام للترجمة والنشر :

* ترجمة وثائق الأمم المتحدة ومنظماتها. وقد توقف عن ذلك أخيراً.

* إصـدار كتب مـؤلفـة ومـتـرجـمـة أكثـرها لحسـاب مـركز الكتـاب الأمريكى: مثل روايات عبير.

(ب) المكتبة الأكاديمية.

(ج) دار الشروق.

يشير الكتاب السنوى لمنظمة اليونسكو ، إحصاءات الترجمة، إلى :

السنة	إجمالى الإصدارات
١٩٨٤	٧٤
١٩٨٥	٩٨
١٩٨٦	١٠٤

سوريا :

يوجد بها علاوة على دور النشر الخاصة :

١ - "المركز العربى للتعريب والترجمة والتأليف والنشر" :

- يتبع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

- وهو منظمة تربوية علمية، ويصدر كتبًا مؤلفة ومترجمة شديدة التخصص. ونشاطه محدود بـ ١٥٠ ملزمة سنويًا.

- يعانى من ضعف الميزانية، وعدم التوزيع، ونشاطه شبه راكد.

٢ - "مركز الدراسات والبحوث العلمية" :

- ويتبع المعهد العالى للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا.

- والمعهد معنى بالترجمة البشرية والآلية. وتصدر عنه سلسلة الثقافة المميزة.

٣ - «الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية» :

وهى معنية بنظام إدخال المعجم الصرفى وقواعد نحو اللغة.

٤ - وزارة الثقافة السورية، مديرية التأليف والترجمة :

وتصدر عنها مجموعات ثقافية متميزة فى العلوم والفنون والآداب.

٥ - معهد التراث العلمى العربى، حلب :

- المعهد معنى بإصدار المصطلحات العلمية من بطون المخطوطات العربية. ويعنى بالمقابلة بين المخطوط العربى وترجماته السابقة.

- ويصدر مجلة تتضمن نصوصاً مع ترجماتها.

ويشير الكتاب السنوى لمنظمة اليونسكو - إحصاء الترجمة - إلى أن جملة إصدارات الترجمة كالآتى :

السنة	إجمالى الإصدارات
١٩٨٤	٤٣
١٩٨٥	٤١
١٩٨٦	٥٩

٦ - مجمع اللغة العربية فى دمشق :

وهو أحد ثمرات الاستقلال عن تركيا. وقد أنشئ برئاسة محمد كرد على فى ١٩١٩/٦/٨، وبه "الشعبة الأولى للترجمة والتأليف" التى أنشأتها الحكومة السورية.

تونس :

يوجد بها علاوة على دور القطاع الخاص للنشر :

- "الجمعية المعجمية العربية" : وهى متخصصة في شئون المعجم العربى على المستويين التنظيرى والتطبيقى.

أنشئت عام ١٩٨٣ ، وينحصر نشاطها فى إصدار مجلة "المعجمية" وكذا تنظيم الندوات الدولية عن المعاجم.

- "المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم" :

وتتبع جامعة الدول العربية وتحدثنا عنها فى مجال سابق.

- بيت الحكمة أو المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات :

وهى مؤسسة ثقافية تتبع وزارة الشئون الثقافية، تأسست عام ١٩٨٢.

ويشير الكتاب السنوى لمنظمة اليونسكو - إحصاء الترجمة - إلى أن إجمالى إصدارات الترجمة كالآتى :

السنة	عدد
١٩٨٤	١٢
١٩٨٥	٩
١٩٨٦	-

المغرب :

هناك علاوة على دور القطاع الخاص للنشر :

- الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر :

نشأت اقتداء بنظيرتها السابقة في مصر. وتعنى أساساً بالتراث المغربي وترجمته دون التخلي عن البعد العربي. من أشهر الأعمال المترجمة كتاب "وصف أفريقيا" لمؤلفه الحسن الوزان.

- "مكتب تنسيق التعريب" : ويتبع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

- مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، جامعة عبد المالك السعدى، طنجة :

تعنى بإعداد وتخريج مترجمين يجيدون اللغة العربية واللغة الأجنبية التى سيترجم منها مع ثقافة متخصصة.

- معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، جامعة محمد الخامس:

والمعهد معنى بالترجمة الآلية، وترجم القرآن إلى الفرنسية. ويجرى ترتيبات لاستكمال إقامة قاعدة المصطلحات المحوسبة.

- مؤسسة الملك عبد العزيز للعلوم والدراسات الإسلامية والإنسانية :

هناك علاقات بين المؤسسة ومعهد العالم العربي في باريس بشأن أعمال تخص الترجمة منها :

إنشاء قاعدة معلومات عما تمت ترجمته فى العالم العربى.

وإنشاء جائزة أدبية فى مجال الترجمة.

علاقات مع الإسبان لإعادة مجد طليطلة.

ويشير الكتاب السنوى لمنظمة اليونسكو إلى أن إجمالى إصدارات الترجمة كالآتى :

السنة	إجمالى الإصدار
١٩٨٤	-
١٩٨٥	٨
١٩٨٦	٧

مقارنة بين إحصاءات واضحة الدلالة

الدراسة الإحصائية المقارنة خير مؤشر على طبيعة الاتجاه وزخم النشاط الاجتماعى؛ قياسًا إلى بلدان تشاركنا أو تنافسنا فى المسيرة الحضارية. وهكذا نستطيع أن نعرف موقعنا على خريطة الصراع أو التنافس العالمى الثقافى، ونعرف مصداقية ما نفعله، ومصداقية عزمنا على التصدى لتحديات العصر، أو لنعرف جدارة حقنا فى الوجود القائم على الصراع. ولن نعقد المقارنة مع رؤوس التقدم الحضارى؛ فهؤلاء تفصلنا عنهم مسافات شاسعة، وإنما سنكتفى بعدد من البلدان المتواضعة، ولكنها تنتمى أو تسعى على الانتماء لحضارة العصر. وعمدنا إلى عقد مقارنة بين حال العالم العربى وحال عدونا الجاثم على أرضنا، وأعنى به إسرائيل. وهدفى أن نعرف كيف يفكر؟ وكيف رسم خطواته؟، وكيف صاغ استراتيجيته؟ وكيف كان واضح الهدف، واعيًا بخط الوصول إلى الهدف ومراحله، حتى أصبح عنصرًا ضالعًا علمًا نظريًا وإنجازًا عمليًا فى حضارة العصر، وأصبح تحديًا رادعًا كما يقولون؟ وسوف نكتشف فى ضوء خطواته وسياساته نطاق الخطأ فى حياتنا العلمية والثقافية التى أوردتنا المهالك، علاوة على مؤامراته، ليكون هو صاحب اليد الطولى والكلمة النافذة أو القاهرة، بفضل ما هيأ له البحث العلمى والتنظيم الاجتماعى البشرى من إمكانات رادعة.

وانطلاقًا من إيماننا بأن التفكير العلمي والبحث العلمي هما محور ارتكاز حضارة العصر؛ لذلك اتخذتهما أساسًا لبيان طبيعة اتجاه حركة الترجمة، والمقارنة بين البلدان العربية وبين إسرائيل وعدد من البلدان الأخرى. وتأكيداً لما ذهبنا إليه - نشير بداية إلى أن الصهيونية واعية منذ نشأتها فى القرن التاسع عشر بحقيقة التحديات العلمية، ودور سلاح العلم اجتماعيًا وثقافيًا وعسكريًا، باعتباره أمضى سلاح فى المواجهة. لهذا شرعت الحركة الصهيونية منذ البداية فى تمهيد "أرض الميعاد" على أساس علمى، وبدأت فى تطوير العلوم البحتة والتطبيقية بهمة وإدراك موضوعى للمكانة الأولى التى يحتلها العلم فى السلم وفى الحرب. وهكذا جعلت العلم - إنجازا نظريًا وتطبيقيًا - عدتها وسلاحها لبناء قوة ردع عسكرية ذاتية (عدة وعتاداً، مركز بحث وقوة بشرية منظمة)، تهيئ لها قدراً من استقلال الرأى والاعتماد على النفس، علاوة على ما يصلها من دعم خارجى. وبدأت الصهيونية جهودها هذه منذ مطلع القرن العشرين، بينما كانت تركيا العثمانية أو الرجل المريض على فراش المرض يحتضر. ووضعت الصهيونية حجر الأساس للجامعة العبرية فى القدس عام ١٩١٨، وهى الجامعة التى تركز، شأن جامعات أخرى نشأت بعد ذلك - على العلوم الطبية والبيولوجية والزراعية والعلوم الأساسية (علوم الوراثة والهندسة البيولوجية والمعلوماتية وعلم الكمبيوتر والإلكترونيات وهى العلوم التى تشكل طليعة التكنولوجيا الحديثة) (أنطوان زحلان - المستقبل العربى ع ٨٦ أبريل/ نيسان ١٩٨٦). وبدأت إسرائيل أول برنامج للأبحاث النووية لها عام ١٩٤٨، أى عام

النشـأة، وافتتحت جامعة إسرائيل قسمًا لهندسة الطيران عام ١٩٥٤، واشتركت إسرائيل فى معرض هانوفر الجوى عام ١٩٦٨، حيث عرضت طائرة ذات محركين توربينين تصلح لنقل المسافرين والبضائع. وبدأ إنتاج هذه الطائرة بالجملة قبل نهاية ١٩٦٩ (أنطوان زحلان - العلم والتعليم العالى فى إسرائيل، د ار الهلال، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، ترجمة محمد صالح العالم ١٩٧٠).

وفى أوساط الستينيات كانت إسرائيل أنشأت بنية أساسية علمية وتكنولوجية، واحتلت المرتبة السادسة عشرة بين دول العالم فى حجم إنتاج الأبحاث. وكان لديها آنذاك عدد من العلماء الناشرين ضعف ما لدى دول أمريكا اللاتينية مجتمعة، وضعف ما لدى إفريقيا كلها. وبلغ مجموع ما نشره العلماء التكنولوجيون الإسرائيليون ثلاثة أضعاف ما نشره البحاثة فى الوطن العربى (أنطوان زحلان، نفس المرجع). ويزيد عدد البحوث العلمية فى إسرائيل عام ١٩٦٧ - أى منذ ثلاثين عامًا - عما قدمه العرب آنذاك بـ ٦٦٠ بحثًا، بينما يزيد عددها عام ١٩٨٣ أى منذ خمسة عشر عامًا بـ ٢٠٤٥ بحثًا، أى إنها فى ازدياد مطرد ونحن فى تراجع. هذا بينما توجد فى الوطن العربى ٧١ جامعة كاملة، وما بين ٣٠٠ إلى ١٠٠٠ مركز أبحاث تضم جميعها حوالى ٥٠٫٠٠٠ من أساتذة وأعضاء معاهد البحوث، أى علماء (أنطوان زحلان، الإنتاج العلمى العربى، مجلة المستقبل العربى ٧٧٤ يوليو/ تموز ١٩٨٥).

وتوضح الإحصاءات التالية مدى وحقيقة اهتمام كل من إسرائيل والبلدان العربية بالعلم أساسًا للنهوض والصحوة الحضارية. وسوف يبين لنا أن نكستنا الحضارية ليست أبداً بسبب الابتعاد عن أى شيء آخر سوى الابتعاد عن العلم إنجازًا ومنهجًا وإدارةً لشئون الحياة والمجتمع وتفاعلاً مع العالم. ثم شيوع الأمية الثقافية والتعليمية الأبجدية، ناهيك عن لغة الاتصالات الإلكترونية؛ مما يؤكد عزلتنا الثقافية، ويكشف أسباب الردة إلى الفكر الخرافى.

تشير إحصائية فى الكتاب السنوى لمنظمة اليونسكو إصدار ١٩٩٦ إلى إجمالى المنشور من الكتب عام ١٩٩٢ (تأليفًا وترجمة).

البلد	تعداد مليون نسمة	إجمالى الإصدارات	علوم بحتة	علوم تطبيقية
العالم العربى	٢٥٠	٦٧٥٩	٥٤٨	٦٠٤
إسرائيل	٤,٥	٤٦٠٨	٢٨٩	٢٣١
اليابان	١٢٣	٣٥٤٩٦	١١٤٢	٦٢٧٦
فرنسا	٥٥	٤٥٣٧٩	٢٠٣٨	٥٠٤٩
ألمانيا	–	٦٧٢٧٧	٢١٤١	٩٤١
إسبانيا	٣٩	٤١٨١٦	٢٥١٢	٥٨٧٣

يظهر هنا الفارق الشديد بين العالم العربى - ٢٥٠ مليون نسمة - وبين إسبانيا - ٣٩ مليون نسمة - وإسرائيل - ٥ر٤ مليون نسمة - وتكشف هذه الإحصائية وغيرها عن أن السبب ليس فقط الأمية الأبجدية؛ وإنما أيضًا الأمية الثقافية والعزوف عن القراءة. العالم العربى تعداده ٢٥٠ مليون نسمة ويصدر كتبًا هى سدس ما تصدره أسبانيا وتعدادها ٣٩ مليون نسمة.

الصحف والدوريات اليومية لكل ألف نسمة، وهذا مؤشر جيد على شعبية الثقافة والانتماء إلى العالم (نفس المصدر).

البلد	عدد لكل ألف	البلد	عدد لكل ألف
مصر	٦٤	إسرائل	٢٨١
ليبيا	١٣	أسبانيا	١٠٤
المغرب	١٣	المجر	٢٢٨
الجزائر	٤٦	ألمانيا	٣١٧
السعودية	٥٤	فرنسا	٢٣٧
لبنان	١٧٢		
العراق	٢٧		

إحصاء مقارن لإصدارات الكتب

(الكتاب السنوى . منظمة اليونسكو ١٩٩٥)

البلد	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٠	١٩٩١
العالم	٥٢١٠٠٠	٧١٥٥٠٠	٨٤٢٠٠٠	٨٦٣٠٠٠
أفريقيا	٨٠٠٠	١٢٠٠٠	١٣٠٠٠	١٣٠٠٠
أسيا	٧٥٠٠٠	١٣٨٠٠٠	٢٢٨٠٠٠	٢١٥٠٠٠
أوروبا	٢٤٦٠٠٠	٣٣٠٠٠٠	٣٦٤٠٠٠	٤٠٣٠٠٠
البلدان المتقدمة	٤٥١٠٠٠	٥٦٢٥٠٠	٦٠٠٠٠٠	٦٣٥٠٠٠
البلدان النامية	٧٠٠٠٠	١٥٣٠٠٠	٢٤٢٠٠٠	٢٢٨٠٠٠
البلدان العربية	٤٧٠٠	٦٥٠٠	٦٤٠٠	٦٥٠٠
أفريقيا (بدون العرب)	٤٦٠٠	٩٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠
أمريكا الشمالية	٨٣٠٠٠	٩٩٠٠٠	١٠٦٠٠٠	١٠٢٠٠٠

إصدارات الكتب (تأليف وترجمة) لكل مليون

البلد	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٠	١٩٩١
العالم	١٨٢	١٦١	١٥٩	١٦٠
أفريقيا	٢٢	٢٥	٢٠	٢٠
أسيا	٥٩	٥٤	٧٣	٧٠
أوروبا	٥١٥	٦٨٢	٧٢٦	٨٠٢
البلدان المتقدمة	٤٢٨	٤٩٠	٤٨٨	٥١٣
البلدان النامية	٣٩	٤٦	٦٠	٥٥
البلدان العربية	٣٨	٤٠	٢٩	٢٩
أفريقيا (بدون العرب)	١٧	٢٥	٢٠	٢٠
أمريكا الشمالية	٣٦٦	٣٩٣	٣٨٥	٣٦٥

النسبة المئوية من توزيع إنتاج الكتب

مقرونة بالنسبة المئوية على السكان إلى إجمالي العالم

البلد	١٩٧٠		١٩٨٠		١٩٩٠		١٩٩١	
	كتب	سكان	كتب	سكان	كتب	سكان	كتب	سكان
أفريقيا	١,٥	١٢,٤	١,٧	١٠,٩	١,٥	١٢,١	١,٥	١٢,٣
آسيا	١٤,٤	٤٣,٢	١٩,٣	٥٧,٨	٢٧,١	٥٨,٨	٢٤,٩	٥٨,٩
الدول النامية	١٣,٤	٦١,٥	٢١,٤	٧٤,١	٢٨,٧	٧٦,٩	٢٦,٤	٧٧,٠
أوروبا	٧,٢	١٦,١	٤٦,٢	١٠,٩	٤٣,٢	٩,٥	٤٦,٧	٩,٣
البلدان العربية	٠,٩	٤,٤	٠,٩	٣,٧	٠,٨	٤,٢	٠,٨	٤,٢

وتوضح لنا الإحصاءات السابقة معنى بلدان المركز وبلدان الأطراف فى التوزيع الثقافى والهيمنة الثقافية وكذا الإنتاج، وهو ما سوف نعرض له فى الفصل الخاص "العولمة وتعريب الترجمة"، ويبين بوضوح مدى الهامشية للبلدان العربية؛ ومن ثم الواجب الملقى عليهم لصحوة أو نهضة شاملة.

وجدير بالإشارة هنا أن أغلب إنتاج الكتب فى بعض البلدان فى الدين ثم السياسة والأدب والتاريخ والنقد... مثال :

إجمالى الإنتاج فى السعودية عام ١٩٨٠ كلها تأليف :

٢٠٧ عنوان منها ٦٧ دين ، ٥٥ أدب.

إجمالى الإنتاج فى العراق ١٩٧٩ :

٩٤٨ عنوانًا منها ٨٦ دين، ١٩٤ تاريخ أدب ونقد،٦٩ سياسة .

(المستقبل العربى، الملف الإحصائى ٦٨٤ أكتوبر/ تشرين ١٩٨٤).

إن العالم العربى لايزال يعيش الشفاهة، وهو عصر، قبل الكتابة ناهيك عن عصر العلم، وهذا ما ينعكس بوضوح فى الترجمة كنشاط اجتماعى.

هذا بينما بلغت قيمة صادرات إسرائيل من الكتب والمطبوعات عام ١٩٦٥ ما قيمته ٤ مليون دولار. وبلغ حجم التصدير الإسرائيلى من الطباعة والنشر عام ١٩٧٠ ما قيمته عشرة ملايين دولار. ويوضح هذا القيمة الاقتصادية للصادرات العلمية فى صورة إنتاج معرفى (أنطوان

زحلان، العلم والتعليم العالى فى إسرائيل، ترجمة محمد صالح العالم، دار الهلال ١٩٧٠).

وفى تقرير آخر يوضح أن إسرائيل من الدول الأولى فى حجم النشر والترجمة فى العالم (من العشرة الأوائل)، باعت فى عام ١٩٩٧ ما قيمته ١٣ مليون كتاب بمتوسط ٣ كتب فى العام للشخص الواحد، وتشير إحصائية رسمية إسرائيلية صدرت فى يناير ١٩٩٨ إلى أن ٥٠٪ يقرؤون كتابًا واحداً كل شهر، و ٢٠٪ يقرؤون كتابًا واحداً كل عام، و٣٠٪ لايقرؤون الكتب.

إجمالى الترجمة فى العالم العربى (٢٥٠ مليون نسمة)

(إحصاء اليونسكو ١٩٩٢)

السنة	إجمالى	علوم بحتة	
١٩٨١	٢٢٥	١٥	حوالى كتاب
١٩٨٢	(٧٢) لم ترد مصر والعراق	-	واحد لكل
١٩٨٣	(٧٠) لم ترد مصر والعراق	١	مليون نسمة
١٩٨٤	٤٥٩	٢٦	
١٩٨٥	(٢٧٢) لم ترد العراق	٢٣	
١٩٨٦	(٢٦٨) لم ترد العراق		

إجمالى الترجمة فى عدد من الدول للمقارنة (نفس المصدر)

إسرائيل تعداد ٤,٥ مليون

السنة	إجمالى	علوم بحتة	
١٩٨١	٣٨٧	٧٠	ما بين ٩٣ و ٧٦ كتابًا لكل مليون نسمة ،
١٩٨٢	٣٤٨	١٠	مع ملاحظة شيوع اللغة الإنجليزية ، وأن
١٩٨٣	٢٣٢	٣	٥٠٪ من سكان إسرائيل مهاجرون يقرؤون
١٩٨٤	٣٦٦	٤	بلغاتهم الأصلية علاوة على العبرية
١٩٨٥	٣١٣	١	
١٩٨٦	٤٦٢		

المجر تعداد ١٠,٥٧١,٠٠٠ نسمة

السنة	إجمالى	علوم بحتة	
١٩٨١	٤١٩	٤٥	حوالى ١٠٨ كتاب لكل مليون.
١٩٨٢	١٢٢٧	٩٢	
١٩٨٣	١٣٩٧	١٦٢	
١٩٨٤	١٢٣٨	١٢٨	
١٩٨٥	١٢٠٢	١١٠	
١٩٨٦	١١٤	١٤١	

إسبانيا تعداد ٣٩ مليون نسمة

السنة	إجمالى	علوم بحتة	
١٩٨١	٦٣٦١	٢٥٤	حوالى ٢٤٠ عنوانًا لكل مليون.
١٩٨٢	٧٣٨١	٢٣١	
١٩٨٣	٧٤٤٧	٢٧٣	
١٩٨٤	٧٧٤١	٢٥٩	
١٩٨٥	٧٩٤٤	٣٢٥	
١٩٨٦	٩٦٤٧	٤٢٨	

تكشف هذه الإحصاءات حالة التدنى الشديدة والتخلف المروع فى مجال الترجمة، أى فى مجال الاطلاع على علوم العصر والتفاعل معها. وكيف نتفاعل ونحن لا ننتج كما تكشف إحصاءات إنتاج الكتب؟ وكيف نسعى إلى المعرفة ونحن لا نقرأ؟ وهذا ما جعلنا نقول : إننا لانزال مجتمعات شفاهية؛ ولذا فإن الأزمة أزمة مجتمع، والمشكلة هى قارئ وكتاب بالنسبة للتأليف والترجمة على السواء. وهذا يعنى شيوع الأمية العلمية والثقافية العالمية فى بلدان العالم العربى، وهو ما يفسر حالة الخواء الفكرى والعلمى العقلانى وشيوع الفكر الخرافى؛ مما يضعف عزيمة الأمة، ويضعف الأمل فى مواجهة التحديات، أو حتى يحفزنا إلى قبول التحدى وقد أدركنا أبعاده وذلك بمضاعفة الجهد.

إن النظر إلى إحصاءات إجمالى الترجمة تبين أن العالم العربى يقارب إنتاجه ١/١٠ إنتاج البرازيل (٢٦ عنوانًا مقابل ٢٢٩١ عنوانًا) وهى دولة نامية وتعدادها يقارب نصف تعداد السكان العرب. ويبلغ إنتاج البلدان العربية مجتمعة من الترجمة نصف إنتاج إسرائيل (٥ر٤ مليون نسمة) أى ١/٥٠ من تعداد السكان العرب. هذا علاوة على الحاجة إلى تحليل مضمون هذا الإنتاج؛ لما له من دلالة مهمة وحاسمة. ونلحظ كما أشرنا، من حيث نصيب كل مليون نسمة من إنتاج الكتب المترجمة – أن :

كتابًا واحدًا تقريبًا (أو ١,٢) لكل مليون نسمة فى العالم العربى.

١٠٠ كتاب تقريبًا لكل مليون نسمة فى إسرائيل.

٢٥٠ كتاباً تقريباً لكل مليون نسمة فى إسبانيا .

وحتى نعرف أن هذا موقف ليس بالجديد ، و علينا أن نبحث عن أسباب العزوف عن الاطلاع فى تكويننا الثقافى الاجتماعى - أشير إلى إحصائية تقريبية وردت فى كتاب "الخطة القومية للترجمة" الصادر عن المنظمة العربية للتربية والعلوم - إذ يقول ما يلى :

١ - إحصاء الكتب المترجمة من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٥ فى خمس دول عربية - هى بالطبع الدول المنتجة للكتب - بلغ ٨٧٢ كتاباً بمعدل ١٧٥ عنواناً مترجماً فى السنة.

٢ - إحصاء الكتب المترجمة بداية من ١٩٧٠ لغاية ١٩٨٠ فى ١٦ دولة عربية بلغ ٢٨٤٠ عنواناً أى بمعدل ٢٨٤ عنواناً مترجماً فى السنة. وهذا إحصاء مقارب لإحصاء منظمة اليونسكو.

٣ - يشير الكتاب إلى أن إجمالى الكتب المترجمة فى العالم العربى منذ الخليفة المأمون وحتى يومنا هذا يصل إلى ١٠,٠٠٠ عشرة آلاف عنوان، أى ما يساوى ما ترجمته إسرائيل فى أقل من ٢٥ سنة من وجودها، أو ما ترجمته البرازيل فى أربع سنوات، أو ما ترجمته أسبانيا فى سنة واحدة تقريباً. وليس هذا التقدير مبالغ فيه بالسلب خاصة إذا نظرنا إليه فى ضوء الإحصاءات المشار إليها. ونحن نعرف أن العالم العربى عاش فى ظلام الهيمنة التركية والمملوكية قروناً طويلة، ولم يبدأ فى الخروج من هذا الظلام - وإن خرج غافياً - إلا فى مطلع القرن

التاسع عشر. بيد أنه لايزال غير مدرك لحقيقة التحدى وأسباب النهوض الحضارى ليعقد العزم على الإفلات من نكسته، والتفاعل مع العالم المتقدم ثقافياً التزاماً استراتيجية تنموية وإطار فكرى يعبران عنه.

وإلى من راعته هذه الإحصاءات أو تشكك فيها - نسوق إحصاء آخر يصدق عليها؛ إذ يعتبر مؤشراً محايداً ومحكوم المصدر، وأعنى بهذا إحصاء استهلاك ورق الطباعة للصحف والمطبوعات الأخرى بعامة - ومصدر الإحصاء الكتاب السنوى لليونسكو ١٩٩٥ - وطبيعى أن استهلاك الورق يكشف بوضوح عن علاقة المجتمع بالقراءة والكتاب.

استهلاك ورق طباعة الصحف

البلد	إجمالى	لكل ألف نسمة	للفرد
مصر	٨٩,٩٠٠ مليون طن مترى	١٤٤٨ كجم	١,٤
إسرائيل	١٠٧,٩٨٨ مليون طن مترى	١٩٥٤٧ كجم	كجم
فرنسا	٧٩٤,٠٠٠ مليون طن مترى	١٣٦٦٥ كجم	١٩,٥
إسبانيا	٤٩٦,٠٠٠ مليون طن مترى	١٢٥١٩ كجم	

استهلاك ورق طباعة غير الصحف

البلد	إجمالى	لكل ألف نسمة	للفرد
مصر	١٠٧,٦٠٠ مليون طن مترى	١٧٣٣ كجم	١,٧ كجم
إسرائيل	١٨٠٢٢١ مليون طن مترى	٢٢٦١٩ كجم	٢٢,٦ كجم
فرنسا	٣,٦٦٢,٠٠٠ مليون طن مترى	٦٣٠٢٥ كجم	٦٣,٠٠ كجم
إسبانيا	١,٤٠٢,٥٠٠ مليون طن مترى	٢٥٣٩٢ كجم	٢٥,٠٠ كجم

العولمة وتعريب الترجمة

أولاً نقصد بتعريب الترجمة أن تأتى الترجمة كنشاط اجتماعى مؤسسى؛ انطلاقًا من أهداف عربية، وتأسيسًا على اختيارات عقول عربية، فى ضوء استراتيجية تنموية شاملة، بحيث تكون بحق تعبيراً عن الهم العربى واستجابة لقضايانا الاجتماعية، وإشباعًا لقدرة المجتمع على النهوض.

ونقصد بالعولمة ذلك النزوع الثقافى الذى يبدو فى ظاهره جديداً، ويسميه البعض النظام العالمى الجديد. أو يقال : إن العالم بات قرية واحدة تهاوت معها الحدود القومية، ليسود مركز عالمى علمى وتقنى واقتصادى وثقافى. وتروّج لهذا المفهوم الولايات المتحدة الأمريكية والشركات متعدية القوميات. وهذا هو الجديد. ونجد قرين ذلك نزوعًا آخر يدعو إلى حوار البحر المتوسط، أو حوار الشمال والجنوب بين أوروبا وبلدان حوض البحر المتوسط (وهى عربية) وبلدان أفريقيا. ويأتى هذا تعبيراً عن صراع خفى بين العولمة بمفهومها الأمريكى وبين سعى أوروبا بعامة وفرنسا أو الرابطة الفرانكفونية لخلق مجال قوة مناهض. ونذكر بهذه المناسبة ندوة الترجمة المنعقدة فى تاليدو أو طليطلة فى إسبانيا عام ١٩٩٥ بعنوان : "تبادل الأفكار فى حوض البحر المتوسط:

دورة الترجمة". وساهمت فيها البلدان العربية المطلة على البحر المتوسط. ويأتى ثالثًا تحت عباءة شعار العولمة نزوع باسم الشرق أوسطية الذى يهدف إلى فتح الحدود. الاقتصادية والثقافية... إلخ بين جميع بلدان الشرق الأوسط وأولها إسرائيل. وغنى عن البيان طبيعة العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وانسجام الأدوار بينهما عسكرياً واقتصادياً وثقافياً بل وبحثًا علمياً. ونذكر هنا ما قاله شيمون بيريز من أنه لم يعد المال هو القوة المحركة وإدارة الهيمنة بل الفكر، وأن العالم العربى يملك المال ونحن – أى إسرائيل – تملك الفكر والعلم وتكنولوجيا الإنتاج. وهو قول صريح يفسر أشياء كثيرة على مستوى الشرق أوسطية أو "العولمة" الإقليمية؛ حيث تبدو إسرائيل فى صورة مقاول الباطن لصالح العولمة الأوسع.

وجدير بالذكر أن من مظاهر العولمة النزوع إلى عولمة الثقافة أو نظام هندسة التحكم الاجتماعى العالمى فى سلوك المجتمعات وشيوع قيم لصالح القوة المهيمنة. ونحن نمايز بداية بين العولمة والعالمية فى مجال الفكر العلمى والمنتج التقنى العالمى القدرات وتجسده كمثال: تكنولوجيا الاتصالات والحواسب والهندسة الوراثية والتشابك الاقتصادى... إلخ. ولكن العولمة كاسم فعل تعنى فرض نهج بذاته ومصالح وقيم ثقافية بذاتها. وكل ما تراه القوة ذات الهيمنة أمرًا نافعًا وضرورياً لها وفاء لصالحها. إذ إن العالمية لا تنفى التنوع والتمايز والمنافسة والتكامل، بل ولا تنفى صراع المصالح، ولكن العولمة محاولة للحفاظ على أو لتثبيت

الأوضاع على نحو بذاته طبقًا لمصالح مركز محدد له الغلبة والهيمنة فى الإنتاج التقنى والعلمى والثقافى.

نعم نحن نعرف ونؤمن بأن المعرفة العلمية أضحت نشاطًا إنتاجيًا وإبداعيًا فى صور شبكة عالمية. وأن التحكم فى هذه الشبكة منوط بأصحاب القدرة على الإسهام، كل حسب نصيبه، فى هذا النشاط الإنتاجى الإبداعى. ومن الأسف أن العرب - شأن بلدان العالم الثالث - خارج هذه الشبكة. وإنما القوة المتحكمة هى القوة الصناعية الأولى فى العالم، بجامعاتها ومراكز أبحاثها وإنتاجها التقنى الذى تطور على مدى خمسة قرون. إنها الغرب بكل تناقضاته. ويمثل الغرب المركز. إنه مركز الإنتاج والتحكم والتوظيف المعلوماتى، وهو منهل المعارف والمعلومات العلمية سواء فى صورة كتب أو دوريات أو مراكز بحث وجامعات أو شبكة اتصالات عالمية إلكترونية أو وكالات أنباء. إلى كل ما يساهم فى صناعة العقول أو التلاعب بها. وحرى بنا ألا ننسى أن المعرفة سلطة وأداة هيمنة، وأن من يملك المعرفة وأدوات توزيعها والقدرة على توظيفها يملك سلطة التحكم فى العقول التابعة. وبدأت نشأة هذا المركز أساسًا فى أوروبا ثم اتجه إلى الغرب البعيد حيث الولايات المتحدة الأمريكية؛ مما يهيئ لها فرصة المزيد من التحكم على أساس منظور أيديولوجى قومى يعبر عن حلم أمريكى يزيد عمره عن المائة عام.

وثمة مسافة كبيرة تفصل بين المركز وبين بلدان المحيط أو الأطراف أو الحافة أو سمها ما شئت، وإنما هى بلدان عاطلة من القدرة على

التحكم أو المساهمة بنصيب فاعل في هذا.كله أو بدرجات متفاوتة. وهذه هي بلدان العالم الثالث وإن تباين دورها ومستواها وترتيبها في مواقعها عند الحافة. وهكذا أصبح للمركز الهيمنة في عصر المعلومات على بلدان الحافة. المركز له الهيمنة إنتاجًا وإبداعًا وتوزيعًا، حيث أكبر قدر من الجامعات ومراكز الأبحاث التي يقصدها أبناء بلدان الأطراف لتلقى العلم والثقافة، وحيث مراكز الإعلام والتوزيع والمجلات والدوريات ووكالات الأنباء وبث المعلومات التي تصل مصاغة أيديولوجيًا إلى أبناء بلدان الأطراف.

وهكذا يبدو العالم الثالث تابعًا. ومن بينه بلدان العالم العربي، التي تحتل مرتبة أدنى كثيراً مما هو شائع في رطاننا الاجتماعي، بل أقول : إن ثروات العرب الضخمة، بدون إدارة صحيحة وتغيير جذري، لا يمكنها أن تنقله من موقع الحافة؛ نظراً لعدم أهليته، ليحتل موقعًا متقدمًا ومتميزاً على الحافة ويقربه نسبيًا من المركز. إننا قد نشترى منتجًا تقنيًا متقدمًا ومعقداً، ولكن هذا ضرب من التظاهر الاستهلاكي لا ينقلنا حضاريًا؛ إذ العبرة بالعقل المبدع والنشاط الإنتاجي والمناخ الاجتماعي للتنشئة والتعليم وإدارة المجتمع وحرية الفكر والإنسان. والعبرة بالهدف ودوره في الحراك الاجتماعي. الثروة الحقيقية ليست في امتلاك المال أو حيازة المنتج التقني؛ بل هي في النشاط الإنتاجي الإبداعي للمعلومات وتوظيفها، وفي القدرة على تشغيل وصيانة وتطوير المنتج، وهذه قدرة مجتمع. ودليلي على هذا أن عدداً من بلدان الحافة الفقيرة جداً (مثل

الهند) احتلت موقعًا متقدمًا على الحافة لا تحتله البلدان العربية، وذلك بفضل تطوير التعليم والجامعات ومراكز الأبحاث والاتصالات، وتوفير بنية أساسية للإبداع المعرفى وتوزيع وتوظيف هذا كله تخطيطًا. وهذا هو ما تفتقر إليه البلدان العربية على الرغم من وفرة المال. والطريق ليس ممهدًا، فإن دول المركز ترى فى هذا تناقضًا مع مصالحها؛ إذن هى مسألة تحدى وصراع.

وهكذا يبين بوضوح أن المعرفة جلها أو كلها، خاصة العلوم الأساسية والمدارس الفكرية، يتم إنتاجها من الخارج. وعالمية المعرفة لا تنفى أبدًا مركزية الإنتاج وتبعية الأطراف، وهى علاقة دينامية قابلة للتغير؛ شريطة وعى بلدان الأطراف وتكثيف العمل العلمى المشترك فى تكامل وتضافر من أجل التحول إلى قوة إنتاجية إبداعية للمعرفة وفقًا للمقتضيات الحضارية لهذا النشاط.

والحديث عن حرية انتقال المعلومات والتبادل الثقافى سيكون حديثًا لا معنى له حين يكون أحد الأطراف خاوى الوفاض عاطلاً من العطاء لا يملك إلا ثقافة اجتماعية مقطوعة الصلة بحضارة العصر؛ مما يجعله فى موقف الضعف والاستهلاك. وحيثما تفاعلت ثقافتان وكانت إحداهما قوية والأخرى ضعيفة فإن الثقافة الأقوى تستوعب الأضعف وتمحوها مع الزمان. وينتفى التعامل الذى شرطه الندية والكفاءة. وقوة الثقافة لا تأتى من استظهار الموروث؛ بل تأتى من نشاط المجتمع نشاطًا منتجًا على مستوى المنافسة العصرية وتنظيم وإدارة المجتمع على نحو عصرى،

علاوة على جذور العراقة والتاريخ. ليس الموقف الصواب انزواءً اجتماعيًا واغترابًا فى الزمان مع السلف، وليس ارتماء فى أحضان الوافد القوى، وإنما قبول التحدى والانتصار على أهواء الذات. تحدى ما هو متخلف فى الموروث، وتحدى الوافد باستيعاب أسرار قوته ومواكبته والسعى لتجاوزه مع توفير شروط الانتماء إلى العصر. وهذا ما فعلته اليابان حين قررت فى عصر "الميجى" الانفتاح على الغرب بعد أن جفت ينابيع التقليد، ولم تعد هى مفتاح الدخول إلى حضارة العصر. قررت اليابان كما كان يقضى شعارها الاجتماعى القومى آنذاك الذى يلخص استراتيجيتها "أمة غنية وجيش قوى"، واتخذ تحديها وصراعها البعد التالى :

١ – مقرطة نظام الحكم.

٢ – رأسمالية صناعية إنتاجية.

٣ – التعليم إجبارى للجميع.

٤ – جيش وطنى قوى.

٥ – استيعاب العلوم الأساسية والتطبيقية.

وحرى أن نقارن بين هذا وبين النهج الذى اتخذته إسرائيل أو الصهيونية، وقد كانوا عصابات قبل أن تكون لهم دولة هى الآن إحدى الدول التى تشارك الولايات المتحدة الأمريكية فى مشروع حرب النجوم.

لهذا فإن الاستجابة الصحيحة إزاء العولمة وإزاء وضعنا المتدنى عند الحافة - أن نضع خطة لدعم الاستقلال والحرية فى إطار النسق الدولى للمعرفة، وبالتعاون والتخطيط مع بلدان العالم الثالث :

١ - أن يكون للبلدان العربية - بناء على تنسيق وتعاون حقيقى - مساهمة واضحة ومميزة وقابلة للتكامل مع النسق العالمى للمعرفة.

٢ - دعم التعاون الإقليمى العربى فى هذا الاتجاه، وهو ما أشارت إليه اتفاقات ثقافية وتعليمية وعلمية عربية عديدة لم تر النور، ومن بينها إنشاء مؤسسة عربية للترجمة وحرية انتقال الكتاب.

٣ - تضافر الجهود مع بلدان العالم الثالث لمواجهة الاحتكار العالمى للإنتاج وتوزيع المعرفة. ويمكن للمؤسسة العربية للترجمة المزمع إنشاؤها أن تكون منطلقًا وعنصراً أساسيًا فى الدعوة إلى ذلك.

٤ - الوعى على المستوى الاجتماعى بحقيقة التحديات مهما غلفها البعض بعبارات مثل : العولمة، والشرق أوسطية، وأن نمايز بين عالمية الفكر وعالمية التحولات والإنجازات وبين عالمية الهيمنة والإدارة لصالح طرف بذاته. وهو ما يعنى الحاجة الماسة إلى عصر تنويرى جديد يعبر عن مصالح الإنسانية بعامة دون تمييز، ويكون محور استقطاب عالمى.

إننا لن نستطيع أن نصوغ معنى للوجود الإنسانى يقر فى نفوسنا، ونشعر بالانتماء نحوه اجتماعيًا، ونجاهد وصولاً إليه هدفًا أسمى فى إطار المنافسة العصرية - إلا إذا امتلكنا ثقافة هى نتاج نشاطنا

الاجتماعى أى فعاليتنا وتفاعلنا النشط على المستوى الحضارى. وهذا هو سبيلنا إلى صحوة حقيقية وليس انزواء اجتماعياً وردة إلى الماضى. وهكذا تكون أهدافنا نسقًا من ابتكارنا، نسقًا نحدده فى ضوء الخطوات التى ينبغى أن نترسمها نحو أهدافنا التى تصون وجودنا، تأسيساً على علم نشارك فى إبداعه وإنتاجه، وثقافة تساهم فى إنتاجها؛ إذ بدون ذلك سنظل مستهلكين تابعين.

ولهذا حرى بنا أن تكون الترجمة هى إحدى خطواتنا الاجتماعية التى نخطوها فى توافق مع نسق المعلومات والمعارف، وفى اتساق مع إنتاج فكرى وعلمى ذاتى، فى ضوء استراتيجية تنموية عربية؛ بحيث ترسخ فى مجتمعنا ثقافةُ الإرادة والتغيير الإنتاجَ المعرفى والتقنى.

إن أزمة الانشطار الثقافى بين تقليد وتجريد، أو أصالة وحداثة، إنما هى أزمة بطالة. أزمة مجتمع عاطل من العقل الاجتماعى العلمى والتقنى النشط، وحين يكون العلم والمعارف العلمية مجالاً لممارسة نشاطنا، فسوف يكون نشاطنا حضارياً أصيلاً مجسداً فى الفكر والعمل. وبهذا تزدهر وتتفتح ذاتيتنا أو هويتنا الاجتماعية وتتدعم أصالتنا على مستوى العصر، ويبين زيف الانشطار الوهمى المزعوم. وسوف تسهم الترجمة فى حسم هذه المشكلة؛ إذ تهيئ من خلال المؤسسة العربية للترجمة، ومن خلال كل نشاط مؤسسى - الفرصة للاختيار الواعى العقلانى، وأن يكون اختياراً جمعياً مخططاً وفقًا لما يتسق مع حركة نهضوية.

وتساهم الترجمة القائمة على التخطيط والاختيار الواعي العقلاني - في دعم ديموقراطية المعرفة بإشاعة الثقافة العلمية، فلا تكون حكراً على نخبة تتعامل مع اللغات الأجنبية؛ مما يفضي إلى تهميش غيرهم. خاصة بعد شيوع تكنولوجيا سمعية وبصرية إلكترونية مصدراً للمعلومات وللمعايشة العالمية، من شأنها أن ترسخ شعوراً بالتميز والتمايز والنخبوية المنعزلة والمتعالية. هذا علاوة على أن التقدم العلمي في عصرنا لا يحقق ثمرته المرجوة إلا بفضل مناخ اجتماعي داعم يشمل الإنسان العام المنتمي والمشارك إيجابياً في إدارة المجتمع وشحذ طاقاته.

ومع تحدي العولمة والشرق أوسطية بات لزامًا ألا نترك الإنسان العربي العام نهبًا مستباحًا لهذه الثقافة يختارها له الآخر أو يفرضها عليه وهو مهيض في خواء؛ وإنما تكون المعرفة اختيارنا نحن تعزيزاً للمنعة الثقافية التي تحصنه على أساس علمي ضد الانهيار أو الاستسلام لرياح مغرضة تهب عليه باسم العولمة؛ إذ نلاحظ كما أشرنا سابقًا أن قسطًا كبيراً من الترجمة في العالم العربي هي اقتراحات بقوائم تعرضها مكاتب ومراكز وبعثات أجنبية دبلوماسية على الناشرين مثل : مكتب الكتاب الأمريكي، ومؤسسة فولبرايت، والبعثة الفرنسية... إلخ. ولهذا ندعو إلى تعريب الترجمة الواعية التي تحمي العقل من الانغلاق الفكري، وتحميه كذلك من التبعية المطلقة ولا ذوبان في الآخر. وأن تكون هذه الترجمة المنتقاة عاملاً نشطًا في صياغة إطار فكري متبلور في اتساق مع ثقافتنا ومشروعنا القومي. إنها الاختيار المؤسسي الواعي بدلاً من الرفض المطلق أو التسليم التام.

الترجمة وحوار المتوسط

حدثان شهدهما عام ١٩٩٥ ونحن فى مستهله، وهما وثيقا الصلة بموضوعنا، وإن بديا متباعدين فى ظاهرهما:

الأول : أن إسرائيل أطلقت قمرًا صناعيًا للتجسس. وقد عقبت صحيفة معاريف على ذلك الحدث قائلة : "إن المسافة بين إسرائيل وكل جيرانها تقاس الآن بالسنوات الضوئية". وهى فى هذا لسان حال دوائر أخرى كثيرة داخل إسرائيل وخارجها.

ودلالة الحدث أمران، وليست القضية فى ظاهرها تجسس إسرائيل؛ فإن أسرارنا العربية ذائعة شائعة وإن خفيت على الشعوب.

ولكن التجسس هنا بقمر إسرائيلى يعنى أن إسرائيل عزمت على أن تكون مشاركًا مستقلاً وأصيلاً فى الثورة التقنية العسكرية، وجوهرها المعلومات تحصيلاً وتنظيماً ومعالجةً وتوظيفًا لصالحها. النصر والسيادة فى هذا العصر للأقدر على امتلاك المعلومات، والأفضل والأسرع فى استخدامها. وحرب المعلومات ليست فقط حرب ميادين القتال ولكنها حرب صناعة أو إنتاج وتحصيل معلومات، بل وقدرة على تشويه معلومات الخصم وصناعة وعيه والتلاعب به سواء فى ميادين الحياة

المدنية أو العسكرية المختلفة. وصراع الحضارات هو دائماً وأبداً صراع معلومات. هذا عن قمر التجسس، أما الصاروخ حامل القمر فهو حامل تاريخ لتطور علمي وتعليمي وتنموى بعامة، ودلالته أن إسرائيل تملك قاعدة علمية وتكنولوجية متطورة هى حصاد مجتمع علمى راق ومستوى تعليمي متقدم، وثقافة سياسية واقتصادية على المستوى الاجتماعي تدعم هذا التطور وتغذيه وتهيئ له الاستقلال والمشاركة الإيجابية عالمياً.

الحدث الثاني : ندوة نظمتها مدرسة الترجمة في تاليدو أو طليطلة فى إسبانيا بعنوان "تبادل الأفكار فى حوض المتوسط: دور الترجمة". والذى يعنينى هنا أن المتوسط مرة ثانية أو ثالثة فى تاريخ الحضارات يزمع التحول إلى ساحة لقاء ثقافى، أى حوار ساخن أو هادئ بين ثقافات المجتمعات المتوسطية فى محيط عالمى متداخل: مما سيكون له أثره فى تطورها وتنافسها وتحديد السيادة لبعض أطرافها. والسؤال: ما هو سلاحنا إذا أردنا النزول كقوى عصرية إلى هذه الساحة التى لا ترحم؟ وفى تعقيب سريع بين حاصرتين على هذين الحدثين يلخص الموقف : جاء في تحقيق نشرته الأهرام يوم ١٩٩٥/٥/١٥ – أن الهيئة العامة للكتاب أصدرت إحصاء يقول : إنه قد صدر فى مصر خلال عام ١٩٩٤ وحده ثلاثة آلاف عنوان عن الشعوذة والدجل صادفت رواجاً كبيراً!!

صراع الحضارات دائماً ينطوى على صراع ثقافى بمعنى الثقافة الأعم، كإطار معرفى قيمى حاكم للسلوك الاجتماعى. والأساس العميق لهذا الصراع – كما يقول توينبى – هو آلية التحدى والاستجابة، وهى

آلية مستمرة استمرار المجتمعات. وها هو ذا التحدى ماثل أمامنا. واقع مادى يحاصرنا ويأزمنا. والسؤال عن الاستجابة وعن المستجيب فكرًا وتأهيلاً.

الفجوة بيننا وبين العالم الآخر فجوة معرفية، أو معلومات موظفة اجتماعيًا بحيث نعيها ونستوعبها ونمارسها ونساهم فى إبداعها. التخلف الذى نعانيه قبل أن يكون اقتصاديًا هو تخلف ثقافى معرفى فى حضارة عالمية تمثل فيها المعرفة العلمية القوة المحركة والدافعة.. المعرفة العلمية منهجًا للتفكير، ومبحثًا للنشاط الاجتماعى، وإطارًا حاكمًا للسلوك. إن اللهاث وراء المعرفة أصبح سمة حضارة العصر حتى بين أكثر البلدان تقدمًا.

ونحن فى مصر - أو العالم العربى - لن نستطيع أن نعيد تأسيس أنفسنا انطلاقًا من معطيات ذاتية وبعيداً عن التواصل الحر مع الثقافات العالمية. انفتاح على العالم، وانفتاح على تاريخنا الحضارى بكل تنوعاته منذ فجر الوعى الإنسانى. ومن شروط التفكير العلمى أن نملك إزاء هذا وذاك عقلاً علميًا ناقداً يشكل أساسًا لرؤية مستقبلية، واستراتيجية تنموية شاملة لجميع أنشطة المجتمع عند مستوى العصر. إنها أخذ وعطاء، أو لنقل : جناحاها دراسة إبداعية جذورها نشاط اجتماعى منتج، وترجمة معبرة عن هذا ومتكاملة معه. تأخذ عن وعى نقدى، وتنتقى، وتحفز، وتنهض بالمجتمع فكرًا ولغةً ونشاطًا متعدد المناحى، وتساهم فى صوغ منظومة معرفية قيمية تقف بالمجتمع ندًا وكفئًا فى ساحة النزال الحضارى، وله استقلاله الحداثى معًا.

ولكن ما نصيبنا من الفكر العلمى أخذًا وعطاء، ولن أقول: التفكير العلمي، وإن كان كل منهما شرطـًا أو وجهـًا للآخـر؟ وأعـود لأسـأل : مـا نصـيبنا مـن الفكر العلمـى العـالمى ودوره الفـاعل فـى حـياتنا (أى الترجمة العلمية)، وليس نصيبنا من الإنجازات التكنولوجية العلمية التى نستوردها سلعًا استهلاكية؟ وكيف يجرى اختيار هذا النصيب؟ وهل يمثل دعامة أساسية فى بنية تنموية استراتيجية ورؤية مستقبلية لمجتمعاتنا العربية؟

ليست الترجمة نقل معارف فحسب؛ بل الترجمة تواصل حر بين الحضارات. ولا يكون هذا التواصل مثمرًا إلا حين تؤرقنا روح المغامرة الإنسانية التى يزكيها نهم معرفى لاستيعاب إنجازات وفتوحات العلم المرتكز على عبقرية الإنسان من أجل تغيير الواقع: واقعنا الثقافى والبناء الاجتماعى لحاجتنا الملحة إلى ذلك؛ وبذا نكون بنائين للحضارة عن وعى وعقلانية. إننا قد ننقل النظريات أو المصطلحات، ولكن يظل حديثنا بها رطانًا؛ لأننا لا نستطيع أن ننقل الرأس المبدع، ولا حياة النشاط الاجتماعى الإنتاجى الخالق لها. وقد نستورد نظريات ومناهج التعليم ولكننا لا نستطيع أن نستورد الشغف بالعلم، والنهج المعرفى، أى روح التعليم ذاته.

المترجم العربى..
الحقوق والدور الاجتماعى

قضية المترجم لها أكثر من زاوية؛ الكفاءة اللغوية والثقافية وكذا الحقوق، وأيضًا المترجم والدور الاجتماعى.

أما من حيث الكفاءة والأهلية لأداء الدور فهذه مسألة إعداد وتنشئة اجتماعية فى الأسرة والمدرسة والمجتمع بعامة. وإذا ألقينا نظرة على هذه العناصر الثلاثة (الأسرة، المدرسة، المجتمع) فى واقعنا الراهن نجدها جميعًا لا تسهم فى إعداد مترجم. ذلك أن المترجم ليس هدفًا من أهداف المجتمع، ولا محط طموح. ويكفى أن أقول: إنه حين تقرر منذ بضعة عقود أن ينتقل التلميذ من صف دراسى إلى الصف التالى، على الرغم من رسوبه فى مادتين - فإن التلاميذ وأسرهم حرصوا على الشكل وهو عبور المراحل، واختاروا الرسوب فى مادتين أساسيتين هما : اللغة الأجنبية والرياضيات. أى تخرجت أجيال عازفة عن اللغة الأجنبية وعن التفكير الرياضى، ومقطوعة الصلة بالثقافة العالمية، وبأساس مهم من أسس الفكر العصرى وهو الرياضيات.

واقترن هذا - للأسف - بشيوع الأمية الثقافية؛ إذ لم تعد الحياة مع حضارة العصر فكرًا وثقافةً وعقلاً - معيارًا أو قيمةً أو هدفًا؛ لذلك ليس غريبًا أن لا نجد جيلاً جديداً من المترجمين الأكفاء، وهو ما يؤكد تعطل نشاط أساسي للمجتمع هو نشاط الترجمة كحلقة وصل وتفاعل مع العالم المتقدم، وأداة حوار حضارى عصرى. أعنى أن المجتمع بسياسته هذه عطل الدور الاجتماعى للمترجم، وهو أساسى تحرص عليه جميع المجتمعات التى عقدت العزم على النهوض، وتحرص على استيعاب علوم العصر.

ودور المترجم رهين تفهُّم المجتمع لحاجته إلى المعرفة دون حدود، وحاجته إلى التفاعل الفكرى (العلمى النظرى والتطبيقى والثقافى بعامة) مع حضارات الأمم، واكتساب أسس النهوض والتقدم؛ وصولاً إلى مستوى العطاء والإبداع. إن المترجم هو منفذ المجتمع للانفتاح على ثقافات الآخرين؛ ومن ثم التحرر من نير الانغلاق والتقوقع داخل شرنقة ثقافات الأنا المهيضة، بل وحفزنا على النفاذ بفكرنا فى دائرة فكر الآخر.

وحيث إن دور المترجم هو دور اجتماعى بامتياز، وأن الترجمة بهذا المعنى نشاط اجتماعى هادف؛ فإن إعداد المترجم وظيفة اجتماعية أولى بالرعاية. وهاهنا يكون الإعداد والدور عملين متطابقين يكمل أحدهما الآخر. فالإعداد حق للمترجم على المجتمع وعلى نفسه، والدور حق للمجتمع على المترجم. ونذكر من عناصر التكوين الاجتماعى والذاتى السليم للمترجم كى يقوم بدوره على خير وجه :

١ - التكوين الثقافى الموسوعى، أى التوفر على ثقافة موسوعية تعزز وتكمل تخصصه العلمى.

٢ - إجادة لغتين على الأقل، اللغة التى يترجم إليها، واللغة التى يترجم عنها، واستيعاب قواعدهما وأدواتهما اللغوية والمنطقية؛ الأمر الذى يعينه على فهم أسرار اللغة وصياغة اللفظ وتوليد المصطلح.

٣ - النهم المعرفى والتجدد الثقافى، بحيث يكون متابعًا لكل جديد؛ وبهذا لا يكون مجرد ناقل أو وسيط، بل يكون مبدعًا فى أدائه وإضافاته وتعليقاته، فضلاً عن الإحاطة بالسياق الفكرى العام والسياق التاريخى للنص الذى يعكف على ترجمته. وهكذا تكون الترجمة إبداعًا، وصياغتها باللغة الأم دقيقة فى التعبير، واضحة، يسيرة الفهم.

٤ - الإلمام بالقواعد المنهجية للترجمة، من حيث التحليل لبنيات الجمل فى تركيباتها المتباينة، وتذوق النص، وتوافر الحس اللغوى فى دلالاته وتلويناته مع اختلاف السياق؛ ذلك لأن الترجمة هى قراءة وفهم لحضارة عبر إطار معرفى/ قيمى لحضارة أخرى. ومن هنا حرى بالمترجم أن تتوافر لديه القدرة على التحليل الدلالى للنص. وقدرة على اعتبار السياق العام.

٥ - وإذا كانت الترجمة أداة إثراء وتخصيب وتطوير للغة الأم، فإن هذا يعنى أن للمترجم دورًا علميًا إبداعيًا فى تطوير اللغة. وليس غريبًا أن نجد اللغة العربية - كمثال - تحقق ثراء فى عصر ازدهار الترجمة قرين حركة النهضة الاجتماعية.

٦ – وحيث إن الترجمة إبداع علمى؛ فإن المترجم هنا يلتزم موضوعية المنهج العلمى، من حيث الأمانة والدقة، وتجنب إقحام نوازع ذاتية قد تدفعه إلى الإبهام فى موضع الوضوح أو الإخفاء والالتواء فى موضع الصراحة.

أما عن حقوق المترجم فهى ضائعة مهدرة فى ظل ظروف الانحسار الثقافى والانكفاء على الذات فى المجتمع. ويكفى أن نعرف أن جميع مؤسسات النشر العامة والخاصة تعطى المترجم الفتات، باستثناء مؤسسات بلاد النفط. وترفض مؤسسات كبرى الالتزام بالقواعد المتبعة مثل تحرير عقد بالترجمة؛ لحرمان المترجم من حقوقه مستقبلاً. وعلى الرغم من أن الصكوك والاتفاقيات الدولية تعترف بأن المترجم مؤلف، وأن الترجمة نشاط إبداعى؛ فإن الأمر على خلاف ذلك فى عالمنا العربى. والمترجم مهدر الحقوق؛ لأنه يعمل كفرد لا تربطه رابطة بغيره من المترجمين.

وجدير بالذكر هنا أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية سارت خطوات جادة ومهمة فى هذا الاتجاه. ولكن الدول العربية ومؤسساتها فى الداخل لم تنفذ ما دعت إليه المنظمة العربية. نذكر على سبيل المثال: "الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف"، التى تعتبر المترجم مؤلفًا، وتتضمن بابًا عن نطاق الحماية، والذى ينص على :

"يتمتع بالحماية أيضًا، ويعتبر مؤلفًا، لأغراض هذه الاتفاقية – من قام بإذن المؤلف الأصلى بترجمة المصنف إلى لغة أخرى، وكذلك من قام

بتلخيصه أو تحويره أو تعديله أو شرحه أو غير ذلك من الأوجه التى تظهر الصنف بشكل جديد".

وتضمنت الاتفاقية بابًا، هو الباب السادس، والخاص بوسائل حماية حقوق المؤلف (والمترجم طبعًا) والذى ورد فيه النص التالى :

"المادة الثالثة والعشرون :

تعمل الدول الأعضاء على إنشاء مؤسسات وطنية لحماية حقوق المؤلف، ويحدد التشريع الوطنى بنية هذه المؤسسات واختصاصها.

"المادة الرابعة والعشرون :

تنشأ لجنة دائمة لحماية حقوق المؤلف من ممثلى الدول الأعضاء لمتابعة هذه الاتفاقية وتبادل المعلومات بما يكفل حماية المصالح المعنوية والمادية للمؤلفين (والمترجمين)".

وكلفت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الأستاذ الدكتور محمد حسام لطفى أستاذ القانون المدنى - بوضع مشروع قانون نموذجى بشأن تنظيم مهنة الترجمة.

ويتمثل مشروع القانون فى خمسة أبواب تتعلق بالموضوعات الآتية :

(أ) إنشاء النقابة وأحكام العضوية.

(ب) النظام المالى للنقابة.

(جـ) إدارة النقابة.

(د) التزامات المترجمين وتأديبهم.

(هـ) صندوق المعاشات والإعانات.

وفى إشارة توضيحية تقرأ النص التالى :

"لم يشأ المشروع أن يخص المترجمين بحماية قانونية خاصة؛ حيث يستفيد المترجم باعتباره مؤلفًا للنص الذى وضعه من الحماية الوطنية والدولية المقررة للمؤلفين. ولم يشأ المشروع أن يضع تعريفًا للمترجم حيث قصد تأكيد وضع المترجم كمؤلف".

(الخطة القومية للترجمة، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٦).

ومع هذا وقعت البلدان العربية اتفاقات الجات، ولم تتخذ أى إجراء داخلى لتنفيذ ما نصت عليه مشروعات المنظمة - فاتفاقية الجات تحافظ على حقوق المؤلفين من أبناء العالم المتقدم بينما يظل المترجم فى أغلب البلدان العربية مهدر الحقوق وغير معترف به. وليس غريبًا - والحال كذلك - ألا نجد فى البلدان العربية قاعدة معلومات عن المترجمين والمترجمات، ولا نجد رابطة تحافظ على حقوق المترجم وتنهض بدوره الاجتماعى.

الجات والكتاب المترجم والعولمة

نناقش أمورنا عادة بمنطق الإحالة. نحيل الأمر على الآخر دون الأنا. وهذا يجعلنا دائمًا نرى فقط عنصر القوة والسلطة وكأنهما البعد الواحد والوحيد الحاكم لمسار الظواهر، دون تحليل لأسباب القوة ومصادر اكتسابها. وننسى هنا عنصر العمل والفعالية لدى الأنا، وأن علاقات الدول علاقات تفاعل وليست إما فعلاً أو انفعالاً. فاعلاً أو مفعولاً به. وإذا أكدنا على أنفسنا وفعاليتها هنا فإننا سوف نناقش القضية من زاويتين ومنطلقين : الأنا والآخر في تفاعل.. دوري ودور الآخر. مسئوليتي ومسئولية الآخر.. قبول التحدي وإرادة الفعل كمجال صراع.

وحين نقول : الجات مثلاً فهذا فعل الآخر. والسؤال: ماذا عن فعلي أنا؟ ليست القضية قيمًا أخلاقية مجردة، ليست هي التماس الحق المجرد المطلق من أي صراع على المصالح؛ لأننا نحن كذلك لسنا مجردين من المصالح، ولكننا نبرر نهج التواكل والاستكانة والنزوع الاستهلاكي. وهذا النهج يحمل ثنائية نقيضية هي : إما أنا أو الآخر.. الصدر أو القبر.. الهيمنة لي مطلقة أو للآخر.. وحين تتوفر لي القوة فأنا وحدي.. وهذه شهادة التاريخ.

والجات، فى ضوء هذا الفهم، ألية تشغيل وضبط علاقات فى المستوى الدولى. فالعالم ينتج آلياته فى سياق التاريخ الاجتماعى. مقتضيات ورؤى العناصر المؤثرة الفاعلة طبقًا لمستوى حضارة العصر. وهى آلية جماعية غير متجانسة ، ليست نسيجًا متجانسًا، بل يحمل تناقضاته شأن أى واقع اجتماعى محلى أو عالمى؛ ومن ثم تنطوى على احتمالات الحركة والتغير.

والحضارة هى إبداع ثقافى وفكرى على مستوى المجتمع الدولى الآن. وهذا المنتج الثقافى الفكرى الجديد يحمل قدرات وسلطات، ويتحرك فى مناخ ثقافى اجتماعى، وفى إطار من العلاقات المتبادلة المتفاعلة. وهذا من شأنه أن يحدد رؤى حركية للواقع من الحاضر إلى المستقبل عبر الفعل الاجتماعى النشط. ولهذا يتحرك فى إطار تناقضات حتى وإن علا صوت أحد العناصر وساد الظن بأن الغلبة له، أو زعم أنه خاتم الحضارات ونهاية التاريخ، وأن كلمته هى القول الفصل فى الفكر والمذاهب والعقائد. والأمر فى جميع الأحوال رهن فعالية أطراف المعادلة، والقدرة على خلق علاقات وأطر عمل جديد. وينطوى عادة هذا التطور الثقافى الفكرى على نذر وبشائر للإنسانية أو للعالم. فقد يكون أنيابًا مفترسة فى يد العنصر القوى. وقد يكون رسالة للتقدم الإنسانى. وينطوى كذلك على طاقات وقوى جديدة، وآفاق أطماع جديدة، مثلما ينطوى على لغة وفكر جديدين. وتثور معه قضايا تتعلق برؤى عن الإنسانية بعامة، عن حقوق الإنسان، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعن رؤية

جديدة للحياة وللوجود، وعن حق التنوع والاختلاف للأفراد أو للمجتمعات، وعن الخصوصيات الثقافية والقومية... إلخ.

لهذا فإن الحديث عن الجات فى إطار العولمة - وأقصد بالعولمة هنا المدلول العلمى والثقافى لحضارة العصر دون مدلول الهيمنة عبر المضاربات المالية - لا يكتمل إلا إذا تناولنا هذه الاتفاقية أو مجموعة الاتفاقيات فى ضوء الواقع العالمى الجديد فى تطوره، وأيضًا فى ضوء النظر إلى أنفسنا وواقعنا وحالنا، مع النظر إلى واقع الآخر وإمكاناته وأطماعه. والتساؤل فى وضوح عن : من الذى سيتعولم؟ أى المرشح لفرض العولمة عليه، وفقد دوره الإيجابى - إن وجد - فى الإنجازات العلمية والثقافية العالمية ويكون مستهلكًا؟ ونسأل كذلك من الذى سيعولم؟ أى المنتج المهيمن بفضل إنتاجه لسلعة مطلوبة داعمة للمرحلة الحضارية. أى من فى موقع الفاعل؟ ومن فى موقع المفعول به مرحليًا، إلى حين الفعل المضاد والمواجهة.

الجات كما أشرنا آلية إضافية إلى آليات أخرى: مثل صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى واللذين تسيطر عليهما الولايات المتحدة الأمريكية. وتهدف هذه الآليات جميعها إلى ضبط العلاقة - فى ضوء ميزان القوى - بين دول المركز، أى التى لها غلبة الفعل الإنتاجى، ولها الغلبة السياسية العسكرية بدرجات متفاوتة، وبين هذه فى مجموعها وبين دول الأطراف التى لها غلبة الفعل الاستهلاكى. وهذه الآليات جميعها رهن مرحلة بذاتها لواقع جديد هو واقع العولمة الذى هو صيرورة محدداتها ميزان

القوى علميًا وتقنيًا واقتصاديًا وعسكريًا وثقافيًا. وهذه عملية ظهرت مقدماتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ويمكن القول : إن ما يجرى الآن هو بداية وليس نهاية، وأننا الآن بصدد بداية عملية نشطة يجرى خلالها تشكيل الواقع العالمى على مدى هذه الصيرورة، نتيجة سلسلة من الصراعات متعددة الأوجه والأطراف، ليبلغ الواقع العالمى على الطريق التطورى نهاية المرحلة وبداية مرحلة أخرى. واطراد هذه الصيرورة لا يعنى بحال من الأحوال نهاية التاريخ، ولا ينفى احتمالات تحولات جذرية فى مسار هذه المراحل.

ومادام حديثنا عن الجات والكتاب فإننا نركز الضوء على سمة مهمة مميزة لروح العصر، ونعنى بذلك العلم إنجازًا نظريًا وتطبيقيًا، والعلم من حيث هو شبكة إنتاج عالمية تتحكم فيها بلدان المركز، وهى البلدان المتقدمة صناعيًا، والعلم من حيث هو نشاط اجتماعى مؤسسى، ومن حيث هو سلعة متميزة تحظى ببراءة الاختراع وحق الملكية الفكرية.

وليس لنا أن نواجه واقع اتفاقيات الجات بحجج نظرية مفادها أن الغرب - مركز إنتاج المعلومات - استعمرنا وعليه أن يرد دينه أو دفع التعويض. ومع صواب هذا الرأى، إلا أن مثل هذا القول لن يعدو كونه صرخة فى واد لن يعيرها الأقوياء آذانًا مُصغية. ومنطق العالم أن الأقوى اقتصاديًا وعسكريًا وعلميًا - هو الأقوى حجة والمسموع كلمة، وأن الأضعف يخضع للأمر الواقع صاغرًا ولو إلى حين. لم تأت اتفاقيات الجات بجديد فيما يتعلق بحقوق الملكية الفكرية. وإنفاذ هذه

الاتفاقيات يشكل عبئًا اقتصاديًا على البلدان الفقيرة؛ مما يزيدها فقراً وجهلاً. وتؤكد هذه الاتفاقيات أن الكتاب والمعلومات بعامة سلعة فى السوق لمن يشترى. ومن ثم يرى أن النهج الأسلم قبول التحدى والمنافسة، وابتداع سبل جديدة للمنافسة فى إنتاج الفكر والثقافة والعلم والمعلومات بعامة. فما هو واقعنا فى هذه السوق، نحن والآخر؟ نسأل ماذا عن دورنا نحن فى إنتاج الكتاب والمعلومات والثقافة والملكية الفكرية؟

قلة فى العالم تستأثر بإنتاج بضاعة حضارة العصر. وكثرة غالبة معدومة لا تملك شيئًا، حظها صفر من الإنتاج، لا تملك حتى القدرة على الاستهلاك الإيجابى النشط، أعنى الاستهلاك بهدف الإنتاج والإبداع والتطور.

نصرخ لأن الكتاب المترجم ستزداد كلفته حين ندفع حقوق الملكية، ولا نسأل لماذا لا يصادف الكتاب المترجم إلى العربية رواجًا محليًا يعوض كلفته. والسبب شيوع الثقافة الشفاهية وغلبة الأمية الأبجدية التى تتجاوز ستين بالمائة، فضلاً عن مرض العزوف عن القراءة العلمية، وسيادة الأمية الثقافية التى تتجاوز تسعين بالمائة، ثم الانصراف الاجتماعى شبه الكامل عن الاهتمام بالعلم معرفة وتعليمًا وبحثًا ومنهج تفكير، بل وإهمال مؤسساته اجتماعيًا، وهو الفريضة الغائبة عن وعينا. هذا بينما إذا عولجت أمراض الأمية الأبجدية والثقافية وأمراض الانصراف عن العلم سوف يروج الكتاب، ويحقق أرباحًا تفى بالحقوق القانونية للمؤلف والمترجم والناشر.

نجأر بالشكوى؛ لأن الجات ستقف عائقًا تحول دون فيض الأعمال المترجمة، وأنها سوف تحد من نشاطنا. ونسأل عن حجم الترجمة فى بلادنا كنشاط اجتماعى، وإلى أى حد كانت الترجمة نشاطًا اجتماعيًا هادفًا ومتداخلاً فى نسيج ثقافتنا، ودعامة لحركتنا النهضوية تلبية لطلب اجتماعى ظامئ ومتنام؟ مقارنة بسيطة تكشف أن هناك من هو أحق بالصراخ والشكوى، ولكنه آثر الفعل النشط ونجح فى المواجهة، وأضحت الشكوى غير ذات موضوع. نظرة إلى نشاط الترجمة فى عدد من البلدان المصنفة بين البلدان النامية، وليست ضمن بلدان العالم الأول، ومقارنة إنتاجها بإنتاجنا العربى - تشكل إجابة واضحة أو فاضحة:

متوسط إجمالى الترجمة فى جميع البلدان العربية (٢٥٠ مليون نسمة):

٤٥٠ عنوانًا - أى حوالى كتابين لكل مليون.

متوسط إجمالى الترجمة فى إسبانيا (٣٩ مليون نسمة):

٩٥٠٠ عنوان - أى حوالى ٢٤٠ عنوانًا لكل مليون.

متوسط إجمالى الترجمة فى المجر (٥ر١٠ مليون نسمة):

١٢٠٠ عنوان - أى حوالى ١٠٠ عنوان لكل مليون.

إذن القضية أولاً هى نحن من حيث الإنتاج والنهم المعرفى، وكذلك توجهنا المعرفى، أعنى ما الذى نعكف على قراءته؟ وما نوع الكتب التى لها رواج واسع فى حياتنا؟

في عصر العولمة إنتاج المعلومات ونقلها سلعة عالمية السوق. يجرى تبادل ملفات المعلومات داخل شبكات عالمية (الإنترنت)، بضاعة حاضرة بلغة السوق الذى تحتل فيه إسرائيل للأسف المرتبة الثانية فى هذه التجارة المربحة بعد الولايات المتحدة الأمريكية. والهيمنة فى عصر العولمة للأقدر والأسرع والأكثف فى مجال إنتاج ونقل وتوزيع واستيعاب وتوظيف المعلومات.

أما نحن فواقعنا يشهد أننا نشبه تاجر العاديات الذى يعرض سلعًا ذات قيمة جمالية أو تاريخية تملأ العين، وتشبع الوجدان إلى حين، ولكن يكفى التطلع إليها وتأملها أو اقتناء بعضًا منها دون أن تصنع حياة لعصر جديد.

لهذا بات لزامًا لزوم الحياة والحفاظ على الوجود - مواجهة النفس من أجل مواجهة الجات وجميع آليات دول المركز التى تدعم لها أسباب الهيمنة. حتى بات واجبًا الانتصار على عوامل التواكل والكسل والركون إلى الاستهلاك السلبى، واقتحام مجال الإنتاج الإبداعى، والإسهام فى المنتج الحضارى.. أن نهيئ أنفسنا لاقتحام سوق سلع المعلومات ونعرض المطلوب للسوق طبقًا لمستوى العصر.. أن نكون عنصرًا ضروريًا فى حياة العصر لا عيالاً عليها.

ما نصيبنا من إنتاج المعلومات لعرضها فى السوق العالمية المطالبة بحقنا فيها؟

ما الكتاب العربي الذى يصادف رواجًا، أو يسد حاجة، فى مجتمعات أو تجمعات غير عربية فى مجال الأدب، والفنون، والعلوم الإنسانية بعامة، وكذا العلوم الطبيعية النظرية والتطبيقية (التقانة)؟

إننا نستطيع أن نواجه الجات على عدة مستويات منها :

الأول : تنظيم إدارة وتوزيع المنتج الفنى والأدبى والعلمى والأثرى السياحى؛ لضمان عائد التصدير إلى الخارج سواء على الجاليات العربية أم إلى السوق الأجنبية بعامة. ويقتضى نجاح هذا البند الارتفاع بمستوى المنتج ليكون حضاريًا عصريًا مطلوبًا من الآخر، ويكون سلعة منافسة ذات عائد.

الثانى : اتخاذ التغييرات اللازمة فى البنية الاجتماعية والبنية الذهنية للإنسان العربى لكى نهيئ المناخ للإنتاج الإبداعى والإسهام فى إنجازات العصر، وهو أيضًا نفس المناخ الحافز للقراءة والتماس المعرفة بل ومغامرة الاكتشاف المعرفى؛ ومن ثم رواج الكتاب.

الثالث : عقد اتفاقات مع دول شمال المتوسط أو الاتحاد الأوروبى؛ إذ إن هذه البلدان تشجع نقل وتعريب إنجازاتها من الآداب والعلوم وترجمتها، تعزيزًا للعلاقات بين الجنوب والشمال كأسلوب من أساليب مواجهة العولة بمعنى الهيمنة الأمريكية، ويقترن هذا أيضًا بالتخطيط، من خلال اتفاقات مع بلدان العالم الثالث. ويمثل هذا النهج خطة من استراتيجية متكاملة نسميها عولة المواجهة، ولكن تأسيسًا على فعالية ذاتية والاندماج فى العصر بعيدًا عن الشعارات الكلامية الجوفاء.

ويدفعنا هذا إلى أن نسأل مرات ومرات. ما مدى حاجتنا الاجتماعية إلى المعلومات؟ ما حجم ونوع الطلب الاجتماعي؟ وما حجم ونوع العرض الذى نعرضه من المعلومات؟ ما دورنا فى إنتاج التقانة الخاصة بمعدات الكمبيوتر سواء العتاد أى Hardware أو تصميم البرنامج Software، بحيث يلبى إنتاجنا طلبًا عالميًا. ونعود لنقول بكل أسف : إن إسرائيل تحتل المرتبة الأولى فى بعض هذه المنتجات، وبلغت صادراتها من المنتجات الإلكترونية فى عام ١٩٩٧ ستة بلايين دولار أى ثلاثة أمثال دخل مصر من قناة السويس.

وإذا كانت الجات تعنى الحفاظ على حقوق الملكية الفكرية للمبدعين؛ فإننا قبل أن نطعن فيها حرى بنا أن نعيد النظر إلى واقعنا فى ضوء رؤية استراتيجية هادفة، لنكون فى موقع ووضع حضاريين؛ إذ يثرى مجتمعنا بالمبدعين الذين نطالب بحقوق ملكيتهم الفكرية.

إن الجات بكل مساوئها هى بالنسبة للكتاب والمعلومات حافز يستفزنا أو يستنفرنا لكى نرقى بمستوى إنتاجنا من الإنجازات العلمية النظرية والتطبيقية لتكون على مستوى المنافسة الحضارية.

إننا حين نتحدث عن تشجيع الصادرات لزيادة الدخل القومى تتجه الأنظار وتتحول الجهود إلى السلع الخدمية المتوافرة، سواء فى صورة خامات أو مصنوعات، وننسى أن البحث العلمى هو أهم الصادرات رواجًا، وأهم قوة دعم للصادرات لخدمية. ويجرى تصدير البحث العلمى

إما فى صورة برامج للكمبيوتر أو كتب أو دوريات تتضمن بحوثًا علمية دورية، وإما فى صورة سلع يجرى تطويرها تأسيسًا على هذه البحوث، بحيث تكون السلعة متضمنة الإنجاز العلمى الجديد؛ كعامل ارتقاء وسبب للتفوق والمنافسة، وأيضًا عامل رواج وربح. ومعنى هذا أن تصدير السلع لن يحقق نجاحًا إلا بفضل البحث العلمى. ولن يتأتى هذا إلا إذا توفرت للمجتمع قاعدة للبحث العلمى متكاملة مع قاعدة الإنتاج. مجتمع يتعلم ويمارس العلم ويسوده مناخ علمى، والتنشئة الاجتماعية فيه تنشئة علمية فى البيت والمدرسة والإعلام. أبناؤه يعشقون مغامرة الاستكشاف العلمى بغير حدود ولا قيود. مجتمع لا يخشى الجديد وإنما يهوى الإبداع والتجديد.

ولنتأمل إسرائيل قطب التحدى والخطر المباشر على أرضنا، كمثال للمرة الرابعة والخامسة، كيف أصبحت قوة إنتاج علمى وتصدير للإنجازات العلمية بفضل قاعدة البحث العلمى والتنظيم الاجتماعى للموارد والطاقات المادية والبشرية. وأضحت دول كثيرة متقدمة مثل : اليابان والولايات المتحدة وألمانيا، ودول نامية مثل الهند تسعى إليها تعقد معها الاتفاقات لاستيراد منتجاتها التقنية، بل والمشاركة مع علمائها فى مراكز البحث الإسرائيلى. وتشعر هذه الدول أنها بحاجة إلى إسرائيل التى تبيع من إنتاجها العلمى والتقنى، فى صورة أبحاث أو إنجازات مادية - ما يعوضها عن الجات بل ويعود عليها بالربح الوفير، ويكفل لها الأمن والبقاء واستمرار التحدى بفضل ما هيأه لها البحث العلمى

والثقافى وتنظيم الموارد من سطوة وقوة؛ إذ لابد وأن يحتاج إلينا العالم لا أن يكون بقاؤنا صدقة من العالم؛ فالبقاء للأصلح.

ونسأل فى المقابل عن تنظيمنا لمواردنا البشرية والمادية، وعن علاقتنا الاجتماعية إلى أى حد هى حافزة؟ وعن بنيتنا الذهنية وتنشئتنا الاجتماعية والتعليمية. ولنسأل إلى أى حد تمثل جامعاتنا ومراكز أبحاثنا قبلة يقصدها علماء من العالم ليتزودوا بإنجازاتنا ويتدربوا فيها. وكم عدد علمائنا وباحثينا المبعوثين للدراسة والبحث فى الخارج واستيعاب علوم وتقانة الآخرين المتقدمين، ليعودوا وهم ثروة اجتماعية وأداة إثراء وعطاء حضارى يمثل عائدًا اقتصاديًا. لا أريد أن أسأل عن س أو ص من العلماء المصريين فى الخارج. احتفت مصر مؤخرًا بعالم مصرى زائر، وهناك غيره كثيرون من الطيور المهاجرة. ولكن لم يسأل أحد نفسه عن مصير هذا أو ذاك لو عاد إلى بلاده؟ ولعل الأصوب أن نسأل : كم آلاف وئدوا داخل المجتمع فكانوا ثروة مهدرة؟ ولايزالون؟

إن العلم النظرى والتطبيقى هو روح العصر، وهو روح السوق العالمية فى عصر العولمة والهيمنة. السوق العالمية سوق معلومات إبداعًا وتوزيعًا وتوظيفًا، وهى معلومات فى صورة أبحاث أو كتب أو مجسدة فى سلع مادية إنتاجية وخدمية. لا نريد أن نكون أشبه بمن يواجه قاطع طريق فيصرخ ويقنع بالصراخ، وإنما أن يتدبر أمره فيلتمس الحيلة والوسيلة للتصدى بسلاح العصر، خاصة وأن الوضع العالمى هو محصلة توازن قوى عسكرية وسياسية ومالية واقتصادية، وهى قوة

ركيزتها العلم النظرى والتطبيقى. وهذا الوضع العالمى ليس قدراً محتومًا، وليس نهاية التاريخ، بل التاريخ حركة عالمية هى فعالية المجتمعات، والتى تفضى إلى تغيير أطراف المعادلة. إنه إرادة المجتمعات الفاعلة؛ من أجل الانتصار على سلبيات النفس والانتصار على الآخر.

لغتنا وتعريب العلم

اللغة، الفكر، المعرفة، الفهم، الفعالية، الإنتاجية والإبداعية، هذه جميعها تكاد تكون مفاهيم مترادفة؛ إذ لا لغة بدون فكر، ولا لغة أو فكر بدون فعالية إنتاجية للأنشطة الإنسانية فى إطار علاقة الإنسان/ المجتمع بالوجود. وإذا كانت اللغة أداة تواصل فإنها تواصل فكرى لما هو موضوع فهم الإنسان النابع من تلك العلاقة الإنتاجية النشطة؛ إذ إننا نعى الوجود ونتعامل معه ونعبر عنه باللغة ومن خلالها. فكأن اللغة هى الفكر والفعل والرمز فى آن.

وجهان للمشكلة :

ومسألة التعريب هى فى ظنى ذات شقين :

(أ) العلاقة بين لغة العلم واللغة الطبيعية فى المجتمع.

(ب) صياغة المصطلحات العلمية.

والشق الأول شق أصيل؛ ذلك أننا بحاجة إلى بحث حقيقة أبنية اللغة الطبيعية وبحث العلاقة بين اللغة العلمية بما لها من خصوصيات وبين أبنية اللغة الطبيعية السائدة، وإلى أى حد تعتبر هذه العلاقة معززة

أو معوقة لصياغة الفكر العلمى. فقد تكون أبنية اللغة الطبيعية فى المجتمع، كما هو شأنها فى الحضارات السابقة على حضارة الصناعة، تعبيراً عن فكر أو ثقافة اجتماعية ترى الوجود تجليات، وترى الظواهر موضوعاً لتأملات نظرية مجردة، ونتائج منسوبة إلى علة خارج الذات والطبيعة، وتجاوز فكر الإنسان وقدراته على البحث والاستكشاف. وهاهنا تكون اللغة أو أبنية الفكر الاجتماعى، حائلاً دون فعالية الإرادة الإنسانية للتغيير واستكشاف قوانين اطراد الظواهر الطبيعية، أو لنقل: أبنية تقنع بالتواكل والكسل الفكرى والإحالة إلى علة خارقة؛ إذ تكفى عبارة كلامية ينتهى عندها الإشكال، ويقنع الإنسان/ المجتمع بالتفسير الذى يتجاوز الطبيعة التى هى موضوع البحث العلمى. بينما البحث العلمى له لغة المنطق من حيث العلة والمعلول، وبعدى الزمان والمكان والعلاقات بين ظواهر طبيعية لها قوانينها التى تعبر عن حركتها واطرادها، ونشأتها وتكوينها، وتهيئ للإنسان إمكانية التحكم والسيطرة أى أن تكون ساحة لفعالية الإنسان وممارسة إرادته فى التغيير.

ويرتبط هذا بأوثق ارتباط بالمنهج؛ ذلك لأن المنهج ليس فقط قواعد بحث بل توجه عقلى، ونهج فى الفهم، وأسلوب لغوى فى الصياغة، ونحو فى التعامل مع الواقع موضوع الدراسة.

لغتان وقطيعة معرفية :

فاللغة بمترادفاتها سالفة الذكر هى الإنسان/ المجتمع دوراً وعلاقات وفاعلية وأسلوب هذه الفاعلية، فقد تكون اللغة فى مجتمع ما - وبحكم هذه الاعتبارات - لغة غارقة فى تهويمات ومفردات وعبارات نظرية مجردة أو تأملية ميتافيزيقية؛ ومن ثم تكشف عن مسافة فاصلة، هى مسافة واقعية، تفصل بين اللغة وبين التعبير الذى يجسد فعالية مادية مباشرة وإيجابية بين الإنسان/ المجتمع والوجود، ومثل هذه اللغة تنتظر من الإنسان/ المجتمع أن يستن سنة جديدة فى علاقته أو فى حواره مع الوجود، أى تنتظر تحولاً حضارياً لتكون اللغة هى لغة الحضارة الجديدة وفكرها ومفاهيمها وفعاليتها الإنتاجية. ولهذا يقال: إن التحول الحضارى، وهو فى جوهره تحول مادى/ فكرى، أو مادى/ روحى كما يفضل البعض أن يسميه - هو أيضًا بالضرورة تحول فى اللغة، أو أن لكل حضارة لغتها من حيث المدلول والتعبير عن الإنسان/ المجتمع الجديد فى علاقته الإنتاجية النشطة بالوجود، وكذا من حيث النظرة إلى الوجود ونهج التعامل معه.

ولعل هذا هو أحد الأسباب فى أن البعض يقاوم ويتشدد فى مقاومته لأى تجديد حضارى باسم الحفاظ على اللغة، خاصة إذا كانت اللغة هى إحدى خصوصياته أو مرتكزاته الحضارية التى بدونها يغدو صفراً من كل شىء حسب مفهومه التقليدى، وكأن حضارته هى فقط صياغة لغوية ومضامين تقليدية ورسوم كلامية مكتوبة أو مقروءة وليست

فكراً وقيماً ونشاطاً إبداعياً له تاريخ، أي لا يراها تاريخية الدلالة ومرحلة من مراحل تطور اجتماعي مطرد المضمون أبداً، ومثل هذه اللغة تكون عائقاً أمام لغة العلم بل وأمام منهج البحث العلمي والفهم العلمي للظاهرة؛ ذلك لأنها تضع الإنسان/ المجتمع أسير نظرة إلى العالم منافية معرفياً لنظرة العلم.

إن مصطلح السبب أو السببية في لغة التقليد منافٍ مدلولاً ونطاقاً لمصطلح السببية في لغة العلم. ولغة التأمل النظري للظواهر من حيث هي تجليات - تَحِدُّ من قدرة الإنسان على الفعالية الإيجابية واقتحام الظاهرة وفهم قوانينها وتغيرها والخطو بها نحو هدف أو مصير يقرره الإنسان. وتعزو مثل هذه اللغة أسباب الظاهرة إلى علة خارجها، حتى ليتعذر فهمها على نحو آخر، وكل من يحاول التعبير بمثل هذه اللغة عن ظواهر العلم وعن منهج البحث العلمي وإنجازاتها سوف يجد أن لغة التقليد لن تطاوعه، بل سوف يخلط بين اللغتين غصباً ويشوههما، فلا هي لغة تأمل ميتافيزيقي في ظاهرها ولا هي لغة علم في حقيقتها، وإن ظل هو من حيث الفعل والفكر خارج ساحة العلم.

إن لغة العلم هي لغة تغيير الظاهرة بفضل فعل إنساني إيجابي بعد فهم أسبابها من داخلها، وإيمان بقدرة الفاعلية الإنسانية على التحكم في مسارها؛ ومن ثم في مصير الإنسان. وصورة الكون والإنسان في لغة التقليد أو حضارة ما قبل المنهج العلمي - صورة تعبر عنها لغة تساوي فكراً سكونياً ثباتياً مطلقاً لا تاريخياً. على عكس الحال

فى العلم؛ فالتحدث بلغة العلم لا ينقل صورة العالم إلى صاحب الفكر التقليدى، فلكل لغة صورتها عن الوجود أو رؤيتها أو فكرها. وصاحب الفكر التقليدى إذا ما اصطنع لغة العلم فى حديثه إنما يصطنع رطانًا غير ذى مدلول ما لم تحدث وظيفة معرفية تجعله يرى العالم من خلال إطار معرفى/ قيمى جديد هو إطار العلم؛ لذلك نرى التقليدى يصوغ عبارات إنشائية عصرية الشكل ليحدثنا عن صورة تقليدية ويبين لنا بوضوح أن المفكر التقليدى - بدون هذه الوظيفة المعرفية اجتماعيًا والمتجاوبة مع نشاط مجتمعى، يرتد أو ينتكس سريعًا إلى التقليد فكرًا أو سلوكًا، أى إطار معرفى/ قيمى، فهو فى باطن فكره له الحاكمية ومقطوع الصلة بالواقع.

وهكذا يمكن القول: إن التقليدى بفكره أو بلغته إنما هو أحد تجليات أزمة الوعى الاجتماعى والتاريخ فى مجتمع يعانى من السكون وعدم التجديد، تجديد الفعل والفكر؛ ومن ثم تجديد اللغة. إن التعامل مع العصر يكون بفكر أى بلغة حضارة العصر التى هى منتج اجتماعى حضارى. وبهذه اللغة نقرأ حياتنا وتاريخنا وعالمنا قراءة جديدة، وتكون هى القراءة الأرجح صوابًا والأنجع وسيلة - لرسم معالم المستقبل والتحرك نحوه. ومن ثم نقول: إن المسافة الفاصلة بين اللغتين هى مسافة حضارية. وتستلزم المصالحة أو عملية التصحيح نقلة حضارية بكل مقتضياتها : لغةً، ومنهجَ تفكير، ونظرةً إلى العالم، ونهجَ تعامل أو تناول لظواهر الوجود. أعنى أن قطع هذه المسافة الفاصلة لا يتأتى

إلا بفضل وظيفة معرفية كاملة الأركان لينتقل الإنسان/ المجتمع نقلة حضارية جديدة.

إشكالية الدلالة :

أما مسألة المصطلح فإنها تتعلق برسم الكلمة ودلالاتها وذيوعها اجتماعيًا، ولا يخفى أننا نعاني مشكلة في هذه العناصر الثلاثة: الرسم، والدلالة، والرواج، فقد نجد مصطلحًا واحدًا مرسومًا بالأحرف العربية في صياغات مختلفة باختلاف المترجم، وقد نجد مصطلحا عربيًا غير واضح المدلول لغياب إطاره الفكري ونشاطه العلمي المتولد عنه، وقد يكون للرسم الواحد دلالات متباينة عند أصحابه في اللغة الأجنبية لأسباب اجتماعية وثقافية وتكون المشكلة في التعبير عن ذلك عربيًا.

إن المصطلحات العلمية هي في حقيقتها إفراز ونتاج عمليات بحث فكري. وهنا يكون المصطلح تعبيرًا وتجسيدًا لوحدة الفكر والفعل أو وحدة النشاط الاجتماعي الإنتاجي والنشاط الفكري معًا، وليس في استقلال؛ إذ يضع الباحث مصطلحًا للدلالة على موضوع اكتشافه، أو حدث ما يعايشه. ووضوح المعنى في الأذهان لا يكون إلا بتصور الذهن لدلالة المصطلح، أي عناصر الحدث كآلية أو كموضوع. وطبيعي أننا لا ننشد امتلاك كلمة عربية جديدة نزهو بها أو إبدال منطوق غربي بمنطوق عربي، وإنما غايتنا وضوح المعنى والصورة الذهنية والمفهوم.

الأمر الذى لا يبين جيداً إلا من خلال نشاط علمي موازٍ من شأنه أن يوضح بل ويضيف.

المصطلح معرفة وفهم :

والمصطلح العلمى ليس كلمة فقط منطوقة أو مكتوبة مودعة فى قاموس، بل هو جزء من نشاط معرفى هو بعض نسيج المجتمع. الكلمة في حد ذاتها خاملة سلبية، ولكنها ضمن هذا النسيج تعبر عن فعالية نشطة داخل بنية فكرية تجسد علاقة الإنسان بالحياة، ومعبرة عن مستوى معرفى، وتتداخل فى رابطة عضوية وبمصطلحات أخرى أى بنية معرفية دينامية آخذة فى التطور.

وهكذا لا يكون المصطلح كلمة جديدة، بل وحدة من وحدات لغة العلم التى تسعى إلى إثبات حصاد البحث والتجريب، أى إثبات المعارف، إنه معرفة مجالها النشاط المجتمعى، وهو بهذا المعنى إنجاز بكل ما تعنيه كلمة إنجاز من فعالية إيجابية أو إضافة.

وهو أيضاً إنجاز من حيث إنه لبنة من لبنات نسيج النشاط المعرفى المجتمعى للتحقق تجريبياً أو نظرياً من العالم. إنه إنجاز من حيث إنه وليد شرعى لبحث نظرى أو تجريبى يتعين أن يكون ضمن إطار الوعى، ومن حيث إنه إنجاز فإن - شأنه شأن العلم - له دلالة تاريخية واجتماعية؛ ومن ثم فهو رهن بزمان نشأ فيه أدى إلى ظهوره أو اندثاره.

ورهن بظروف اجتماعية من حيث القيم التى تعززه أو تنبذه والنشاط العلمى الذى يستوعبه ويمنحه الحياة.

الوظيفة الاجتماعية للمصطلح :

المصطلحات العلمية تأتى ذلولة منقادة لمجتمع يمثل العلم فيه نشاطًا معرفيًا سائدًا، وفعالية لها دورها فى بناء المجتمع. هكذا الحال فى عصور الازدهار الحضارى، حيث الترجمة تلبية لحاجة اجتماعية، أى استجابة لنشاط إنتاجى إبداعى. ليس الأمر أن هناك لغة متخلفة وأخرى متحضرة، وإنما هل ثمة وظيفة اجتماعية للمصطلح، أو سيظل مهجوراً أو محصوراً؟ فالنشاط العلمى الاجتماعى هو الكفيل بتيسير وإنجاز صوغ المصطلحات ومنحها الحياة، وإضافة الجديد واستيعاب الوافد وليد حركة الإبداع العلمى النشطة فى العالم.

ومهمة التعريب لا تنتهى عند صياغة مصطلح برسم عربى ظنًا منا أن المصطلح العلمى ثابت الدلالة يكفى تعريبه مرة وإلى الأبد. فهذا غير صحيح؛ إذ إن المصطلح – من حيث هو ظاهرة علمية – له حياة ومسار. وتجارب الأمم شواهد صدق على ما ذهبنا إليه، من ذلك تجارب اليابان والصين وإسرائيل. مثال : إسرائيل واللغة العبرية؛ فقد كانت اللغة العبرية فى عداد اللغات الميتة. ولكن مع نشأة إسرائيل بدا الاهتمام بإحياء اللغة العبرية لتكون أداة تواصل بين شتات المهاجرين الذين وفدوا من بلدان متعددة الألسن. ومع النشاط العلمى الاجتماعى سرعان

ما أصبحت لغة حية متطورة ومعبرة عن مختلف دقائق العلوم. ولو كان المجتمع الإسرائيلى قنع بالأدب والشعر مظهراً للنهوض الحضارى لجاء إحياء العبرية فى صورة لغة أدب وشعر من دون العلوم.

إن إحياء اللغة فى مجتمع عازم على استيعاب مختلف العلوم وممارستها والإفادة بها، والمساهمة فى النشاط العلمى الإبداعى - جعل اللغة العبرية أداة متقدمة اغتنت بالمصطلحات العلمية الجديدة وقادرة على التعبير السهل والدقيق عن مختلف القضايا العلمية، وحدث هذا استجابة لحاجة ملحة لمجتمع نشط علميًا، وليس مجرد مجتمع يتلقى الوافد الجديد حسبما يأتى له.

لم يكن جوهر المشكلة هو ترجمة المصطلح؛ بل تهيئة وظيفة اجتماعية للمصطلح، من خلال نشاط اجتماعى أصيل وفعال؛ فاللغة هى أكثر وسائل التفكير الإنسانى دقة ومرونة، ومن ثم لا تبقى ساكنة إلا بسكون مجتمعها، ومتطورة أبداً بتطوره. وهى فى نشأتها وارتقائها إنما تواكب التغيرات التى تطرأ على بنية الحياة الاجتماعية والثقافية وتعكس واقع الفعالية النشطة أو ركود المجتمع.

وإذا كانت اللغة نتاج مجتمع فإنها أيضًا وجود هذا المجتمع أو صورته، ولا تستطيع كلمة أن تكتسب أهلية العضوية فى نسيج اللغة، وشهادة بقاء وحياة، ما لم يكن لها رصيد فى النشاط العملى العلمى الذى يضفى عليها مشروعية الوجود.

جوهر القضية ليس كلمة عربية بديلة؛ بل فعل عربى بديل تجرى معه اللغة لسانًا عربيًا.

أزمة الترجمة العلمية
وتعريب المصطلح

أزمة الترجمة العلمية انعكاس لأزمة المجتمع، كذلك أزمة تعريب المصطلح العلمى تعبير عن هذه الأزمة المضاعفة. المصطلح لغة، واللغة فكر، والفكر وجه تعبيرى للفعل الاجتماعى النشط؛ إذ لا فكر فى المجرد، أعنى لا فكر بدون فعل اجتماعى. والفكر فى عصرنا الراهن فكر علمى؛ لأنه وليد فعل اجتماعى علمى تجسده البحوث العلمية النظرية والعملية بقواعدها المنهجية؛ ولهذا نجد المصطلح العلمى يعود فى نسبه نشأة وتكوينًا إلى مركز أو موطن النشاط العلمى الاجتماعى، وحيث توجد مراكز البحث العلمى المعرفى التى تبدع اللغة أو المصطلح تعبيراً عن نشاطها الاجتماعى، وتكون هى موطن تصدير المعرفة والفكر والمصطلح. وتظهر هنا مشكلة الانفتاح. التلقى والترجمة والقدرة على الاستيعاب والمواكبة، شريطة أن يعرف المجتمع طريقه ومفاتيح النهوض؛ ومن ثم تكون له معايير الاختيار. وقد تكون المشكلة أزمة تحول دون ذلك كله وتكرس التخلف إذا ما سد المجتمع السبيل وآثر الانزواء والانغلاق، وقنع بمظاهر المحاكاة للاستهلاك، وعجز أو عزف عن بذل نشاط مجانس

حضاريًا يؤهل المجتمع وفق قضاياه ومشكلاته وخصوصيته لمواكبة الفكر، وابتداع المصطلح الذى يفضى إلى تطوير اللغة من خلال تطوير الفعل الاجتماعى الذى يجسده مشروع قومى.

وفى ضوء واقع حال الترجمة العربية وتناقضاته مع مقتضيات العصر تتكشف أسباب ندرة وقصور الترجمة العلمية وأزمة تعريب المصطلح. وغنى عن البيان أن لا تقدم لأمة الآن بدون استيعاب العلوم الأساسية وتوظيف أسس العلم؛ نظريات، ومنهج تفكير، وتطبيقات عملية، باعتبار العلم قوة حركة وهيمنة للبلدان المتقدمة. لقد تعثرت خطواتنا فى سبيل ترجمة أمهات الكتب ودوائر المعارف التى تسهم - علاوة على نشاطنا الإبداعى الذاتى - فى صوغ نظام معرفى عصرى أى علمى.

والترجمة العلمية لا تأتى اعتسافًا، ولا تخضع لاختيارات فردية أو عشوائية؛ وإنما رهن توفر رؤية استراتيجية تنموية شاملة؛ وإيمان بدور الإنسان العام صاحب المصلحة أن يعايش مناخًا عامًا وتنشئة اجتماعية وتعليمية يتأهل بفضلهما للانتماء إلى المعرفة العلمية والتفكير العلمى، ويرى فيهما أداءه لصنع المصير. هذا علاوة على تأسيس حقه اجتماعيًا فى حرية التماس المعرفة ونهمه فى تحصيلها من منطلق عشق المغامرة والاستكشاف، وإيمانه بقيمة المعرفة الإنسانية فى تنوعها وتعدد مصادرها وحق تحصيلها وفق منهج بحث محدد القواعد؛ باعتبار أنها الأقدر على صنع الحياة، وأنها ركيزة البناء الاجتماعى والسلوك الفردى، ودعامة الرفاهية وحل مشكلات الحياة.

واستطراداً لهذا نقول: إن التنمية الحقيقية بكل صورها، بما فى ذلك الثقافة والفكر، أى بناء الإنسان - رهن العلم. والتنمية تعامل اجتماعى نشط مع الطبيعة والإنسان. وهل يكون ذلك بغير العلم؟ وإذا كان الإنسان العام دعامة البناء الجديد، فهل يكون ذلك بدون تعليم علمى ومعارف علمية ليكون أهلاً للفعل الإبداعي العلمى؟ والعلم بلا وطن، فهل نعيد بناء أنفسنا ونؤكد ذاتنا فى عزلة عن الآخر دون وعى نقدى وصناعة علمية تشمل الجميع؟

وليس غريبًا أن عصر العلم بدأ مع عضر الصناعة.. العلم المنهج والمبحث والبرهان العقلى والإيمان بالعقل النقدى وبالتغيير قانونًا للوجود. ولكننا لانزال نعيش عصر ما قبل العلم، وهذا ما تؤكده حال الترجمة العلمية فى عالمنا العربى. نعيش عصر ما قبل العلم ليس فقط بسبب غلبة الإنسانيات - وإن كان الفصل بين علوم إنسانية وعلوم طبيعية بات فصلاً غير مستساغ، فى ضوء الإيمان بوحدة العلم انطلاقًا من الإيمان بوحدة الإنسان/ الكون، ناهيك عن تطور الإنسانيات وصبغتها العلمية - ولكن من حيث موقفنا من المعرفة، ونهجنا فى الحياة وافتقارنا إلى المنهج، وغياب البحث العلمى المؤسسى أو عزلته اجتماعيًا ؛ ومن ثم غياب النشاط العلمى كفعل اجتماعى وغياب المناخ الحافز له والذى ينعكس فى غياب الطلب على الكتاب العلمى وقصور الإقبال على ترجمته. وإذا كان العلم إيمانًا بالتغيير بناء على معرفة علمية بالواقع؛ فإننا فى ضوء إغفال العلم نعزف عن تغيير مجتمعنا ونعيش حياة

استاتيكية أو راكدة أو حياة تخضع لنظام معرفى استاتيكى؛ ولذلك لا نجد قضية تغيير المجتمع هى القضية الملحة بل تغيير الذات، أى أن نغير ما بأنفسنا. ونعيش عصر ما قبل العلم متمثلاً فى غياب العلوم الأساسية والموسوعات والدوريات والمعاجم العلمية، غيابها إبداعًا وفعلاً. وهذا لغياب الفعل العلمى كنشاط اجتماعى. ونجد لغتنا - وهى فكرنا - لغة غير علمية وتعبر عن فكر بعيد كل البعد عن العلم. ولأننا نعيش عصر العلم بلغته؛ فإننا نعيش أزمة التناقض بين العلم واللغة العربية. والتزمنا هنا نهجًا خاطئًا؛ إذ حصرنا مشكلة الترجمة العلمية فى المصطلح العلمى. وراج القول: إنها مشكلة لغة. وأصبح الموقف إما دفاعًا عن اللغة أو اتهامها بالقصور، ثم نراه اتهامًا مردودًا إلى نحورنا؛ لأن اللغة هى ذاتنا. ونحتال لدفع الاتهام دون أن نحتال اشق الطريق الصعب وهو تغيير المجتمع إنسانًا وفكرًا وسلوكًا ونظرة إلى الحياة وتقديسًا للمعرفة العلمية. وذهب بنا الظن إلى أننا إذا ترجمنا المصطلح فقط تيسرت لنا المعرفة العلمية والنشاط العلمى، ونسينا أن اللغة فكر نشط أى فعل اجتماعى فى الأساس. واللغة العلمية هى النشاط العلمى الذى يهيئ إمكانات تطويع اللغة. الإنسان يكون إنسانًا علميًا بفضل نشاطه العلمى وليس بما يمتلكه من مفردات، فالكلمات تأتى تالية للنشاط، والمجتمعات التى تقدمت هى تلك التى طوعت النشاط العلمى للغة الأم، أى بدأت به ثم عبرت عنه وأبدعت مصطلحاتها العلمية بفضل نشاطها، ولم تنكب بداية ونهاية على تطويع المصطلح الأجنبى.

نحن ننظر إلى اللغة فى انفصال عن النشاط الاجتماعى كأن لها وجودها المستقل؛ ومن ثم نظن أن العيب والقصور في اللغة وليس فى الإنسان الراكد الذى لا يفعل. ولهذا يدفع البعض قائلاً: إن اللغة قادرة على أن تكون لغة علم، ولكن كيف والمجتمع عاطل صفر اليدين من النشاط العلمى، وحياة المصطلح رهن الاستعمال الاجتماعى له فى مجاله؟! ويرى البعض أيضاً أن قصور اللغة سببه الغزو اللغوى وليس الجمود أو حالة الخمول الاجتماعى Social Apathy. والسؤال هو: كيف نوفر المصطلح ونحن عاطلون عن النشاط العلمى؟

المصطلح قرين ونتاج البحث العلمى. والمصطلح مفهوم، والمفهوم لا يتحصل إلا من خلال وبفضل نشاط البحث العلمى ومعايشة العلم؛ لأن المصطلح لغة أى فكر أو مفهوم والذى هو الوجه الآخر للفعل الاجتماعى فى وحدة وتكامل. وسوف يظل العلماء يكتشفون ويبدعون، وسنظل نحن نكتشف ونبدع، وتظل اللغة تلهث ابتغاء صياغة المصطلحات الدالة على المفاهيم الجديدة. ولكن نشاطنا هو الأساس الأول لكى نواكب. ومع ترجمة القديم أو السابق نستطيع من خلال نشاطنا البحثى أن نلاحق ونضيف. إن لدينا الآن مئات الآلاف من المصطلحات العلمية التى تتزايد باطراد ولكن أين صداها فى التعليم أو فى المجتمع؟ وهى على كثرتها لم تصنع من مجتمعنا مجتمعاً علمياً. إن المصطلح ظاهرة اجتماعية يولد ويحيا من خلال النشاط الاجتماعى. ولغة العلم تنمو وتزدهر فى وطن يرعاها حين يجسدها فى فكره ونشاطه فتكون بعضاً من وجوده الحياتى.

البعد الاجتماعى
لأزمة ترجمة المصطلح

المصطلح والخطاب الاجتماعى :

لم تبدأ اللغة بصيحة بل بفعل. والكلمة ليست صوتًا ولا الفعل حركة ظاهرية، ولكنها ذلك النشاط التاريخى الفردى المجتمعى الفاعل فى الوجود والمنفعل بالوجود عبر دائرة تأويلية يتوسطها الجهاز العصبى؛ لذا فإن عبارة "الكلمة - الفعل - الفهم" تؤلف معًا فى تزامن بنية واحدة متحدة العناصر لوعى الإنسان من حيث هو إنسان اجتماعى فاعل متطور تاريخيًا تطورًا ثقافيًا بيولوجيًا فى إطار من الوجود النفسى الفيزيقى. والوجود هنا ليس شيئًا مستقلاً عن الفكر. وكذلك الفكر واللغة والأشياء والنشاط فى التاريخ تؤلف جميعها الإنسان. أو خطاب الإنسان مع الطبيعة والمجتمع.

وهنا مكمن خطر؛ ففى حالة تخلف أو غياب عنصر الفعل النشط الإنتاجى قد تأخذ الكلمة صورة استقلال ذاتى متوهم باعتبارها وعى الروح الفردى المثالى، ووعاء خبرة مقطوعة الصلة بالفعل أى بالواقع. وتتراص الكلمات طليقة بمحتواها الانفصامى. ويكون الفهم هنا غير عيارى من نسيج تخييلات ثقافة مجتمعية محلقة فى الفضاء.

والمصطلح شكل أرقى من أشكال الكلمة، قياسًا إلى اللغة العادية؛ ذلك أنه إحدى لبنات لغة العلم ويستهدف التعريف أو تحديد المفهوم فى دقة وإحكام وإيجاز، ولكنه من هذه الزاوية تحديدًا يدخل أيضًا نطاق اللغة العامة وبناء الوعى؛ ذلك لأن العالم المتخصص مثلما يتحدث إلى أقرانه، يتواصل أيضًا مع الآخرين من غير أبناء تخصصه؛ ومن ثم يتعين أن تكون لغته مفهومه للجميع. ومن هنا لا يكون المصطلح، ومن ثم لغة العلم - رموزًا اصطلاحية بين متخصصين؛ بل لغة تفسير ووصف وتحليل لظواهر الكون. ولهذا تسهم لغة العلم بمصطلحاتها فى صياغة إطار معرفى علمى أو لنقل: عصرى. واتفاق الآراء بشأن هذا الإطار هو ركيزة انتماء المجتمع إلى رؤية واحدة وموحدة للكون والإنسان، ولا يكون الحوار بين أبنائه حوار طرشان.

المصطلح والحوار النشط :

ووضع المصطلح فى لغة عربية، أو ترجمته إلى أى لغة - هو نوع من التقدمة التى يقدمها المؤمن الصادق على المذبح فى محراب العلم المؤسسى متوقعًا طرفًا آخر يقبله ويجد فيه اتساقًا مع حاجته ويكتمل بهذا طرفا الحوار اجتماعيًا. وبذا يأخذ المصطلح مكانه ممارسة تكفل له الحياة فى سياق اجتماعى. فاللغة ليست مفردات؛ وإنما هى نسيج خطاب مجتمعى غير منفصل عن نسيج الحياة الذى هو مجلى هذا الخطاب. وهكذا تكون حياة اللغة رهن نشاط اجتماعى هادف؛ وإلا فقد الخطاب الاجتماعى مبرر وجوده.

أقول هذا لأننا فى مناقشاتنا لمسألة تعريب العلوم، وما أكثر ما قيل فى هذا الاتجاه، نذهب إلى أن جوهر الأزمة عندنا هى أزمة تعريب أو صك مصطلحات وفق قواعد الاشتقاق اللغوى، وكأن العلم هو المصطلح فقط. وغاب عن الأذهان أن المصطلح نتيجة وليس سببًا، إنه تلخيص أو تجريد موجز لحدث وقع؛ ومن ثم فإن السبب هو الفعل، أعنى النشاط العلمى أولاً حسب مقتضيات العصر. العلم كمؤسسة اجتماعية وركن أساسى فى سدى ولحمة استراتيجية قومية للتطوير الحضارى؛ إذ فى ظل هذا النشاط وبفضله ينشأ المصطلح وتجرى لغة العلم على الألسن وتتشكل الرؤى. تتطور اللغة، وتتطور العقول، ويتطور واقع المجتمع على جميع المستويات. إننا نبرز قضية الشكل بينما جوهر الأزمة - فى ظنى - هو أزمة بطالة مصطلحية. قد تتوافر المصطلحات ولكنها عاطلة لم تتحول إلى مصطلحات شغالة اجتماعية. أى صيحة بلا عقل؛ ومن ثم ينعكس عليها حالنا من تشرذم وتباين وتعدد بلا رابط.

اللغة نشاط وتواصل معرفى :

ليس مناط الأمر استنطاق القاموس، والتعسف أحيانًا فى التخريج اللفظى، بل الأمر أبعد من ذلك، إنه المفاد والدلالة والتمثل الذهنى فى ضوء نشاط فعلى وعقلى إنسانى ييسر التعريف، وبذا يتكامل الخطاب الاجتماعى؛ ذلك لأن اللفظ أداة لتحقيق وظيفة أو فى خدمة فعل اجتماعى يشتمل فى آن واحد على رؤية إلى العالم وعلى جهد بنائى

أو إبداعى تطويرى. فاللغة كما قال سوسير فعل اجتماعى Social Act، أى فعل من المجتمع وإليه، حيث المجتمع مؤسسة فاعلة وبنية متطورة.

ويقول عالم الفيزياء فيرنر هايزنبرج من واقع خبرته (فى كتابه "الفيزياء والفلسفة"، ترجمة د. أحمد مستجير، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٣، ص ١١٩): إن العلم يرتكز على اللغة كوسيلة اتصال وأننا نوسع اللغة إذ نوسع المعرفة العلمية. معنى هذا فى رأيى أن المصطلح العلمى أساسى ولكنه ليس علة وجود ذاته أو ليس وجوداً كافيًا بذاته، فضلاً عن أنه ليس وحده هو المطلوب؛ لأنه لا يمثل بذاته لغة وإنما قيمته تتحقق من توافر سياق لغة اتصال أى لغة علم، وهو ما يعنى بالتالى وجود مجتمع علمى ثم يخلق هذا الصلة بينه وبين اللغة العادية بحكم الوظيفة الاجتماعية للعلم. ولغة العلم هى لغة تواصل، كما أنها أداة تصور العالم أيضًا، وتعطى الصورة العلمية للعالم؛ ومن ثم فإن اتساع اللغة رهن باتساع النشاط المعرفى العلمى فى المجتمع بعامة. هذا وإلا ظلت لغة العلم نوعًا من الميتافيزيقا بالنسبة للمجتمع، وتجلت فى لغة المجتمع بالمقابل ما يمكن أن نسميه ميتافيزيقا الغياب، أى غياب لغة العلم ورؤيته عن لغة المجتمع، وينقطع حبل التفاهم وتجمد حركة المجتمع.

المفهوم ودقة الدلالة :

والحياة فى ظل هذه الميتافيزيقا تجعلنا أسرى الشكل دون الدلالة، حيث يغدو المصطلح على المستوى الاجتماعى كلمة وليس فكرًا.. صيحة وليس فعلاً.. مفردات وليس وعيًا.

نحن عادة عند ترجمة المصطلح العلمي نناقش دقة المصطلح لغويًا، ولا نناقش علاقة المصطلح بالمفهوم أو الرؤية ودقة هذه العلاقة ومدى تطابقها. ولكن حيث إن المصطلح لبنة فى لغة علم وثيقة الصلة - حسبما هو مفترض - باللغة الطبيعية؛ فلابد وأن يكون المصطلح على لسان الباحث طرفًا فى حوار أو خطاب اجتماعى يحقق تواصلاً عقلانيًا ويضيف إلى الممارسة الحياتية قوة، ويساهم فى تدقيق الرؤية، وبذا يكون الاستخدام الصحيح للمصطلح ودقة بنائه عاملين أساسيين فى رؤية للكون هى الرؤية الصحيحة حسب مقتضى العلم أى رؤية عصرية. ولقد كانت مشكلة دقة التعريف أو التحديد الاصطلاحى إحدى مشكلات الفلسفة منذ القدم.

ولنا أن نسأل : ولكن لماذا نشأت هذه الحاجة إلى تدقيق العلاقة بين الكلمة والمفهوم وكذا الفهم على المستوى العام، أو مشكلة تحديد المفاهيم فى اللغة؟ متى تبرز هذه المشكلة فى مجتمع ما كمشكلة ملحة تتجاوز حدود الشكل إلى المضمون؟ وما نوع المجتمع الذى يضع فى الصدارة مشكلة المعرفة ودقة المفهوم؟ ليس المجتمع الذى يعيش على الريع أو يأتيه رزقه منحة من الطبيعة أو من حيث لا يحتسب. إنه المجتمع الذى يتصف بكثافة النشاط العلمي وكثافة العمل الحياتى المنتج؛ حيث عدم الدقة يسبب مشكلات وأخطاء وأخطار فى الممارسة العملية. ففى هذا المجتمع تكون الكلمة تساوى الحياة، ويكون المصطلح يساوى المفهوم أى إطارًا معرفيًا، ويتعذر فهمه أو قبوله أو تصوره

إذا كان ضمن إطار مخالف؛ لأنه رهن إنجاز حقيقى واقعى عقلانى وقوة مؤثرة فى بنية الثقافة العامة وسط نشاط عملى موضوعى لهذا المجتمع الخالق له.

تحديث اللغة وتحديث المجتمع :

إن المصطلح العلمى المترجم فى مجتمع راكد يكون مصطلحًا استاتيكيًا فاقداً لعنصر التطور الحياتى بل وربما لا يساهم فى تغيير الرؤية العامة للكون إلا عند عدد محدود منعزل. بينما فى مجتمع يشكل العلم فيه مؤسسة نشطة فاعلة - نجد المصطلح إبداعًا حيًا ومتطوراً ووجوداً ماثلاً فى الذهن والواقع.

وغنى عن البيان أن تقديم مصطلح أو معجم مصطلحات يعنى جهداً أمينًا طموحًا يستهدف المشاركة ضمن عملية ترشيد تاريخية شاملة لتحديث المجتمع على جميع المستويات بما فى ذلك تحديث اللغة. ولكن ماذا لو أن هذا الجهد يصب فى مجتمع راكد لا حاجة به إلى مفردات تتجاوز ميتافيزيقا الغياب؟ ستغدو الكلمة خلقًا ذاتيًا فى حالة حصار وليست نبتًا طبيعيًا نابعًا من خضم الحياة الصاخبة، واستجابة لوظيفة واقعية وحاجات عملية تلح على إيجاد المصطلح ليأخذ سبيله فى حياة المجتمع، وتكتمل به عناصر الخطاب العلمى والاجتماعى المحدد المفاهيم فى تطور ارتقائى نحو المزيد. وهنا فى مجتمع الفعل أو النشاط الإنتاجى يغتنى المصطلح بما يملكه من رصيد فى نشاط المجتمع وما يحققه من حاجة اجتماعية وممارسة حياتية.

نحو إنشاء مؤسسة
عربية للترجمة

تمثل الترجمة نشاطًا اجتماعيًا فى الاتجاه الصحيح، حين تكون وجهًا لاستراتيجية تنموية شاملة؛ ومن ثم دافعًا قوميًا، وحاجة فعلية وليدة نشاط اجتماعى إنتاجى، وبذا تكون بحق بعض النشاط المعبر عن الهوية الثقافية للمجتمع، وتساهم الترجمة إيجابيًا فى تعزيز وجودنا المستقل، ودعم الروابط المشتركة لأبناء المجتمعات العربية وتوحيد ثقافتهم وفكرهم المشترك من خلال نظام تعليمى علمى مشترك، ونشاط علمى موحد أو متناسق؛ حيث يصبح النشاط العلمى نشاطًا مؤسسيًا لمجتمع علمى موحد اللغة، ومتكاملاً مع المجتمع الواسع.

ومن التحديات التى تواجهنا فى مجال الترجمة، علاوة على التحديات الحضارية – أننا لا نجد إجابة واضحة عن تساؤلات كثيرة:

لماذا نترجم؟ وماذا نترجم؟ ومن الذى يترجم؟ ولمن نترجم؟ ومن الناشر؟ وكيف نختار الكتب المستهدفة؟ وما مدى علمنا بالمنشور كله؟ ومدى علمنا بأهداف مجتمعنا، أى مدى تأصيل هذه الأهداف – إن وجدت – فى بنية الوعى والقيم الاجتماعية؟ ومن الذى يوجه حركة

الترجمة فى مجتمعنا الآن إن صح تسميتها حركة اجتماعية؟ وما هو دور مؤسسات النشر فى تشجيع الحركة وانتمائها؟ والملاحظ أن نسبة كبيرة من المترجمات تدفع بها مؤسسات خارجية لها رؤيتها الخاصة المتمايزة. ثم أخيراً أين تصب جهود الترجمة فى المجتمع؟ وهل من سبيل للتنسيق المثمر بين هذه الجهود من حيث الاختيار والإصدار والانتشار؟

وضاعف من خطر التحديات أن تضاعفت كلفة طبع ونشر الكتاب بعد ارتفاع أسعار الورق وما فرضته اتفاقيات دولية جديدة.

نحن مقبلون على حقبة تثاقف قسرى مكثف، أو صراع ثقافى غير متكافئ. وهذه الحقبة أحد مظاهر التحدى الحضارى، سواء جرى التثاقف باسم المتوسطية، أو الشرق أوسطية، أو العالمية. ونحن فى جميع الأحوال عاطلون من أسباب المناعة الثقافية التى تمثل العلم والإنتاج العلمى ركيزتها؛ مما يجعلنا فريسة محتملة، وبدلاً من أن يكون التفاعل ثقافيًا صحيًا سوف يتراوح ما بين الارتماء على الآخر أو الانكفاء على الذات، ونغدو نماذج لتاريخ انقرض.

إنها تحديات توجب اتخاذ خطوات جديدة جريئة غير مألوفة بدلاً من - أو قبل - أن نصبح بالحتم فريسة للأمية العلمية والضياع، حين نسير فى الترجمة فرادى على غير هدى، أو يعز علينا الحصول على الكتاب لتجاوز كلفته حدود الطاقة. الخطر جماعى؛ ومن ثم يتعين أن تكون الاستجابة جماعية، أعنى التزام نهج قائم على حشد الطاقات لا يلغى خصوصية النشر وإنما يجمع وينسق.

من هنا أدعو إلى قيام "مؤسسة عربية للترجمة". وأتجه بهذه الدعوة من منطلق الإيمان بأن الترجمة نشاط اجتماعي هادف له عائده المجتمعي الشامل، ومن مقتضى تضافر الجهود لتصب الروافد في مجرى رئيسي على المواجهة وخلق الإمكانات والتقدم في ثقة واعية.

ويحفزني إلى هذه الدعوة إيمان بأن المجتمعات العربية لن تتمكن من تشكيل كيان مستقل متميز يساهم في إحياء الفكر الوطني والقومي الثقافي والحضاري في اتساق مع العصر دون نهضة تنموية شاملة تطول مناشط الحياة؛ ومن ثم تجد تعبيرها الصادق في اللغة التي تغدو لغة تعلم وتفكير وممارسة وإبداع. أي لغة إنتاج حضاري علمي جديد، ولن يتأتى هذا بصورة متكاملة وهادفة ودامغة إلا بإنشاء مؤسسة تنسق بين دور للترجمة قادرة على خلق حركة ترجمة واسعة تستوعب جميع التيارات على اختلافها، وتستقطب الكفاءات، وتجعل لنشاط الترجمة دوراً ومكانة في مجتمع يقدر إنتاجها، ويؤازر جهودها، ويتولى أمرها من يؤثرون العلم وصالح الوطن على المغانم الأنانية العاجلة.

شروط نجاح المشروع :

وتحقيق هذا لا يتوقف على اعتبارات فنية فحسب، ولكنه يستلزم رؤية سياسية على جميع المستويات: الدولة، والمؤسسات، والهيئات، والأفراد في المجتمع؛ حيث تتضافر الجهود قوميًا ووطنيًا لمواجهة الصعوبات من أجل فرض :

١ - استراتيجية تنموية شاملة تتخذ العلم أساسًا وهاديًا لها، وتحتل بؤرة الوعي العام، وتقوم على وعي علمي بالتحديات والأهداف.

٢ - تحول النشاط العلمي إلى نشاط مؤسسي داخل في صلب هذه الاستراتيجية وداعم للمناخ العلمي المحيط بالوعي الاجتماعي.

٣ - وضع تعليمي يضع نصب عينيه غرس التفكير العلمي منهجًا ومبحثًا ونظريات.

٤ - وضع ثقافي عام تجسده وسائل الإعلام والممارسات الحياتية والانفتاح الفكري على الفكر العالمي بكل صوره المتعددة وبكل تناقضاته معنا.

٥ - الحرية وحقوق الإنسان العام؛ ذلك لأن الترجمة في العالم العربي لاتزال جهد دولة مركزية يخضع لسلطانها، ولهذا تنزع إلى الترجمة الأدبية أو التقنية التي لا تتعارض مع بطش السلطة. السلطة السياسية أو الثقافية الموروثة. وغني عن البيان أن عصر العلم رهن الديموقراطية؛ إذ إن ما قبل المجتمع الديموقراطي نشاط قبل علمي. وكلما اتسع نطاق الليبرالية اتسع نطاق النشاط العلمي بمدلوله ومضمونه الاجتماعيين، وحيث لا توجد نهضة حداثية حقيقية يقل الاهتمام بالجانب العلمي، وتضيق مساحة التفكير العلمي المنهجي.

والإنجاز العلمي يوصف بحق بأنه إنجاز عصر العلم لمجتمع ديموقراطي، أي مجتمع الإنسان العام الذي أصبح صاحب حق

فى المشاركة فى صنع القرار ورسم طريق الحياة بناء على فكر حر، وحرية الوصول أو الحصول على المعلومات ونقدها والتمرد العقلانى المنهجى عليها؛ ولهذا فإن البعد السياسى والاقتصادى مكمل للبعد العلمى التعليمى الثقافى. ودون هذه الشروط تفقد الترجمة العلمية الدافع إليها والسوق الرائجة لها.

وأرى أن تكون المؤسسة العربية للترجمة أشبه بالمنظمات غير الحكومية، بعيداً عن سلطة السياسة والساسة كجهاز دولة حاكم، وإن ضمت عناصر منها بحكم دورهم فى النشر أو الفكر، وبعيداً عن الفردية كنزعة تنأى عن المشاركة الإيجابية فيما هو اجتماعى.

الدور المنتظر للمؤسسة :

نتوقع أن يكون للمؤسسة العربية فى ظل هذا المناخ وفى مواجهة التحديات الحضارية دورها الذى يفى بحاجة أمة تعى عبء مسئولية النهضة وشروطها، وحقيقة التكتلات الإقليمية، وتدرك أسس التكافل والتضامن على الصعيد الاجتماعى الوطنى والقومى. ومن هنا يتمثل الدور المنتظر فى :

١ - جمع وتوحيد وتنسيق جهود الترجمة والنشر، والتكافل فى التكاليف من أجل إصدار الموسوعات وعيون المراجع والمعاجم التى تشكل حجر الأساس لأى نهضة علمية.

٢ - خلق حركة ترجمة تتسع لجميع التيارات فى تفاعلها وتداخلها وتعارضها فى آن واحد بحيث تكون الترجمة آلية ضرورية تلبى حاجة ملحة وواسعة النطاق؛ مما يدعم كلاً من التوجه الفكرى وحاجة السوق.

٣ - تجنب الأثر السلبى لطابع التربح التجارى والاختيار الفردى أو العشوائى الارتجالى فى مجال الترجمة سواء للكبار أو للأطفال.

٤ - خلق صلة إيجابية فاعلة مع المجامع العلمية بغية توحيد المصطلحات وإصدارها ضمن المنشورات لتكون مرجعاً.

٥ - التعاون بين الناشرين لإصدار ثَبَت ببليوجرافى سنوى بالمنشورات المترجمة وعرض خطط المستقبل لتكون موضوع حوار، فضلاً عن ندوة ليكون الحوار والندوة بمنزلة تغذية مرتدة تراجع وتضيف وتصحح وتحفز المناخ العام.

٦ - خلق غرفة اتصال للتنسيق وتبادل المعلومات بشأن الموضوعات والمصطلحات.

٧ - تحقيق تكامل اقتصادى فى مجال النشر، وتكافل فى التوزيع، وتعاون فى إقامة معارض مشتركة متنقلة فى الأقطار العربية.

٨ - يمكن للمؤسسة الاتفاق باسم أطرافها مع الناشرين الأجانب، ومخاطبة دور النشر العالمية لعقد اتفاقات نشر أو للحصول على قوائم بالمنشورات تحت الطبع لاختيارات المستقبل.

٩ - تحـديد وسيلة - دون فـرض رقـابة - لضـمان غلبة الجيد في السوق، بمعنى المتفق مع خطة البلاد التنموية في خطوطها العريضة على المستوى القومي.

١٠ - يمكن للمؤسسة أن تكون لسان حال الناشرين العرب في الاتفاق مع الوزارات والهيئات الحكومية العربية لتزويد المكتبات العامة ومكتبات المدارس والهيئات بإصداراتها؛ مما يساعد على رواج الكتب.

١١ - يمكن للمؤسسة أن تجرى اتفاقات مع المجالس القومية والأجهزة الثقافية في البلدان العربية، ومع منظمات الجامعة العربية، وكذا مع المنظمات والبعثات والمراكز الثقافية الدولية (اليونسكو، البعثة الفرنسية، الاتحاد الأوروبي، فرانكلين... إلخ) ومع الحكومات والمجامع العلمية والاتحادات والنقابات لإصدار الكتب والمجلات العلمية والإفادة بامتيازات هذه الجهات في حدود التوجه الاجتماعي.

ولعلنا نفيد في هذا الصدد من التجربة اللبنانية حيث تتعاون دور النشر اللبنانية بفضل علاقاتها الوثيقة مع عدد من المنظمات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة أو للجامعة العربية في نشر إصدارات هذه المنظمات.

والجدير بالذكر هنا أن منظمة اليونسكو العالمية اقترحت في عام ١٩٩٢ مشروع "الكتاب - الجريدة" لتطبيقه في عدد من البلدان ومنها البلدان العربية، ومن المتوقع أن يشهد آخر عام ١٩٩٦ ولادة شبكة

صحف يومية صادرة باللغة العربية برعاية منظمة اليونسكو من أجل إصدار دورى لملحقات مجانية.

والهدف من المشروع إصدار عمل أدبى معاصر شهريًا، فى صورة ملحق صغير مترجم، تزينه صور ورسوم فنانين معاصرين، مع تعريف بكاتب النص. وتشمل الترجمة: روايات، مجموعات قصصية، مختارات شعرية. وتقرر أن يكون مركز هذه الشبكة العربية فى بيروت. وسوف تحوز الشبكة على دعم تنظيمى ومادى من منظمة اليونسكو.

وسواء كانت الترجمة هنا من العربية أم إليها؛ فإنها تستهدف الربح، فضلاً عن أن الاختيارات لا تخضع لخطة ضمن استراتيجية تنموية شاملة، ناهيك عن تفرد الجانب الأدبى دون العلمى. ولكن إذا ما تحقق حلم إنشاء مؤسسة عربية للترجمة فسوف يتغير الموقف.

١٢ - تساهم المؤسسة فى التعريف بالمترجمين وتنظيم رابطة لهم، ودعم اتحاد الناشرين العرب، حيث تعتبر المؤسسة الوجه التنفيذى التنسيقى العربى للاتحاد.

١٣ - خلق رابطة عمل بأجهزة الإعلام والصحافة لخدمة نشاط النشر.

١٤ - تتفق المؤسسة مع عدد من المؤسسات والشركات والاتحادات فى البلدان العربية (التى تقبل طوعيًا المساهمة بنسبة من صافى الأرباح السنوية، وقد تكون نصفًا فى المائة، فضلاً عن الهبات من الأفراد

والهيئات العامة والخاصة). وليس هذا بدعًا؛ فقد اعتاد أهل السياسة والجاه والمال ورجال الأعمال المساهمة فى تنشيط حركة الترجمة والتأليف؛ لما أدركوه من تفاعل بين مجالات اهتماماتهم واهتمامات عدد من العلوم. ويشهد مجال النشر العديد من أمثلة التمويل الطوعى لهذا الهدف، وإن كانت المشكلة هنا ضمان براءة التمويل والتبرع دون الحاجة إلى زج أو فرض اتجاهات أيديولوجية وحجب أخرى على حساب استراتيجية قومية.

الفكرة والتاريخ ودور الكويت :

والدعوة إلى "مؤسسة عربية للترجمة" ليست وليدة اللحظة؛ إذ سبق أن دعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى عام ١٩٧٣ إلى عقد "حلقة الترجمة فى الوطن العربى". وانعقدت الحلقة فى الكويت فى ١٩٧٣/١٢/٣١ وبحث فى : "تنسيق حركة الترجمة فى البلاد العربية، وإقامة جهاز تنسيق على صعيد العالم العربى يتولى وضع خطة قومية للترجمة بالاشتراك مع الأجهزة الوطنية وبالتنسيق مع المنظمات الدولية والمؤسسات العلمية الأجنبية المعنية بالثقافة العربية".

وفى الفترة من ٨ إلى ١١ نوفمبر ١٩٨٢ عقدت أمانة المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت الندوة الثانية بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والعلوم واتحاد الناشرين العرب، أصدرت الندوة

توصيات من بينها:

- إنشاء مؤسسة عربية للتعريب والترجمة والتأليف والنشر تكمل عمل المؤسسات القائمة.

- تنفيذ الخطة القومية للترجمة التى وضعتها المنظمة العربية.

وتوالت اللقاءات بعد ذلك ولم ينجح شيء. بيد أن هذا لا يحول دون إحياء الذكرى أو الإلحاح فى الطلب مادام أنه حق. وإن كانت دونه مخاطر ليس أقلها شيوع الفردية فى العمل وفى التفكير بين الدول والهيئات، وغياب استراتيجية تنموية قومية ملزمة ودافعة، بل غياب الوعى بالتحديات وفقدان العزيمة المشتركة لمواجهتها، ثم الافتقار إلى قيم عمل الفريق. ولكن ربما ننجح فى الاستهلال بالخطوة الأولى التى دونها لا تبدأ مسيرة الألف ميل.

وسوف تظل هناك تساؤلات كثيرة معلقة دون ريب، ربما تجيب عنها ندوة، أو خطوة جريئة بين دارين أو ثلاث من دور النشر تمثل النواة والطليعة وتكون شهادة جدوى.

المستقبل والمصير

نعود إلى ما بدأنا به من حيث مناهضة الترجمة والخوف من الانفتاح على العالم، وهو موقف مؤسس على ثقافتنا الاجتماعية المعاشة التى ترتكز على ثنائية نقيضية ambivalence: إما الانزواء والانطواء، أو الانطلاق من موقع الهيمنة، ثقافة تقبل التجانس مع ذاتها فقط. إما أنا أو الآخر. وأقول : إن مناهضة الترجمة موقف داعم لحالة التبعية؛ وهى هنا تبعية ثقافية للماضى، وأيضًا وفى الوقت نفسه تبعية لقوى مهيمنة أجنبية ومحلية. إن عطالة الفكر والفعل الاجتماعيين على مستوى العصر يجعل المجتمع فريسة لكلا الطرفين؛ ومن ثم فإنه موقف ضد التحريرية الإيجابية الفاعلة، ونراه تكريسًا للتبعية، إنه يحجب الفكر الجديد، ويدعم أو يمهد الأرض لغزو ثقافى مناهض لنا ولمصالحنا؛ إذ يضعف المناعة. ثم إن أصحاب هذا الموقف لا يرون الحداثة سوى تكنولوجيا مستوردة ولا هم لهم إلا استهلاكها. وهذا دعم للتبعية الثقافية والاقتصادية. وقد تظن السلطات المستبدة أن بالإمكان محاصرة الفكر العلمى الجديد داخل مؤسسة عسكرية تهيأ لها الحماية داخليًا وتُترك لها مهام التصنيع. ولكن هذا نقيض مقتضى الحداثة التى هى تطور جذرى لدور الإنسان العام، ولا نجد نظامًا حاكمًا سلك هذا المسلك واستطاع أن يبنى أمة ناهضة متحضرة وجيشًا قويًا صامدًا، بل سرعان ما ينهار النظام أمام أول اختبار وتعود البلاد إلى حالتها البدائية من جديد.

لهذا فإن الخوف من الترجمة هو دعوة للانغلاق والجمود. ولهذا أيضًا نرى أن الدعوة إلى الترجمة وتشجيع نشاط الترجمة بحاجة إلى إجابة على عدد من الأسئلة تكشف عن المضمون البنيوى الاجتماعى: ترجمة ماذا؟ ومن مَن؟ ولماذا؟ إذ يختلف الأمر حين يكون نشاط الترجمة رهن تطوير وتحديث وتحرير اجتماعى ونهوض علمى، وبين أن يكون استهلاكًا وترفًا. المهم ما الأسباب التى تمثل ضرورة اجتماعية؟ أى حاجة المجتمع النابعة من عملية تطوير داخلية تحدد المتطلبات اللازمة والداعمة. أى توفر إرادة وعمل إرادى هو اختيار بين بدائل كثيرة وثقافات عديدة لا نقع أسرى لها، ويعمل العقل العربى فى ضوء ضروراته واختياراته التى هى وليدة فعل اجتماعى نشط وصولاً إلى أهدافه.

وطبيعى أن الترجمة كنشاط اجتماعى منفتح وناجح تأبى الانحصار فى إطار لغة واحدة ننقل عنها وإنما تتجه إلى لغات عديدة صاحبة إنجازات حضارية وسباقة؛ ذلك أن الانحصار داخل لغة واحدة يعنى انحصارًا داخل نسق ثقافى واحد لفكر مجتمع بذاته. وهذا قد يكون له سلبياته. ولكن الترجمة عن لغات عديدة تفضى إلى دعم نهج التفتح ومبدأ التعددية.والتنوع والتسامح علاوة على الاستعانة بالجديد لدعم نسق ثقافى محلى بفضل تفاعل فكرى نشط، مثال ذلك: مدارس علم الاجتماع، أو علم الاقتصاد، أو الأنثروبولوجيا، أو الفلسفة، أو النقد... إلخ. إذا أخذنا فقط عن الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً سوف يحصرنا هذا فى إطار نسق ثقافى بذاته؛ نظرًا لأن العلم ليس محايدًا

مائة بالمائة. وتزداد التبعية لهذا الفكر أو ذاك إذا ما وقع العلم بين أيدى مجتمع عاطل عن الإنتاج العلمى.

وإذا ما استعرضنا واقع نشاط الترجمة فى العالم العربى نلحظ قصوراً وتدنيًا شديدين كمًا ونوعًا، ونلحظ فقدانًا للتوازن بين المعارف المتنوعة، وما يشبه العزوف أو الانصراف عن العلوم الأساسية. وتكشف المقارنات الإحصائية عن أن البلدان العربية غير محددة ولا موحدة الهدف والرؤية؛ لذا تأتى الإصدارات - تأليفًا وترجمةً - تعبيرًا عن حالة التشتت المعرفى والمستقبلى. ونجد تضاربًا ومفارقة واضحين بين الحاجة الاجتماعية من منظور عصرى وبين الفعل، أعنى بين مقتضيات النهوض وبين ما يحدث فعلاً ممثلاً فى إصدارات مؤلفة ومترجمة. ويؤكد هذا، الحاجة إلى توحيد وتنسيق نشاط الترجمة، وهو ما من شأنه أن يساهم فى توحيد وتنسيق البنية الذهنية أو العقل العربى. ولن يتأتى هذا إلا إذا اقترن نشاط الترجمة الموحد والمنسق مؤسسيًا برؤية عربية واضحة الأهداف والفكر، فاعلة ومبدعة ومنتجة. أى اقتران باستراتيجية تنموية عربية. وبدون ذلك سيكون كل نشاط فى مجال الترجمة حرثًا فى البحر.

لهذا نرى أن رسالة المؤسسة العربية للترجمة، فى ضوء ما حددناه من أهداف لها فى دراسة سابقة، رسالة شاقة عسيرة إذا نظرنا إليها فى ضوء القصور السائد فى العالم العربى، ومقتضيات النهضة من نقل المعارف كمًا ونوعًا على نحو يجعلنا ندنو من العصر.

إنَّ ما نحتاج إلى ترجمته كثير كثير وشديد العسر والتعقيد من معارف ومعلومات لملاحقة الجديد الذى يفيض، ومن معاجم وموسوعات تشكل أساسًا للثقافة والعلم والتعليم. وهذا كله بحاجة إلى أموال طائلة، وجيوش من المترجمين الأكفاء المؤهلين. ثم إلى شعوب تواقة بعزم صادق إلى النهضة على أساس علمي؛ ومن ثم نهمة لمعرفة المزيد والمزيد. فالنهوض فى عصر العلم لا يعرف الشبع المعرفى بل جوع ونهم وقدرة على الاستيعاب والتمثل والإبداع والإفادة والتوظيف.

وإنشاء ونجاح مؤسسة عربية للترجمة يستلزم تغييرًا جذريًا حضاريًا فى البنية والعلاقات الاجتماعية وتهيئة مناخ عربى يتمثل فى :

١ – خطة قومية ذات محاور واضحة لإطار مفهومى مؤسس على بيان حالة الترجمة وموقع الترجمة من النهضة ودورها فى التنمية الثقافية الشاملة على نحو ما حاولنا أن نعرضه.

٢ – خطة اختيار الكتب المترجمة على المستوى العربى، والهدف من ذلك لتكون بعض نسيج النهضة الحضارية.

٣ – خطة إنشاء شبكة اتصال عربية بشأن الترجمة والتوثيق للكتب المترجمة.

٤ – خطة إنشاء رابطة للمترجمين ونظام تشريعى لهم. ويمكن الاستفادة هنا بما أنجزته المنظمة العربية.

٥ - دراسة واعية لواقع التحديات الداخلية والإقليمية والعالمية (حالة الأمية المتفشية، وحالة العزوف عن القراءة) فالقضية ثقافيًا هى كتاب وقارئ؛

٦ - شبكة اتصال وتنسيق عربى لشئون التوزيع والتكامل؛ إذ الملاحظ أن الحدود شبه مغلقة فى وجه الكتاب بين بعض البلدان، وأن هناك شبه انفصال بين المشرق والمغرب العربيين.

وإذا كان لنا أن نتعلم درسًا من عدونا؛ فإننى للأسف أقدم كلمة ميجور هاركابى القائد العسكرى الإسرائيلى ورئيس جهاز الاستخبارات فى كتاب صدر له عام ١٩٦٢ تحت عنوان "الحرب النووية والسلام النووى" خاصة وأننا نلح الآن فى طلب السلام؛ إذ يقول:

"فى مقدور الدولة الصغيرة أن تتفوق على الدولة الكبيرة فى مضمار العلم إذا كانت:

- تحترم الفرد.
- يشيع فيها الإقبال على طلب العلم.
- تربط نفسها من خلال علمائها بمراكز الأبحاث والجامعات والمؤتمرات العالمية (الكليات غير المنظورة).
- تحسن التصرف فى إمكاناتها.

• تعمل على إذكاء روح التنافس العلمى بين المؤسسات العلمية المحلية فى إطار التنافس العلمى مع الخارج.

• وإنَّ أى نشاط علمى يظل ضئيلاً غير فاعل؛ ما لم يشمل القطاع الأعظم من السكان (أنطوان زحلان، العلم والتعليم العالى فى إسرائيل، ترجمة محمد صالح العالم، دار الهلال، القاهرة ١٩٧٠).

المؤلف فى سطور

• شوقى جلال .

وُلد فى القاهرة عام ١٩٣١ .

• مقرر لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة - القاهرة .

• الجزائر - عضو المجلس الأعلى للمعهد العالى للترجمة - جامعة الدول العربية .

• عضو لجنة قاموس علم النفس فى الثمانينيات بالمجلس الأعلى للثقافة .

• له ١٣ مؤلفا من بينها :

• العقل الأمريكى يفكر - نهاية الماركسية ؟ - التراث والتاريخ - ثقافتنا والإبداع - أركيولوجيا العقل العربى .

• له أوراق بحث فى ندوات ومؤتمرات ومقالات ثقافية وفكرية .

• له أكثر من ٦٠ كتاباً مترجماً منها :

• السفر بين الكواكب وبافلوف حياته وأعماله عام ١٩٥٧ وبنية الثورات العلمية تأليف توماس كون العقل التراث والتاريخ - ثقافتنا والإبداع - أركولوجيا العقل العربى الأمريكى يفكر - نهاية الماركسية ؟

التصحيح اللغوى : إيمان على
الإشراف الفنــى : حسن كامل